من روائع الأدب الإيسلندي

# جنّة وجحيم

يون كالمان ستيفنسن

دار المنى

# جنّه وجحيم

## يون كالمان ستيفنسن

النصّ العربي:
سكينة ابراهيم

دار المنى

# جنّة وجحيم

الكاتب:

يون كالمان ستيفنسن (١٧ كانون الثاني ١٩٦٣) كاتب أيسلندي ولد في ريكيافيك ونشأ هناك. عاش بين ١٩٧٥ و ١٩٨٢ في غرب أيسلندا وعمل في وظائف مختلفة بعد أن أنهى المدرسة الثانوية. من سنة ١٩٨٦ إلى ١٩٩١ درس الأدب في جامعة أيسلندا لكنه لم يصل إلى مرحلة التخرّج. علّم الأدب في المدارس الثانوية، وإلى جانب التدريس قام بكتابة المقالات لإحدى الصحف الأيسلندية. وبين ١٩٩٢ و ١٩٩٥ حصّل لقمة عيشه من وظائف مختلفة في كوبنهاغن والدانمرك ثم عاد إلى أيسلندا وعمل أمين مكتبة في مكتبة البلدية في موسفيلسباي. ثم تفرّغ للكتابة، ويعيش في أيسلندا منذ ذلك الحين كاتبًا مستقلاً. ابتدع لنفسه في السنوات القليلة الماضية عالمًا خياليًا فريدًا وساحرًا في سلسلة روايات متصلة أو مجموعات قصص قصيرة.

يقول عنه كارستين ينسين: يون كالمان كاتب استثنائي رائع. كلما قرأت له تذكّرت المغزى الذي تدور حوله الكتابة، وكلّ ما يتعلّق بشؤون الحياة البسيطة والمخادعة...

ألّف مجموعة من الكتب الشعرية. وفي سنة ٢٠٠٥ نال كتابه "ضوء النهار ثم يأتي الليل" جائزة الأدب الأيسلندي. ورُشحت ثلاثة من كتبه لجائزة مجلس الشمال الأوروبي للأدب. وهو أيضًا حاصل على جائزة بيير أولوف إنكويست لسنة ٢٠١١ ومُنحت له في معرض الكتاب في غوتنبرغ في أيلول ٢٠١١.

من أعماله الأخرى إلى جانب "جنة وجحيم"، "ليس للسمك أقدام" و "قلب الرجل"، و "أحزان الملائكة".

ISBN 978 91 87333 29 3
Arabic edition © Bokförlaget Dar al Muna AB 2015
© Jón Kalman Stefánsson 2007
Original title in Iceland: Himnariki og helviti
Published by agreement with Leonhardt and Hoier Literary Agency A/S, Copenhagen
Arabic text: Sukainah Ibrahim
The book has been translated with financial support from:

MIÐSTÖÐ ÍSLENSKRA BÓKMENNTA
ICELANDIC LITERATURE CENTER

هذه الرواية مهداة إلى اختيّ

بيرغليوت ك. برينسدوتر ١٩٣٨ ـ ١٩٦٩

ويوهانا برينسدوتر ١٩٤٠ ـ ٢٠٠٥

# نحن ظلمة تقريبًا

تشمخ الجبال فوق الحياة والموت وهذه البيوت المتلاصقة على اللسان الساحلي. نحن نعيش في قاع تجويف، يمرّ الصباح، يتحوّل إلى مساء، تغمره سكينة العتمة، ثم تتوهّج النجوم. نجوم تتألق إلى الأبد فوقنا كما لو أنّ لديها رسالة عاجلة، إنما أي رسالة وممّن؟ ماذا تريد منّا، أو لعلّ الأهم ربما، ماذا نريد نحن منها؟

لم يبقَ فينا إلا القليل مما هو نور. نحن نقف أقرب بكثير إلى الظلام، بل نحن ظلمة تقريبًا، كلّ ما خلّفناه لا يتعدّى الذكريات والأمل المتخدّر، أمل متخدّر لن يلبث أن يصيبه الشلل ويصبح مثل نجم خامد، قطعة حجر قاتمة. مع ذلك، نحن نعرف القليل عن الحياة والقليل عن الموت، ويمكن أن نخبر عنهما: لقد قطعنا هذا الدرب كلّه لنلامسكم، لنبعث الحركة في عجلة المصير.

ننوي أن نخبر عن أولئك الذين عاشوا في أيامنا، قبل أكثر من مئة سنة، ويعنون لكم ما هو أكثر قليلاً من مجرّد أسماء على صلبان مائلة وشواهد قبور متصدّعة، ننوي أن نحدث تغييرًا في أنظمة الزمن القاسية التي محت الحياة والذكريات. كلماتنا أشبه بفريق إنقاذ في مهمة دؤوب هدفها انتشال الأحداث الماضية والحياة المُطفأة من ثقب النسيان الأسود، وتلك ليست مهمة سهلة؛ فعلى امتداد الدرب قدتكتشف كلماتنا بعض الأجوبة الجاهزة التي يمكن أن تبعدنا عن هنا قبل فوات الأوان.

حسبنا من هذا الآن، سنرسل الكلمات إليكم، فهذا الفريق المُنقذ، الفريق الحائر والمشتّت غير متيقّن من مهمته، لأنّ البوصلات كلّها معطلة، والخرائط إما ممزقة أو عفى عليها الزمن، ومع ذلك يجدر بكم أن ترحّبوا به، وحينها نرى ما يحدث.

# الفتى والبحر وضياع الفردوس

# ١

حدث هذا في السنين التي كنّا خلالها ما زلنا أحياء نرزق. نحن في شهر آذار والعالم المتدثّر بالثلج أبيض، إنما ليس ناصع البياض، هنا لا تغدو الدنيا ناصعة البياض أبدًا، مهما تفاقم تساقط الثلج. اللون الأبيض لا ينتصر أبدًا حتى على الرغم من أنّ البحر والسماء يتجمّدان معًا، والصقيع يخترق أعماق القلب حيث تقطن الأحلام. إذ حالما يتساقط الثلج ويتراكم تُعمِل فيه نتوءات الجبال الصخرية تمزيقًا، ثم تلفظه أسود كالفحم في وجه العالم الأبيض. تلفظه أسود فوق الفتى وباردور وهما يحثّان الخطى بعيدًا عن البلدة؛ أصلنا ونهايتنا، مركز العالم، مركز العالم البشوش والأبيّ. يمشيان بخفّة، سيقان فتية، نار تشتعل، هما في الوقت نفسه يسابقان الظلام، وهذا ربما ضمن السياق بما أنّ الحياة الإنسانية سباق أبدي للتغلّب على ظلام العالم، على الخيانة والوحشية والجبن، سباق يبدو غالبًا ميؤوسًا منه، ومع ذلك نواصل التقدّم الحثيث، وبينما نفعل يبقى الأمل في الحياة. لا يروم باردور والفتى إلا بلوغ الأكواخ قبل حلول العتمة أو الغسق، بلوغ أكواخ صيد السمك، ويمشيان أحيانًا جنبًا إلى جنب، وهذا بلا ريب الأفضل لأنّ آثار الأقدام المتجاورة تدلّ على

الترابط، ما يعني أنّ الحياة ليست موحشة. إنما، على أيّ حال، غالبًا ما يضيق المسار ولا يتسع إلا لشخص واحد فقط، حيث يتعرّج ويتلوّى كأفعى متجمّدة في الثلج، عندئذٍ يضطر الفتى إلى المشي في أعقاب باردور، وعيناه تلاحقان مؤخرة حذائه، والحقيبة الجلدية التي يحملها على ظهره، والشعر الأسود المتشابك، والرأس الذي يستريح مطمئنًا على الكتفين العريضتين. أحيانًا، يسلكان شواطئ صخرية، فيطآن دروبًا خطرة تتخلّل أسطح المنحدرات، أما المجاز التعجيزي فهو الأسوأ من كلّ ذلك، إذ لا يؤمّن سلامة عبوره إلا سلك مشدود إلى وجه صخرة، في الأعلى منحدر جبلي مطلق، وفي الأسفل جدار حجري مطلق وبحر أخضر متلاطم، تبلغ مسافة السقوط منه ما يقارب ثلاثين مترًا، والجبل الذي تحجب قمّته الغيوم يرتفع حوالي ستمئة متر في الفضاء. البحر من جانب، وجبال حادّة وشاهقة من الجانب الآخر. تلك هي قصتنا الكاملة في الحقيقة. قد تتحكّم السلطات والتجار بأيامنا المُعدمة، لكن الجبال والبحر يتحكّمان بالحياة نفسها، هما قدرنا، أو هكذا نفكّر في أغلب الأوقات، وهكذا سيشعر المرء حتمًا في حال صحا ونام لعقود في كنف تلك الجبال، هكذا سيشعر في حال علا صدره وهبط مع أنفاس البحر وهو على متن قواربنا الصغيرة الخفيفة. في الحقيقة لا يكاد يكون هناك ما هو أروع من البحر في الأيام الجيدة، أو الليالي الصافية، عندما يحلم ويكون وميض القمر حلمه. لكن البحر يكفّ عن أن يكون رائعًا ولو قليلاً، بل حتى نضمر له الكراهية أكثر من أي شيء آخر عندما ترتفع الأمواج عشرات الأمتار فوق المركب، عندما تتكسّر فوقه، فنغرق كأننا جِراء بائسة. آنذاك يتساوى الجميع؛ الأنذال الفاسدون والرجال الطيبون، العمالقة والمتخاذلون، السعداء والأشقياء. لا شيء سوى صراخ مُدوٍّ، حركات مسعورة، ثم كما لو أننا ما كنّا هنا مطلقًا، يغرق الجسد الميت، يبرد الدم

الساري فيه، تتحوّل الذكريات إلى هباء، يتوافد السمك ويقضم الشفاه التي قُبّلت البارحة ونطقت الكلمات التي عنت كل شيء، يقضم الكتفين والظهر الذي حمل أصغر الأبناء، وفي قاع المحيط تنتهي العينان اللتان تكفّان عن رؤية أي شيء. المحيط بارد الزرقة ولا يهدأ أبدًا، مخلوق عملاق يتنفّس، يرأف بنا في أغلب الأحيان، لكنه في بعض الأوقات لا يفعل ونغرق؛ إن تاريخ البشرية ليس بالغ التعقيد.

أنا واثق من أننا سنجدّف الليلة، قال باردور.

ينتهيان من عبور المجاز التعجيزي، لم ينقطع السلك، ولم يقتلهما الجبل برشقة حجر. يرنوان معًا إلى البحر ثم ينظران إلى السماء التي يُقبِل منها الظلام، والتي لم تعد مطلقة الزرقة، لأنّ الجو قد اصطبغ بريشة المساء، وأصبح تمييز الشاطئ المقابل صعبًا، كما لو أنه انحسر، كما لو أنه كان يغرق في المدى؛ هذا الشاطئ يكاد يكون مثاليّ البياض، من بدايته إلى الكثبان، عاكسًا بذلك اسمه الشتوي.

لقد آن الأوان، يجيب الفتى، لاهثًا قليلاً من رحلتهما على الأقدام. مضت ساعتان منذ أن انطلقا من البلدة. تناولا الكعك والقهوة في المخبز الألماني، عرّجا على ثلاثة أماكن، ثم تهاديا خارجها. ساعتان من المشي المضني وسط الثلج. أقدامهما مبلّلة، طبعًا هي كذلك، كنّا دائمًا مبلّلين في تلك السنين. الموت كفيل بتجفيف أقدامنا، قال الحكماء عندما تأفّف أحدهم؛ في بعض الأحيان يعرف الحكماء ما هو أقلّ من لا شيء. يعدّل الفتى وضعية حقيبته المحمّلة بكلّ ما لا يمكن الاستغناء عنه، لا يعدّل باردور شيئًا، يقف ويراقب، يصفّر مقطعًا من لحن ضبابي، لا يبدو عليه التعب مطلقًا، تبًّا، يقول الفتى، أنا ألهثُ ككلب عجوز وأنت لا يظهر عليك ما يوحي أنك قد خطوت خطوة واحدة اليوم. ينظر باردور إليه بعينين بُنّيّتين جنوبيّتين ويكشّر. لدى بعضنا عيون بنّيّة، فصيادو السمك يأتون إلى

هنا من مناطق بعيدة، وقد فعلوا ذلك لمئات لسنين لأنّ بحرنا صندوق كنز. يأتون من فرنسا وأسبانيا، والعديد منهم من أصحاب العيون البنّيّة، بعضهم يخلّف لون عينيه وراءه مع امرأة ما، ويبحر بعيدًا، يعود إلى وطنه أو يغرق.

نعم حان الوقت، يوافق باردور. مضى على رحلتهما الأخيرة لصيد السمك نصف شهر. في البداية ثارت الرياح من الجنوب الشرقي، هطل المطر، أصبحت الأرض في المواضع التي أفلتت من الثلج ملطخة وداكنة، ثم تغيّر اتجاه الرياح وهبّت من الشمال، حيث أخذت تجلد العالم بسياط عاصفتها الثلجية عدة أيام بلا انقطاع، عاصفة وأمطار وثلوج على امتداد أربعة عشر يومًا، لا مركب في البحر، والسمك في تلك الأثناء آمن من البشر في الأعماق حيث سكون البحر السحيق، حيث لا تستطيع العواصف الوصول؛ والرجال الذين شوهدوا هناك غرقوا. يمكن المرء أن يقول أشياء مختلفة عن أولئك الرجال الغارقين، إنما أقّل ما يُقال إنهم لا يصطادون أي سمك، هم في الواقع لا يصطادون أي شيء ما عدا وميض القمر على سطح الماء. أسبوعان كاملان، وفي بعض الأوقات لم يكن المرء قادرًا على الانتقال من كوخ إلى آخر بسبب رداءة الجو، أبادت العاصفة العاوية المشهد بأكمله من جميع الاتجاهات، أبادت السماء والأفق، بل أبادت الزمن نفسه.

كان قد مضى وقت منذ أن أنهينا تثبيت ما يحتاج إلى تثبيت، أحكمنا ربط خطافات سمك القدّ، فككنا عقد الأسلاك، حللنا كلّ العقد ما عدا تلك المتعلقة بالقلب والرغبة الجنسية. حام رجل أو اثنان حول الشواطئ بحثًا عن بلح البحر لاتخاذه طعمًا، استغلّ قسم منّا الوقت لصنع الأشياء وتصليح المعاطف المقاومة للماء. لكن الأيام التي تُقضى والمرء مكبّل بالشاطئ يمكن أن تطول، يمكن أن تمتدّ إلى ما لا نهاية. حينها يصبح تحمّل الانتظار أسهل مع ألعاب الورق، نلعب

ونلعب ولا نقوم أبدًا إلا عندما نضطر إلى الاهتمام بالوظائف الجسمانية، نتثاقل خارجًا إلى العاصفة، ونقضي حاجتنا بين الصخور عند الشاطئ. بعضنا كسالى جدًا، أو ربما لا يتمتعون بكثير من الجمال الباطني، فلا يزعجون أنفسهم بالنزول إلى الشاطئ، وبدلاً من ذلك يتغوّطون قرب الأكواخ، ثم يقولون للمُشرف وهم يدخلون عائدين، ثمة عمل ينتظرك يا زميل! الفتى هو المشرف على الكوخ، وبالتالي عليه أن ينظّف من حوله، هو الأصغر سنًّا والأضعف، ولا يستطيع الانتصار على أحد في مباراة مصارعة، ولذلك عُهدت إليه مهمة الإشراف. هذا هو ديدن الحياة في أغلب الأوقات، أولئك الذين يفتقرون إلى القوة الكافية عليهم أن ينظّفوا أقذار غيرهم. مرّ أسبوعان طويلان، وعندما هدأ الجو أخيراً بدا الحال كما لو أنّ العالم قد عاد، انظروا، إنّ السماء هناك، أي أنّ هذا صحيح، أي أنّ السماء موجودة، وأنّ الأفق حقيقة لا مراء فيها! أمس، تراخى سخط العاصفة كثيراً بحيث استطاع الرجال تنظيف المرسى من الصخور، تدرّجوا منحدرين بصعوبة، اثنا عشر فردًا تجمّعوا من الكوخين، شكّلوا طاقمين، كدحوا في تنحية الحجارة الضخمة التي قُذفت نحو المرسى قرب البحر، تزعزعت أقدامهم وهي تطأ الحصى المبعثر تحتها، فخدشوا أنفسهم وأدموها، ست ساعات من العمل على صدر الشاطئ الزلق. هذا الصباح هبّت الريح من الغرب، واهنة نوعًا ما، ولكن عندما تهبّ من الغرب تجعل الأمواجُ الرحلةَ أقرب إلى المستحيلة، إنه أمر مخزٍ، بل تقريبًا كريه، أن يرى المرء هذا العائق من الزبد بينما البحر خلفه هادئ بما يكفي لأن يبحر فيه. بيد أنّ حدّة مزاج المرء تخفّ قليلاً لأنه يعرف أنّ سمك القدّ ينأى بنفسه بعيدًا عندما تهبّ الرياح الغربية، يختفي ببساطة. ثم إنّ هبوب هذه الريح يُعتبر فرصة ممتازة للقيام برحلة إلى البلدة.

غادر الرجال الأكواخ الرئيسة في مجموعات، عجّت الشواطئ بصيادي السمك، وغصّت سفوح الجبال بهم.

يلمح باردور والفتى أحيانًا مجموعة أشخاص أمامهما فيعدّلان من سرعتهما، بحيث ينأيان عنها بدلاً من الالتحاق بها، يسافر الاثنان وحدهما، هذا ما يرتئيانه، الكثير مما يحتاجان إلى التحدّث فيه لا يخصّ سواهما؛ الشعر والأحلام وتلك الأشياء التي تسبّب لنا الأرق في الليل.

ينتهيان من عبور المجاز التعجيزي. تستغرق الرحلة من هنا إلى الكوخ زهاء نصف ساعة، حيث يمتدّ الجزء الأكبر من المسافة على طول الشاطئ الصخري والبحر يرغي ويزبد عليهما. يقفان عند قمّة المنحدر، يتريّثان في النزول، يمعنان النظر في ما يزيد عن عشرة كيلومترات من البحر الأزرق البارد الذي يهوج ويموج عند رأس الزقاق البحري كما لو أنه ضجِر، ويرنوان إلى الشاطئ الأبيض المقابل لهما. الثلج لا يغيب عنه نهائيًا أبدًا، لا صيف يملك القدرة على إذابة الثلج بالكامل، ومع ذلك ما زال الناس يستقرّون أينما يعثرون ولو على بقايا خليج. وحيثما يكون الوصول إلى البحر في متناول اليد تقوم مزرعة ما، وفي منتصف الصيف يرفل الحقل البيتي الصغير المحيط بالمزرعة بحلّة خضراء؛ قطاعات شاحبة الخضرة من الأرض المعشوشبة تمتدّ نحو سفح الجبل، والهندباء الصفراء تشعّ وسط الحشيش. على مسافة أبعد، تجاه الشمال الشرقي، تحطّ أعينهما على مزيد من الجبال الشاهقة التي تلامس سماء الشتاء الرمادية: تلك هي الضفاف التي ينتهي عندها العالم. ينزع باردور حقيبته، يخرج منها قنينة مشروب البرينيفين، يرشف كلّ منهما جرعة. يتنهّد باردور، ينظر إلى يساره، ينظر إلى المحيط نفسه، عميق ومظلم، لا يفكّر على الإطلاق في نهاية العالم والصقيع الأبدي، لكن يفكر في الشعر الأسود الطويل، كيف تطاير حول

وجهها في أوائل كانون الأول، وكيف أزاحته جانبًا أغلى يد في الكون، اسمها سيغريد، وباردور يرتعش من الداخل قليلاً عندما يردّد الاسم بينه وبين نفسه. يلاحق الفتى نظرات صديقه ويتنهّد هو أيضًا. يريد أن ينجز شيئًا في حياته، أن يتعلّم لغة جديدة، أن يرى العالم، أن يقرأ ألف كتاب، يريد أن يكتشف الجوهر، أيًا ما كانت هذه الكلمة تعنيه، يريد أن يكتشف ما إذا كان هناك أي جوهر، ولكن أحيانًا من الصعب أن يفكّر المرء ويقرأ عندما يكون متيبّسًا ومتوجّعًا بعد رحلة صيد سمك شاقّة، عندما يكون مقشعرًا من البرد ومتسربلاً بالماء بعد اثنتي عشرة ساعة من العمل في المروج، عندما تكون خواطره ثقيلة جدًا بحيث يكاد يعجز عن حملها، كلّ هذا يجعل المسافة إلى الجوهر طويلة.

تهبّ الرياح الغربية وتعتّم السماء فوق رأسيهما شيئًا فشيئًا.

تبًّا، يقول الفتى فجأة لأنه يقف هناك وحده مع أفكاره، فباردور قد بدأ يتدرّج نازلاً المنحدر، الريح تعصف والبحر يخضخض وباردور يفكّر في الشَّعر الأسود، في الضحك الدافئ، في العينين الواسعتين بزرقتهما التي تتفوّق على زرقة مساء ليلة صافية من ليالي حزيران. يبلغان الشاطئ. يشقّان طريقهما فوق الصخور الكبيرة، يواصل ضوء العصر انحساره ويضغط عليهما، يتابعان التقدّم ويستعجلان في الدقائق الأخيرة، يصلان إلى الأكواخ قبل هبوط الشفق بقيْد شعرة.

يقوم وراء المرسى تقريبًا زوج من الأكواخ الأقرب إلى الجّدة، أضيفت إلى كلّ منها غرفة علوية، وعند الشاطئ يستقرّ مركبا "سيكسرين"، أي مركبان سداسيا المجاديف، يستقرّان مقلوبين ومربوطين بعناية. ومن وراء الأكواخ مباشرة تمتدّ صخرة ضخمة ووعرة إلى البحر مهيّئة بذلك مقرًّا سهلاً للمراكب، لكنها تحجب أكواخ

صيد السمك الرئيسة التي تبعد مسافة نصف ساعة. أكواخ يبلغ عددها ثلاثين إلى أربعين تقريبًا، أكثر من نصفها جديد نوعًا ما مثل كوخهما، وفيها غرف نوم علوية، بيد أنّ هناك عددًا منها قديم العهد وبطابق واحد فقط، والطاقم في أي منها ينام ويجهّز خيوط الصيد بالطعوم ويأكل في الموضع نفسه. ثلاثون إلى أربعين مبنى، ربما خمسين، إننا لا نتذكّر على وجه التحديد عددها، الكثير طواه النسيان، اختلط: تعلّمنا أيضًا شيئًا فشيئًا أن نضع ثقتنا في المشاعر لا في الذاكرة.

تبًّا، لا شيء سوى إعلانات، يُهمهم باردور. كانا قد دخلا الكوخ، صعدا إلى الغرفة العلوية وجلسا على السرير، هناك أربعة أسرّة للرجال الستة والقيّمة عليهم، المرأة التي تهتمّ بالطهي وموقد الحطب وتنظيف الكوخ. ينام باردور والفتى متعاكسين، رأسًا إلى قدم. أنام مع أصابع قدميك، اعتاد الفتى أن يقول، إذ ليس عليه إلا الالتفات برأسه لتصبح جوارب صديقه الصوفية في وجهه. قدما باردور ضخمتان، يثني قدميه تحته ويدمدم، لا شيء سوى إعلانات، يعني بذلك الصحيفة الصادرة من البلدة التي تُطبع أسبوعيًا، وهي تتألّف من أربع صفحات، صفحتها الأخيرة كثيراً ما تكتظّ بالإعلانات. يضع باردور الصحيفة جانبًا وينهيان إفراغ حقيبتيهما من كلّ شيء يجعل الحياة تستحق أن تُعاش، إذا استثنينا، في حالتهما، الشفاه الحمراء والأحلام والشَّعر الحريري. لا يمكن قطعًا أن نضع الشفاه الحمراء والأحلام في حقيبة ونحملها معنا إلى كوخ صيد سمك، بل حتى لا يمكن أن يشتري المرء مثل هذه الأشياء، على الرغم من وجود خمسة متاجر في البلدة، وما فيها من منوّعات يصيب الزبائن بالدوار عندما تكون الأحوال على أحسن ما يرام في منتصف الصيف. لعلّه ليس من الممكن شراء ما يهمّنا أكثر من أي شيء آخر، لا، طبعًا لا، تلك لسوء الحظّ ليست القضية، أو إذا صغناها بطريقة أفضل، الحمد

لله على ذلك. ينتهيان من إفراغ حقيبتيهما وتصبح المحتويات على السرير. ثلاث صحف، اثنتان منهما تصدران في ريكيافيك، قهوة، حلوى جامدة، خبز جاودار، رقائق مُحلاة من المخبز الألماني، كتابان من مكتبة القبطان المسنّ والأعمى – كتاب نيلز يويل؛ البطل الدانماركي البحري الأعظم، وفردوس ميلتون المفقود ترجمة جون تورلاكسن – إلى جانب كتابين تشاركا في شرائهما من الصيدلية من الدكتور سيغورد، محاضرات رحلة آيريكور من برانوم، وكتاب مدرسي لتعليم اللغة الإنجليزية لـ يون أولافسون. يمتلك سيغورد صيدلية ومكتبة في البيت نفسه، تفوح الكتب كثيراً برائحة الأدوية التي تعالجنا وتشفينا من الأمراض من مجرّد التقاط رائحتها، لذا لا داعي لأن يقول أحد إنّ قراءة الكتب ليست صحية. ماذا تريدان بهذا، تسأل القيّمة أندريا وهي تلتقط الكتاب المدرسي وتبدأ في تصفّحه. حتى نعرف كيف نقول أحبك وأرغب فيك بالإنجليزية، يجيب باردور. هذا كلام منطقي، تقول أندريا وتجلس وهي تحمل الكتاب. أحضر الفتى معه ثلاث قناني من العقار السحري، واحدة له وواحدة لأندريا والثالثة لآربي الذي لم يأت بعد، وكذلك لم يأت بعد إينار وجفيندور اللذين خططا أن يقضيا اليوم بزيارة عدّة أكواخ، التسكّع كما يطلقون عليه. أما بيتور الربّان فقضى جلّ يومه في الكوخ، ينظّف معاطفه المقاومة للماء، يفركها بزيت كبد سمك الورنك، ويصلح أحذيته البحرية. خرج مرة واحدة إلى بيت التمليح مع أندريا التي مضت عشرون سنة على زواجه منها، فرشا شراعًا فوق أكوام السمك المملّح، تلك الأكوام التي لا تنفك تعلو وترتفع، بحيث ما عاد بيتور يضطر إلى الانحناء بينما هما يتعاشران. بعد ذلك، علّق معاطفه في طابق الكوخ الأرضي بين تروس صيد السمك ورائحة نفّاذة حادّة تفوح منها، لكنها لن تلبث أن تغدو ليّنة ومطواعة عندما يخرجون الليلة إلى الصيد. رجل مرتّب ذاك الـ بيتور، مثل أخيه

غودومندر، ربّان القارب الآخر، وعلى الرغم من أنّ المسافة الفاصلة بين كوخيهما لا تزيد عن عشرة أمتار، لا يتبادل الشقيقان الكلام، لم يفعلا هذا منذ ما يقارب العقد ولا أحد يعرف السبب.

تضع أندريا الكتاب جانبًا، وتشرع في تسخين القهوة على الموقد. لم يكن لديهم أي قهوة في ذلك الصباح، وهذا مزعج حقًا. خلال مدة قصيرة يفوح أريج القهوة في الغرفة العلوية، ثم يتسلّل إلى الأسفل ويكتنف زنخ أدوات الصيد والمعاطف الوسخة. يرتفع الباب الأفقي القلّاب، ويطلّ بيتور بشعره الأسود ولحيته السوداء وعينيه المنحرفتين بعض الشيء، يصعد إلى الأعلى بوجهه الذي يشبه الجلد المدبوغ، كشيطان آتٍ من درك الجحيم، يصعد إلى سماء القهوة، وعلى وجهه تعبير شبه باشّ، إذ أنّ ما يمكن أن تنجزه القهوة أمر لا يستهان به. ابتسم بيتور للمرة الأولى وهو في الثامنة من العمر، أشار باردور في إحدى المناسبات، وابتسم ثانية عندما رأى أندريا أول مرة. نحن إذًا ننتظر المرة الثالثة، استنتج الفتى. يرتفع الباب القلاّب ثانية، ذاك الخبيث نادرًا ما يكون وحده، يهمهم الفتى حالما يظهر جفيندور، وبدا أنّ المساحة قد تقلّصت حالما أصبح الأخير هناك؛ فهو عريض الكتفين إلى درجة تحول دون أن تتمكّن أي امرأة من معانقته كما ينبغي. يصعد إينار في أعقابه مباشرة، حجمه لا يكاد يبلغ نصف حجم جفيندور، بيد أنه هائل القوة على الرغم من نحوله. ولا أحد يعرف من أين يستمدّ ذلك الجسم النحيل قوّته، وقد تكون من الهمجية، لأن عينيه السوداوين تقدحان شررًا حتى وهو نائم. ها أنتما أخيرًا، تهتف أندريا، وتصبّ القهوة في قدحيهما. نعم يا سيدي يقول بيتور، ويثرثر عن أحداث اليوم بأكمله. الناس لا يحتاجون إلى يوم كامل ليفعلوا هذا، يقول الفتى، فتهتزّ الأقداح قليلاً في يد أندريا وهي تكتم ضحكة. يكوّر إينار قبضتيه ويهزّهما

في وجه الفتى، يهسهس بشيء مبهم لا يُفهم منه إلا بعضه، فهو يفتقر إلى عدّة أسنان، لحيته الداكنة مهيبة وشبه نامية فوق فمه، شعره الخشن والخفيف رمادي تقريبًا. يتابعون شرب قهوتهم. كلّ واحد منهم يجلس على سريره والسماء في الخارج تحبو نحو الظلام. تقوّي أندريا ضوء المصباح. في الغرفة العلوية نافذتان تتوسطان الجملونين، واحدة تحيط الجبل بإطارها والأخرى تحيط بإطارها السماء والبحر، إطاران يحيطان بوجودنا. لوقت طويل لا يُسمع شيء سوى هدير البحر وأصوات التلذّذ بشرب القهوة. يجلس جفيندور وآينار متجاورين ويتشاركان قراءة صحيفة واحدة، تدقّق أندريا في كتاب تعليم اللغة الإنجليزية، محاولة أن توسّع أفق حياتها بلغة جديدة، يحدّق بيتور في لا شيء، ولدى الفتى وباردور أوراقهما الخاصة، آرني هو الغائب الوحيد. غادر إلى البيت قبل يوم أمس بعد أن أنهوا تنظيف المرسى، شقّ طريقه تحت وابل المطر الشمالي، وسط الصقيع والثلج، عيناه عاجزتان عن تمييز شيء ومع ذلك أفلح في تلمّس طريقه؛ مسيرة ست ساعات إلى البيت، إنه في ريعان الشباب إلى درجة أنّ المرأة تستطيع ابتلاعه، كانت أندريا قد قالت، نعم، ينقاد وراء قضيبه اللعين، يعلّق إينار الذي يعتريه غضب مفاجئ على ما يبدو. أعرف أنك لا تصدّق هذا ولا تستطيع تخيّله، قالت أندريا بعد ذلك مخاطبة إينار وفي الوقت نفسه ملقية نظرة خاطفة على زوجها، لكن هناك رجالاً هم أكثر قليلاً من مجرّد عضلات وشوق إلى السمك وتوق إلى ما بين أفخاذ النساء.

لعلّ أندريا عرفت بأمر الرسالة التي كان يحملها آرني. الرسالة التي كتبها له الفتى. وهي ليست المرة الأولى التي يطلب فيها آرني منه أن يكتب له رسالة إلى زوجته سيسيليا، تقرأ هذه الرسائل ونحن مستلقيان في السرير والجميع نائم، قال آرني مرّة، وتكرّر قراءتها وأنا غائب. أفتقدكِ، كتب الفتى، أفتقدكِ عندما أستيقظ، عندما

أُحكم قبضتي على المجداف، أفتقدكِ عندما أعلّق الطعم في الخيط، عندما أبطح السمك. أفتقد سماع ضحك الأطفال وتساؤلهم عن شيء لا أملك له جوابًا بينما أنت بالتأكيد تملكينه، أفتقد شفتيكِ، أفتقدِ نهديك وأفتقد باطن فخذيكِ – لا، لا تكتب هذا، اعترض آرني وهو ينظر من فوق كتف الفتى. لا أستطيع أن أكتب أفتقد باطن فخذيكِ؟ قال الفتى، فهزّ آرني رأسه. ولكن أنا أحاول كتابة ما يدور في ذهنك ككلّ مرّة، وبالتأكيد أنت تفتقد باطن فخذيها؟ هذا ليس من شأنك، أجاب آرني، ثم إنني لن أقولها أبدًا على هذا النحو: باطن فخذيكِ. كيف تقولها إذًا؟ كيف أقولها... أقول... لا، هذا ليس من شأنك اللعين! وهكذا اضطر الفتى إلى شطب عبارة باطن فخذيكِ وكتب بدلاً منها رائحتكِ. إنما ربما، فكّر، تحاول سيسيليا أن تستشفّ الكلمات المشطوبة، وهي تعرف أنني أنا من يكتب الرسائل لآرني، تمعن النظر في الكلمات وفي النهاية تتوفّق في قراءتها، وتستوعبها، وحينها تفكّر فيّ. يجلس الفتى على السرير، يحدّق في الصحيفة ويحاول دفع هذه الصورة جانبًا: سيسيليا تقرأ هذه الكلمات المحرّمة، الكلمات الندية والناعمة والدافئة.

تمعن النظر في الورقة وتقرأ الكلمات، تهمس بها لنفسها، يتدفّق فيها تيار لطيف وتفكّر فيّ. يبتلع ريقه، يحاول التركيز على الصحيفة، يقرأ أخبارًا عن أعضاء البرلمان،

يقرأ عن غيسلي ناظر المدرسة هنا في بلدتنا الذي تغيّب عن الحضور ثلاثة أيام لأنه متوعّك بسبب تعاطيه الكحول، ثمة ضغوط كثيرة على الرجل، أن يضطر إلى التعليم إلى جانب تعاطي الكحول، ويقرأ عن إميل زولا الذي أصدر رواية جديدة بيعت منها مئة ألف نسخة في الأسابيع الثلاثة الأولى. يرفع الفتى نظره بسرعة ويحاول أن يتخيّل مئة ألف شخص يقرأون الكتاب نفسه، ولكن تخيّلَ مثل هذا العدد يكاد يكون مستحيلاً، خصوصًا والمرء يعيش هنا إلى جوار القطب. يحملق

مبحراً مع أفكاره، لكن يعود إلى النظر بعجالة إلى الصحيفة عندما يدرك أنه قد عاد إلى تخيّل سيسيليا وهي تقرأ الكلمات وتفكّر فيه، ينتقل إلى صفحة أخرى من صحيفته ويقرأ: غرق ستة رجال في خليج فاكسافلوي. كانوا يركبون "سيكسرين"، وفي طريقهم من أكرانيس إلى ريكيافيك.

خليج فاكسافلوي عريض.

كم يبلغ عرضه؟

عريض إلى درجة أنّ الحياة لا تستطيع عبوره.

ثم يأتي المساء.

يأكلون سمكًا مسلوقًا مع الكبد.

يروي إينار وجفيندور أخبار أكواخ صيد السمك، تلك البيوت الثلاثون أو الأربعون المتلاصقة في مجموعات صغيرة على الضفة الحصوية عند الشاطئ العريض. إينار هو من يحكي، أما جفيندور فيكتفي بالنخير بين حين وآخر، ويضحك عندما يعتقد أنّ ذلك ملائم. أربعون كوخًا، أربعمئة إلى خمسمئة صياد سمك، حشد بشري. تصارعنا، عقدنا أصابعنا معًا وجذبنا، يقول إينار، الشيطان بعينه، يتابع إينار، وذاك مريض، شكوى معوية لعينة، لن ينجو من الشتاء إلا بشقّ النفس، وذاك فوضى عارمة، والآخر راحل إلى أميركا في الربيع. لحية إينار تضاهي بسوادها سواد لحية بيتور وتتدلّى إلى صدره، نادراً ما يحتاج إلى وشاح. يسترسل في الحديث عن مختلف الأشياء، وأندريا وبيتور يستمعان. باردور والفتى يستلقيان على السرير متعاكسين، يقرآن، يصمّان آذانهما، ينظران عاليًا لبرهة عندما تبحر سفينة في الزقاق البحري متجهة إلى البلدة، هي بطبيعة الحال سفينة بخارية نرويجية لصيد

الحيتان، تبحر ملعلعة ومدوّية، كما لو أنها تتذمّر من حمولتها. رفع التجار اللقطاء سعر الملح، يصيح إينار، متذكّرًا فجأة أهمّ خبر، ومتوقّفًا عن الحديث عن يوناس الذي نظمَ اثنين وتسعين بيتًا من الشعر عن إحدى القيّمات، بعض الأبيات فاسقة ولكن جيدة النظم جدًا بحيث زعم إينار أنه اضطر إلى قراءتها مرتين، يضحك بيتور لكن أندريا لا تفعل، يبدو الرجال أنهم يميلون عمومًا نحو أكثر الأشياء فجاجة في العالم، نحو كلّ ما يكشف نفسه بسرعة بالغة، بينما النساء يرغبن في كلّ ما يحتاج إلى المطاردة، كلّ ما يكشف عن نفسه ببطء. رفعوا سعر الملح؟! يهتف بيتور. نعم، أولئك الأوغاد! يزعق إينار بوجه محتقن من الغضب. قريبًا يصبح حالنا أفضل إذا بعنا السمك نديًا، من البحر مباشرة، حالما نصطاده، يقول بيتور متفكّرًا. نعم، توافق أندريا، لأنهم يريدونه هكذا ولذلك رفعوا السعر. يحدّق بيتور في لا شيء ويشعر بالكآبة تنتشر في رأسه ووعيه من غير أن يدرك حقًا سببها. يعني التوقّف عن تمليح السمك نهاية الكومة في بيت التمليح، وحينئذ أين أذهب أنا وأندريا، يفكّر، لماذا يجب أن يتغيّر كلّ شيء، لا عدل في هذا. تنهض أندريا، تبدأ في التنظيف بعد القهوة، يرفع الفتى نظره للحظة عن يوميات رحلة آيريكور، فتتلاقى أعينهما كما يحدث أحيانًا، باردور غارق في فردوس ميلتون المفقود، الكتاب الذي ترجمه يون تورلاكسون قبل أيامنا بفترة طويلة. الجوّ هنا مريح، يُشيع الموقدُ الدفء في الغرفة العلوية، وعلى النوافذ تزداد كثافة المساء. تخبط الريح السقف، يمضغ جفيندور وإينار التبغ، يتأرجحان في مقعديهما، يتنهّدان بعمق ويهمهمان بالتناوب، يبعث مصباح البارافين ضوءًا لطيفًا جاعلاً المساء في الخارج أحلك مما هو عليه، كلما زاد الضوء زادت الظلمة، هذه هي الطريقة التي يسير عليها العالم، يقف بيتور، يتنحنح ويبصق، يبصق كآبته ويقول نعلّق الطعوم بالخيوط عندما يحضر آربي، ثم ينزل ليجهّز

المشابك ويحزم الكلابات والأبازيم، محتدًا في الوقت نفسه لأنّ الرجال لا يعملون. إنها لعنة أن ترى حولك الأدوات ملقاة والرجال البالغين مستلقين يقرأون كتبًا عديمة الفائدة، يا له من هدر للضوء وللوقت، يقول ورأسه فقط ظاهر من الطابق الأرضي. يحوّل الفتى عينيه عن آيريكور، وينظر إلى الرأس الأسود المنبثق من الطابق الأرضي مثل رسول من الجحيم. يومئ إينار برأسه موافقًا على كلام بيتور، يعاجل باردور والفتى بنظرة ساخطة، يقف، يبصق تفلاً أحمر، وينزل لينضمّ إلى ربّانه الذي يقول له ولكن بصوت يمكن سماعه في الأعلى، كلّ شيء يتقهقر، وهو على نحو ما على صواب، لأننا ما ولدنا إلا لنموت. بيد أنهم الآن ينتظرون آرني، لا بدّ أنه آتٍ، هو لا يقصّر في المجيء أبدًا.

عليّ أن أبادر إلى الانطلاق، يقول آرني لسيسيليا.

لا تسمح للبحر أن يبتلعك، تستعطفه. يضحك. ينتعل جزمته ويقول، أأنت مجنونة، ربّاه، لن أغرق وأنا أنتعل جزمة أمريكية!

أمور كثيرة مدهشة يمكن أن تحدث.

في الوقت الحالي يتجوّل آرني بملابس جافة في المروج والأراضي العشبية الرطبة، في المستنقعات والجداول، من غير أن يغمر الماء جواربه؛ هذا يشبه السحر كثيراً. ابتاع آرني جزمة أمريكية قبل سنة تقريبًا، قام برحلة خاصة إلى الزقاق البحري التالي ليفعل هذا، جدّف مبحرًا في مركب صيد، واشترى الجزمة وألواح شوكولاتة للأطفال وسيسيليا، استسلم أصغر الأطفال إلى البكاء حالما أتى على لوحه ولم يواسه شيء أبدًا. كلّ ما هو مُغرق ومغرق في الحلاوة يصيبنا غالبًا بالحزن في النهاية. يأتي صيادو سمك الهلبوت الأمريكان إلى هنا في شهر آذار أو نيسان، يصطادون الهلبوت من غرينلاند، ولكن يجهّزون سفنهم بالأدوات من هنا، يشترون المؤن والملح منّا

ويدفعون نقدًا، يبيعوننا مقابلها البنادق والسكاكين والبسكويت، إلا أنّ لا شيء يوازي في أهميته نصف أهمية الجزم المطاطية. الجزم المطاطية الأمريكية أغلى حتى من أكورديون، أسعارها تكاد تعادل الأجر السنوي لعاملة مزرعة، غالية جدًا بحيث أنّ آربي احتاج إلى حرمان نفسه لشهور بحالها من مشروب البرينيفين والتبغ حتى يدّخر ما يكفي ليشتري زوجًا منها. لكنها تستحق، يقول آربي ويوغل في المستنقعات، يقطع الجداول ويبقى جافّ القدمين دائمًا، يخوض في الماء والثلج بقدمين جافتين حتى العظم. الجزم المطاطية هي قطعًا أفضل شيء جاء في يوم من الإمبراطورية الأمريكية، هي تدحر كلّ ما عداها، لذلك يمكن أن ندرك أنّ غرق من ينتعلها لا يُغتفر. هو إهمال لا يغتفر، يقول آربي ويقبّل سيسيليا والأطفال ويقبّلونه بدورهم، إنّ تبادل القبل أفضل ألف مرّة من الصيد في قوارب صغيرة مفتوحة بعيدًا وسط البحر. تراقبه زوجته وهو يغادر، لا تُغرقه يا رب، تهمس لأنها لا تريد أن يسمعها الأطفال، لا تريد أن تفزعهم؛ نحن لا نحتاج في الحقيقة إلى رفع أصواتنا عندما ندعو من أجل أكثر ما يهمّنا. تدخل، تقرأ الرسالة ثانية وتتجاسر الآن على معاينة الكلمات المشطوبة بنظرة فاحصة، مجرّد شيء لم يرض عنه الفتى، كان آربي قد قال، تمعن النظر مدة طويلة وتنجح في قراءتها. ها أنتَ، يقول بيتور لآربي الذي وصل بجوارب جافّة، يمكنهم إذًا أن يذهبوا ويجهّزوا الخيوط بالطعوم، إذ من المرجح أن يخرجوا إلى الصيد الليلة.

# ٢

يختلف النوم عند البحر المفتوح عنه هنا في البلدة، عند رأس الزقاق البحري، بين الجبال الشاهقة، في قاع العالم فعلاً، والبحر أحيانًا يغدو وديعًا جدًا إلى درجة أننا ننزل إلى صدر الشاطئ لنداعبه، لكنه لا يكون وديعًا على الإطلاق خلف الأكواخ، لا شيء هناك يبدو قادرًا على صدّ زبد البحر المتصاعد، ولا حتى الليالي الساكنة، ولا السماء الموشاة بالنجوم. يفيض البحر في أحلام أولئك الذين ينامون قربه، فوعيهم مزدحم بالسمك والرفاق الغرقى الذين يلوحون بحزن بالزعانف بدلاً من الأيدي.

من عادة بيتور أن يكون أول من يستيقظ دائمًا، فهو الربّان. ينهض بينما كلّ شيء من حوله ما زال غارقًا في العتمة، لا يكاد يتجاوز في نهوضه الثانية صباحًا، يخرج، يرفع نظره إلى السماء، فتطلعه كثافة الظلام على الوقت. لا ينظر أبدًا إلى الساعة، وهي على أي حال تبقى في الطابق الأرضي تحت بعض النفايات. وها هو يقوم الآن، يتحسّس المكان بحثًا عن ثيابه، الموقد لا يشتعل في الليل، والحيطان الهشة غالبًا ما تغربل إلى الكوخ برد آذار. تتردّد ببطء أنفاس أندريا التي تشاطره السرير،

ما زالت تغطّ في نوم عميق، قابعة في قاع أحلامها، يشخر إينار ويكوّر قبضتيه في نومه، يشاطره آرني السرير نفسه، وينام وإياه متعاكسين، لا يتحرّك الفتى ولا باردور، أما العملاق جفيندور فمحظوظ كثيراً لحصوله على سريره الخاص، على الرغم من أنه صغير جدًا عليه. أنت أضخم من العالم بمرتين، قال له باردور مرة. فاعترى جفيندور حزن بالغ جعله يحتاج إلى النأي بنفسه بعيدًا. يلبس بيتور كنزته الصوفية وبنطلونه، ثم يترنّح نزولاً إلى الأسفل، وخارجًا إلى الليل، حيث يهبّ من الشرق نسيم لطيف ووديع، وحيث ما زالت معالم بعض النجوم مرئية، نجوم لامعة تروي أخبارها من الزمن الغابر بضوئها الذي يبلغ عمره آلاف السنوات. يضيّق بيتور عينيه إلى أن يغادره النعاس تمامًا، إلى أن تتبخّر أحلامه وتستعيد أحاسيسه صفاءها، يقف منحنيًا، مقوّس الظهر مثل وحش غامض، يعبّ الهواء، يتفحّص الغيوم الداكنة، يستمع، يستشفّ الرسائل التي تحملها الريح، نصف ينخر نصف يزمجر، يعود إلى الداخل، يرفع الباب القلاّب برأسه الأسود، يقول سنجدّف. لا يقولها بصوت عالٍ إنما بدت كافية، يصل صوته إلى أعمق أعماق الأحلام، يبتر حبل النوم ويستيقظون كلهم.

ترتدي أندريا ملابسها تحت غطاء السرير، تنهض وتشعل الموقد والمصباح الذي يشعّ متوهّجًا بضوء لطيف، ولوقت طويل لا أحد يقول كلمة، يكتفون بارتداء ثيابهم والتثاؤب، يتمايل جفيندور ناعسًا وهو على حافة سريره، مشوّش الذهن عند الحدود الفاصلة بين النوم واليقظة، حتى ليكاد لا يدري أين هو. يفركون لحاهم، كلهم ما عدا الفتى الذي ليس لديه شيء، هو واحد من بعض الناس الذين يصرفون وقتًا في حفّها، وهذا طبعًا لا يحقق النتيجة المرجوة، فهي خفيفة ومتفرّقة. تحتاج إلى شيء من الرجولة، قال له بيتور مرّة، وضحك إينار. أما لحية باردور فكثة وبنيّة، يشذّبها بانتظام، وهو وسيم جدًا. تتأمّله أندريا أحيانًا لمجرّد أن تملّي عينيها منه،

كما قد نتأمّل صورة جميلة، كما قد نتأمّل الضوء المنعكس فوق سطح البحر. تغلي القهوة، يفتحون صناديقهم، يستخدمون أصابعهم ليدهنوا خبز الجاودار بالزبدة ومعجون كبد الإوز، كثير من الزبدة والمعجون والقهوة تغلي ساخنة وسوداء مثل أحلك الليالي، لكنهم يحلّونها بقطع السُّكر، ليتنا نستطيع فقط أن نضيف شيئًا من السُّكر إلى الليل لنجعله حلوًا. يكسر بيتور الصمت، أو بالأحرى يخترق صوت المضغ والشرب والتلمّظ والضراط العرضي ويقول، الريح شرقية، لطيفة، دافئة قليلاً لكنها ستتحوّل إلى الشمال في وقت ما اليوم، إنما في ساعة متأخّرة، لذا سنوغل في التجديف.

يتنهّد إينار بسعادة. نوغل في التجديف. إنها مثل ترتيلة في أذنيْه. ويقول آرني الذي توقّع هذا، نعم طبعًا. وكان قد قال لسيسيليا، أنا متأكّد من أننا سنوغل في التجديف. فأجابت أوه، لا تسمح للبحر أن يأخذك.

كان السمك بطيء الاستجابة لإغراء الطعوم في مياه الصيد الضحلة قبل أيام الجو السيّئ، لذلك من الطبيعي الآن أن يحاولوا في المناطق الأعمق. تسارع أيدي الجميع إلى صناديقهم لتناول شريحة خبز أخرى. يعني التجديفُ بعيدًا التجديفَ حوالي أربع ساعات متواصلة، فالريح أهدأ من أن توجّه الشراع، ويُحتمل أن يبقوا في البحر ثماني إلى عشر ساعات على أقلّ تقدير، وربما اثنتي عشرة ساعة، ما يعني أنّ هناك اثنتي عشرة ساعة تفصلهم عن الوجبة التالية، والخبز جيّد والزبدة جيّدة ومن المستحيل تقريبًا أن يعيش المرء من غير أن يشرب القهوة. يتمهّلون في رشف قدح القهوة الأخير، يستمتعون به، ففي الخارج ينتظرهم ليل شبه أدهم، يمتدّ من قاع البحر إلى السماء حيث توقد شعلة النجوم. يتنفّس البحر بصعوبة صامتًا ومعتمًا، وعندما يصمت البحر يصمت كلّ شيء، بما في ذلك الجبل فوقهم الذي يتعاقب عليه السواد والبياض. ثمة ضوء خافت من المصباح، فقد عتّمته أندريا قليلاً، لأنّ المرء

لا يحتاج إلى ضوء باهر ليرشف آخر قطرة قهوة. كلّ واحد فيهم غارق في أفكاره، يحدّق أمامه مباشرة، يفكّر بيتور في الرحلة البحرية، يستعرض كافّة المهام في رأسه، يهيّئ نفسه، هذا ما يفعله دائمًا، ينفد صبر آرني، يشتعل حماسة، يريد أن يبدأ في العمل، إينار أيضًا يفكّر في التجديف، في مشقّته الخالصة، يتنهّد بعمق ويشعر بالصفاء، الدّم الذي تغلب عليه الحرارة الفائقة، الدم الذي يجري بسرعة مزعجة في عروقه ويجعله عصبيًا طوال الوقت، تحوّل إلى نهر ينساب مسالمًا بين ضفتين معشوشبتين. القهوة، والجهد الشاقّ الذي ينتظرهم، يشيعان في إينار السعادة، بل يعتريه ما يشبه المودّة تجاه الرجال الجالسين في الغرفة العلوية، نصف منحنين فوق آخر قطرات قهوتهم، بل أيضًا يستطيع النظر إلى الأبلهيْن باردور والفتى من غير أن يحتدم فيه الغضب، فهما يوديان به إلى الجنون المحض أحيانًا بقراءتهما الأبدية اللعينة، وأبدًا يقتبس أحدهما للآخر مقطعًا من قصيدة، تلك مذلّة لعينة، عفن سيكولوجي يجعل المرء رقيقًا، لكن لا، هذا لا يجعل دمه يغلي على الإطلاق الآن، يرشف إينار بقايا قهوته ويتمطّق، يغمره شعور بأنّ الحياة جيدة.

الآن يقبل المساء
وقلنسوة بلون الغسق،
مصحوبة بالصمت،
تحطّ على كلّ شيء

يقرأ باردور في الفردوس المفقود، يميل الكتاب بطريقة معينة حتى يحّط عليه وميض المصباح، الضوء الذي يمكن أن ينير بيتًا جيدًا من الشعر ينجز بالتأكيد الغرض المرجو منه. تتحرّك شفتاه، يعيد قراءة السطور مرّة تلو مرّة، وعالمه الداخلي

يكبر أكثر فأكثر كلما كرّر القراءة، يزداد اتساعًا. ينهي الفتى قهوته، يهزّ قدحه، يضعه في صندوقه، يراقب باردور بطرف عينه، يلمح شفتيْه تتحركان، تنتقل إليه عدوى التأثّر، ويعود إليه الأمس مع كلّ البريق والحضور الطاغي اللذين يرافقان باردور، اللذين يرافقان الصداقة. يجلس على طرف السرير والأمس ينبض فيه. يتحسّس صندوقه بحثًا عن العقار السحري، المهضّم الفعّال، الإكسير المنعش والمقوّي، الدواء الناجع الذي يعالج غازات الأمعاء المزعجة والحموضة والغثيان واضطرابات الحجاب الحاجز، الجميع يعرف هذا، نقرأ عنه في الصحف حيث تؤكّده شهادات الأجانب إضافة إلى الأيسلنديين؛ أطباء، وقائمين على الأبرشيات وقباطنة بحار، الجميع يوصي بهذا العقار السحري، العقار الذي أنقذ أرواحًا من الهلاك، أنقذ أطفالاً وقفوا عند عتبة الموت نتيجة نوبة أنفلونزا، واستعادوا عافيتهم بعد عدة ملاعق، وهو مثالي أيضًا في القضاء على دوار البحر، خمس إلى سبع ملاعق قبل مغادرة الشاطئ ويتحرّر المرء تحرّرًا كاملاً من دوار البحر. يتناول الفتى جرعة من القنينة. جحيم أن يُصاب المرء بدوار البحر وهو على متن "سيكسرين" في عرض المحيط، حيث عليه أن يكدّ في العمل، وحيث يبعد عدة ساعات عن اليابسة. يتناول الفتى جرعة أخرى لأنّ دوار البحر يمكن أن يعاود المرء مرارًا وتكرارًا بعد فترات طويلة على الشاطئ، وتتناول أندريا جرعتها لمعالجة السعال الذي يثقل رأسها بلا داع. ما على المرء إلا أن يتناول العقار السحري ليختفي انزعاجه أو لا يعود يقترب منه أبدًا. وجودنا بحث دائب عن حلول، عمّا يريحنا، عن كلّ ما يمنحنا السعادة ويبعد عنا الشقاء. بعضنا يسلك من أجل ذلك طريق سفر طويلة ومضنية وربما لا يعثر على مراده مطلقًا، إلا من يفعل ذلك من أجل هدف ما، من أجل نوع من الانعتاق أو الفرج من خلال البحث نفسه. نحن البقية، نحترم طبعًا مثابرتهم ولكن لدينا ما يكفينا من المشاكل القائمة لنتعامل معها. ولذلك نتناول العقاقير

السحرية بدلاً من البحث، ونتساءل باستمرار عن أقصر طريق إلى السعادة، ونعثر على الجواب عند الله والعلم ومشروب البرينيفين والعقاقير السحرية.

مضوا كلهم إلى الخارج.

تحيط الأكواخ أكوام كبيرة من الثلج، لكن الشاطئ أسود. يبدأون في قلب القارب. وضع "السيكسرين" على عارضته يعدّ عملاً هيّنًا بالنسبة إلى اثنتي عشرة يد، المهمة الأصعب هي أن يُقلب، وحينها لا تكاد تلك الأيدي تكفي، فهذا العمل يحتاج على أقلّ تقدير إلى ست أيدٍ إضافية. لكن المجموعات الأخرى ما زالت تغطّ في نوم عميق. أولئك الأوغاد ما زالوا يريحون أيديهم المتعبة في عالم الأحلام، فهم لا يغادرون قبل الفجر، لأنهم يوغلون دائمًا في عرض البحر. بيد أن الربّان غودومندر على وشك أن يستيقظ، يُدعى غودومندر الصارم، وعلى رجاله أن يكونوا في الكوخ قبل الثامنة مساءً. فالتسكّع والثرثرة اللانهائية يسمّمان عروقه. يحترمه أفراد طاقمه بلا قيد أو شرط وكلهم عمالقة، بقوا أحياء خلال أعتى عواصف العالم، وهم وقحون جدًا بحيث يمكن أن يقتلوا كلبًا بألسنتهم، لكنهم يتحوّلون إلى رجال هيّابين ومتواضعين إذا تكّدر مزاج غودومندر. القيّمة هناك تُدعى غودرون، قصيرة وبهيّة الطلعة، بشعر فاتح وضحكة مشعّة تحول أبدًا دون انتشار الظلام حيث تكون، هي النظير المقابل لعدد كبير من قناني العقار السحري، هي جميلة، وهي لعوب، ووجنتاها مكتنزتان وناصعتا البياض جّدا إلى درجة أنهما يمكن أن تجعلا قلب المرء يئن. في بعض الأحيان توقّع بقدميها بعض الخطوات الراقصة الغريبة، فيتصدّع شيء ما داخل صدور الرجال في الكوخ، أولئك الرجال العتاة الذين جلدتهم الرياح، المثقلون بالعاطفة المشبوبة وعقد الغريزة الوحشية الباطنية

التي يستحيل فكّها. بيد أن غودرون تخصّ غودومندر، وهم يفضلون الغوص إلى قاع البحر البارد المهلك على أن يحاولوا الإقدام على شيء مع ابنته، أأنت مجنون، حتى الشيطان لن يتجرأ على لمسها. في الوقت نفسه تبدو غودرون غافلة تمامًا عن تأثيرها، ولعل هذا أسوأ ما في الأمر، أو ربما هو الأفضل في الحقيقة.

يعملون بصمت.

يحملون ما ينبغي أن يُحمل إلى المركب، الحبال والخيوط المجهّزة بالطعوم، والمعاطف المبطّنة الواقية فالجوّ ما زال أكثر اعتدالاً من أن يلبسوها فورًا، بنطلوناتهم الجلدية ترتفع لتصل إلى ما تحت الإبطين، صوف كنزاتهم محبوك جيدًا، أمامهم رحلة بحرية قاسية من ثلاث إلى أربع ساعات. كلّ رجل منهم منهمك بمهمّته المعينة خلال الليلة، فقط لو أنّ الوجود كان مباشرًا دائمًا وسهل الاستقراء، فقط لو أننا نستطيع الإفلات من عدم اليقين الذي يتطاول منتشرًا فوق القبور والموت. لكن ما الذي يخفّف عدم اليقين إنْ لم يفعل ذلك الموت؟ الثلج لن يلبث أن يتراكم بكثافة ابتداءً من الكوخ ونزولاً إلى الشاطئ الأسود. تخرج أندريا وتفرغ مباول المهجع، الأرض الصخرية حول الكوخ تتشرّب كافة أنواع السوائل، سواء هي بول أو ماء مطر، تختفي تلك السوائل في باطن الأرض، ولا ريب في أنه من الجيد أنّ سقف الجحيم لا يرشح، اللهم إلا إذا كانت إحدى العقوبات تتضمّن إراقة المخلّفات السائلة وماء المطر على شخص ما باستمرار. تقف أندريا لحظة وتراقبهم يعملون، لا يُسمع من ناحيتهم وقع قدم واحدة، البحر غارق في النوم، الجبل غافٍ والسماء صامتة، لا أحد صاحٍ هناك، الساعة تدنو من الثالثة صباحًا. يستنفر باردور فجأة، يهرع إلى الكوخ ويختفي فيه، تهزّ أندريا رأسها، وأيضًا تندّ عنها ابتسامة واهية، تعرف أنه يقف على السلم، يمدّ يده إلى السرير يفتح كتاب الفردوس المفقود، يقرأ السطور التي يرغب في حفظها وتكرارها لنفسه وللفتى وهما في البحر،

الآن يقبل المساء،
وقلنسوة بلون الغسق،
مصحوبة بالصمت،
تحطّ على كل شيء.
الوحوش أوت إلى الملاجئ،
والطيور في الأعشاش،
لأن الليلة
قد هجعت

كان باردور آخر من يخرج، يخرج غارقًا في مقطع شعري كتبه رجل إنجليزي أعمى، وأعاد كتابته بالأيسلندية كاهن بسيط عندما مضى الزمان تحت اسم آخر. يعيد تلاوة المقطع الشعري، يغمض عينيه بسرعة ويخفق قلبه. ما زالت الكلمات قادرة على إثارة مشاعر الناس كما يبدو، هذا لا يُصدّق، لعل النور داخلهم لم يخمد نهائيًا. ربما ما زال هناك خيط أمل على الرغم من كلّ شيء. أخيرًا يطلّ القمر ويبحر بروية نحو الفتحة المظلمة في السماء، أشرعته تشعّ بضوء أبيض، ومع أنه نصف مكتمل من الجهة اليسرى، ستبقى الليلة زاهية لفترة من الوقت. يعود ضوء القمر إلى عائلة مختلفة عن عائلة ضوء الشمس، فهو يجعل الظلال أحلك والعالم أكثر غموضًا. يرفع الفتى نظره عاليًا، يتأمّل القمر. المدّة التي يستغرقها القمر ليقوم بدورة كاملة هي المدّة نفسها التي يستغرقها ليدور حول الأرض، ولذلك نرى دائمًا الجانب نفسه منه، بُعده عنا يزيد عن ثلاثمئة ألف كيلومتر، والتجديف إليه بمركب "سيكسرين" يستغرق أمدًا طويلاً، حتى إينار سيجد المسافة بعيدة بما فيه الكفاية.

كانت أمّ الفتى قد كتبت له عن القمر. عن المسافة التي تفصلنا عنه، عن جانبه الخفي الغامض، إلا أنها لم تشر يومًا إلى مركب "السيكسرين" في ذلك السياق، ولا إلى إينار الذي لم تعلم حتى بأنه موجود، ولا إلى لحيته، ولا إلى الغضب الذي يغلي داخله مثل محرّك أبدي. لكن آينار ليس غاضبًا الآن. فعدوى الليلة المقمرة الساكنة تتسرّب إلى الرجال الستة والمرأة التي تراقبهم. لا، أندريا تكفّ عن مراقبتهم. تعود إلى الكوخ، تهرع لتلاقي باردور عند مدخل الباب الضيّق. أأنا مجنونة، تفكّر أندريا، هناك عشرون سنة بيننا! لكن لماذا يحرم المرء نفسه من التفرّس في العينين البُنيّتين في ليلة من ليالي آذار، من تخيّل الحركات الرقيقة والمرنة تحت ثيابه، أبيض البشرة، وأسنان متراصفة بين شفتيه، خالية من بقع التبغ الداكنة لأنّ باردور لا يمضغ التبغ، وهذا عجيب، عجيب أمر بعض هؤلاء الشبان، عجيب أن يحرموا أنفسهم من مثل تلك المتع التي ترافق التبغ. يلتقيان عند المدخل، رأسه عامر بالشعر وخسارة الفردوس. أوه، يا لجمالك يا صغيري الوديع، تهتف وتمرّر كفّيها على لحيته، ثم تهبط بهما إلى عنقه العاري، تمسّد بقوة وإحكام أكثر مما كان في نيتها، وتشعر بدفء جسده يندفع ويتدفق من عنقه. من أجلك فقط يا أندريا يقول ويبتسم. أأنت نائم أيها الحثالة؟! يصيح بيتور في جوف الليل. يُصعقان، تنفض أندريا يديها وتنحّيهما بعيدًا، تلتقي عيناها بعيني الفتى وتراه مربكًا تحت القمر.

*

يمكن أن يجعلنا القمر مسلوبي الإرادة.
يجعلنا نتذكّر، فتنفتق الجراح وننزف.

كتبت له أمّه عن القمر والسماوات، عن أعمار النجوم والمسافة إلى المشتري. عرفت أموراً كثيرة، على الرغم من أنها تربّت على يد قوم ليسوا من عائلتها، عانت الأمرّين هناك، وُبِّخت بسبب تعطّشها إلى المعرفة، ومع ذلك تعلّمت القراءة بمتابعة دروس الأولاد في المزرعة، ثم قرأت كلّ ما استطاعت أن تضع يدها عليه، وتلك كانت صفقة عظيمة على الرغم من الفاقة ولا مبالاة أهل الدار. القراءة والرغبة في المعرفة هما ما جذب والديه إلى بعضهما، وعلى الرغم من افتقارهما معًا إلى الوسائل، نجحا في شقّ طريقهما بالعمل خادمين محليّين حتى يشتريا مزرعتهما الخاصة، وقد يكون من التكلّف بمكان أن نشير إلى الكوخ المتواضع بمثل ذلك الوصف الضخم، إنما في جميع الأحوال أصبحت مزرعة المستأجرين لهما؛ بقرة واحدة وخمسون خروفًا، وهذا ليس بالشيء الذي يُذكر بالنسبة إلى عائلة. حقل بيتي صغير معشوشب كثيراً إلى درجة أن قضمه أسرع من جزّه. كانت المراعي ندية، والبحر أبقاهم أحياء. البحر يبقينا كلنّا أحياءً نحن الذين نقيم هنا عند أطراف العالم الخارجية. درج والده على الذهاب إلى الصيد من محطات صيد السمك، أربعة إلى خمسة أشهر في السنة. ربّاه، كم أفتقده! كتبت في إحدى رسائلها إلى الفتى، طبعًا كنتم معي أنتم الثلاثة ومع ذلك لم أنفك أفتقد بيورغفين كلّ يوم، خصوصًا في المساء بعد أن تخلدوا إلى النوم. كانت الشهور التي يغيب فيها عن البيت مكتظة بالعمل، الكفاح من أجل البقاء ومن أجل دحر الفاقة، أما وقت الفراغ فللقراءة. كنا بائسين. دأبنا على التفكير في الكتب باستمرار، في تحصيل العلم، أصبحنا مشبوبي العاطفة، مهووسين. إنْ سمعنا عن كتاب جديد مثير تخيّلنا ما يمكن أن يكون عليه، تحدّثنا عن محتوياته المحتملة في الأمسيات بعد أن تناموا. ولاحقًا بعد أن يصبح في قبضتنا أو نعثر على نسخة منه نقرأه تباعًا أو معًا. لكن ما يسعنا أن نقول، كان والده في البحر على متن "سيكسرين"، المراكب الشائعة هنا التي لا يزيد طولها عن ثمانية أمتار إلا بقليل.

ولم يكن على أيّ حال وحده الذي غرق في تلك الليلة، ليلة من ليالي آذار، يرنو الفتى ثانية إلى القمر ويحسب في ذهنه، قبل عشر سنوات وسبعة عشر يومًا. لا، لا، حينذاك فُقد مركبان وطاقمان، اثنتا عشرة روحًا، أربع وعشرون يدًا تتحسّس ما حولها في ديجور الليل، اندلعت عاصفة جنوبية شرقية وأغرقهم البحر عن بكرة أبيهم. أسبوع بحاله مرّ قبل أن تبلغ مسامعهم الأخبار السوداء. أهي قسوة أم عزاء أنه عاش بعد موته سبعة أيام في أذهان أولئك الأكثر أهمية بالنسبة إليه. ميت ولكن ما زال حيّا. كان جارًا لهم من أتى وأطفأ نور العالم. يومها جلس الفتى على الأرض وساقاه ممدودتان أمامه، وأخته بينهما، أما أمه فتسمّرت وحدقت إلى الأمام مباشرة، متدلّية الذراعين، كما لو أنها ميتة، جحيم أن يمتلك المرء ذراعين ولا يكون هناك من تعانقانه. اختلج الهواء كما لو أنّ شيئًا عظيمًا قد تمزّق، ثم سُمع صوت تهشّم عندما انحدرت الشمس وحطّت على الأرض. يكون الناس أحياءً، وتكون لهم لحظاتهم، قُبلهم وضحكهم، عناقهم وكلمات التحبّب، بهجتهم وأحزانهم، لكن أي حياة ما هي إلا كون لن يلبث أن ينهار لاحقًا ولا يخلّف شيئًا وراءه سوى أغراض معدودة يضفي عليها موت أصحابها طاقّة ساحرة، فتصبح مهمة، ومقدّسة أحيانًا، كما لو أنّ كِسر الحياة التي تركتنا انتقلت إلى قدح القهوة، إلى المنشار وفرشاة الشعر والوشاح. بيد أنّ كلّ شيء يخبو في نهاية المطاف. تفنى الذكريات بعد فترة، ويموت كلّ شيء. وما كان نورًا وحياة مرةً يصبح ظلمة ونسيانًا. يموت والد الفتى، يبتلعه البحر وأبدًا لا يعيده. أين عيناكَ اللتان جعلتاني جميلة، واليدان اللتان دغدغتا الأطفال، والصوت الذي طرد الظلام؟ يغرق وتتفرّق العائلة. يذهب الفتى إلى مكان ويذهب شقيقه إلى مكان آخر، خمس ساعات من المشي الحثيث تفصل بينهما. وانتهت أمهما وأخت أكبر من السنة بقليل إلى وادٍ آخر مختلف. في يوم ما يجمعهم هم الأربعة سرير واحد، مزدحم ولكن ممتع، بل تقريبًا هو الشيء الوحيد الممتع في

وسط الحسرة، ثم يفصل بينهم جبل يبلغ ارتفاعه حوالي سبعمئة متر، جبل شاهق وقاحل، ما زال الفتى يكرهه بلا حدود. بيد أن كره الجبال ينمّ عن ضعف بالغ، فهي أضخم منّا، راسخة القواعد ولا تتحرّك على امتداد عشرات آلاف السنين، بينما نأتي ونرحل على نحو أسرع مما تستطيع العين التركيز عليه. الجبال على أي حال، نادرًا ما تحول دون وصول الرسائل، وأمه كتبت، وصفت أباه حتى لا يغيّبه النسيان، حتى يعيش في ذهن الابن، ليكون ضوءًا يستشعر دفئه، ضوءًا يفتقده، كتبت لتنقذ زوجها من براثن النسيان. وصفت له كيف كانا يتبادلان الحديث، كيف كانا يقرآن معًا، كيف كان مع الأطفال، ما أسماء التحبّب التي أطلقها عليهم، ماذا غنّى لهم، كيف بدا عندما وقف وحده على قمة المنحدر عند حقل البيت وأمعن النظر متأمّلاً القبّة الزرقاء... أختك تكبر، فخورة بشقيقيها اللذين يكبرانها. أعرف أنك لن تنساها. أأنت وشقيقك قادران على تبادل الزيارات؟ يجب ألا تتهاونا في هذا الأمر. لا تسمحا للعالم أن يفرّق بينكما! نحن بالتأكيد قادمتان للزيارة في الصيف القادم، حصلت على الإذن وبدأت أحضّر الأحذية لرحلتنا. أختك تسأل كلّ صباح تقريبًا أنحن راحلتان اليوم؟ متى نرحل؟

متى نرحل؟

من المرجح أنّ تشكُّل القمر جاء متزامنًا مع تشكُّل الأرض، ولكن يحتمل أن تكون الأرض قد أسرته في مجال جاذبيتها بحيث يحطّ الآن فوق الفتى مجبولاً من صخور، من حجارة صمّاء.

تلك الـ متى لم تأت أبدًا. بل جاءت الأنفلونزا كالعادة. أصيبتا بالكحة السوداء وماتتا. يفصل بينهما يومان، الأخت أولاً. أين أنت يا ربي؟ كان سؤال الحياة الأخير، تدبّرت أمه أمر خربشة بضع كلمات، عِش! كتبت بعد ذلك السؤال: عِش! أملك المحبة. الرسالة الأخيرة، الجملة الأخيرة، الكلمة الأخيرة.

يرفع الفتى برميل مصل اللبن إلى المركب، ما مقدار ما يمكن أن يطيقه قلب الإنسان؟

اكتمل تحميل المركب.

كان إينار وجفيندور وآربي قد وضعوا أحجارًا في المركب لتأمين استقراره في البحر على نحو أفضل، رسموا علامة الصليب على كلّ حجر وضعوه. يعادل قلب المرء البالغ حجم قبضة مكوّرة. القلب عضلة مجوّفة تضخّ الدم في أوعية الجسم الدموية والشرايين والعروق والشعيرات، وذلك يقارب ما طوله أربعمئة ألف كيلومتر مربع، طول يصل إلى القمر ويمتدّ قليلاً في الفضاء المظلم بعده. لا ريب أنّ المكان موحش هناك. تقف أندريا بين المركب والكوخ، تراقبهم، تمتدّ عروقها لتلامس القمر، تقترب الساعة من الثالثة، بيد أنهم لن يدفعوا المراكب إلى البحر في أيّ وقت أبكر من المعتاد، هناك قوانين، وعلينا أن نتبع القوانين، خصوصًا تلك التي تتضمّن مغزى. جفيندور وإينار في المركب، ويحتلان مقعد التجديف الأمامي، لا يجلس هناك إلا الرجال الأشداء والأقوياء، المتمرّسون في التجديف، يجلس الآخرون على الألواح الخشبية وينتظرون سماع دوي البوق. هو ليس على أيّ حال البوق الذي تقول الكتب القديمة والحكايات الخرافية إنه العلامة الدالّة على اليوم الآخر، يوم نُستدعى كلنّا للمثول أمام القاضي الأعظم، لا، هم ببساطة ينتظرون سماع دوي البوق الذي سيرفعه بينديكت إلى فمه أسفل الأكواخ الرئيسة عندما تشير الساعة إلى الثالثة بالضبط. رئتا بينديكت هائلتان وتمكّنانه من النفخ بقوة معلنًا إشارة الانطلاق التي تُسمع في كوخ الأخوين حتى أثناء هبوب رياح معاكسة. أول شتاء نُفّذ فيه قانون منع الإبحار قبل الثالثة صباحًا، نفخ بينديكت بوقه بسرعة وبلا تباطؤ. كان هدفه الوحيد أن يطلق نغمة عظيمة مسموعة وأن يبرهن على قوة رئتيه. ثم ألقى البوق في المركب وانضمّ إلى السباق المحموم ليكون أول من ينطلق. لكن الآن بعد سنتين اقتنى بوقًا قديمًا، اشتراه من ربّان سفينة إنجليزي، وما عاد ينفخ

لمجرّد النفخ، بل ليسلّط الضوء على شفافية النغمة بدلاً من ذلك، وليحاول أن يلون سماء الليلة المظلمة بلحن من الألحان التي سمعها من التاجر سنوري هنا في البلدة، وبنيديكت ما عاد يلقي البوق في المركب ويأخذه معه في الرحلة البحرية بعد أن أشار سنوري إلى أنّ سياط الريح والمطر مضرّة بالآلة وقد تفسد صوتها، بل صار يناوله إلى القيّمة التي تقف منتظرة عند قاربه. يحيط ببنديكت ما يقارب ستون مركبًا وثلاثمئة رجل، والجميع ينتظر إشارة الانطلاق، معظم المراكب "سيكسرين"، في كل منها رجلان، وأربعة يقفون عند الجانبين، وكل عضلة فيهم مشدودة. مع ذلك لا يخطر في بال أحد أن يغادر قبل أن تفلت شفتا بينديكت البوق، فهو واحد من أشهر الربابنة هنا، بطل، أنقذ حياة رجال، ودائماً يتفوّق في صيد السمك، ولا أحد يوازي نصف براعته في شقّ الأمواج إلى اليابسة، يحترمه الجميع، والقيّمة تنتظر بصبر عند صدر الشاطئ بعد تسلّمها البوق، حتى على الرغم من أنّ البحر البارد يغرقها بالماء أحيانًا، وعلى الرغم من أن قدميها موغلتان في الخمسين.

تقف أندريا أسفل الكوخين.

تنتظر سماع الإشارة لترى رجالها يندفعون كما لو أنهم يفرّون من دمار العالم. بعد ذلك تدخل الكوخ، ترتبه وتحاول أن تقرأ قليلاً في كتاب آخر أحضره باردور من عند القبطان الأعمى الذي يعيش مع غيرترود؛ كتاب نيلز يول أعظم بطل دانمركي بحري. لماذا يسمونه بطلاً؟ ماذا اصطاد؟ أصارعَ من أجل حياته في مركب صغير مفتوح بحجم تابوت، في أوج عاصفة شمالية عندما تكون الأرض قد اختفت وكذلك السماء، وعصف الرياح يكاد يفجّر رأس المرء ويقتلعه من بين كتفيه؟

سينفخ البوق الآن، يغمغم آرني بصوت منخفض جدًا إلى درجة أنّ الكلمات تضيع في حنايا لحيته التي تغطي القسم الأسفل من وجهه، تقبض يداه على القارب،

وعضلاته المفتولة مشدودة. يعصر إينار مجدافه، يحدّق جفيندور في الفضاء مبتهجًا، إذ يكفي أن يكون المرء حيًا. ينظر الفتى إلى إينار من على شفير المركب، إذا استطاع رجل في هذه اللحظة أن يتحوّل إلى وترٍ مشدود فهو إينار. يبدو جفيندور مثل عملاق خرافي إلى جانب الوتر، عملاق لطيف وقنوع ومطيع. هما يعملان معًا في المزرعة التي يملكها بيتور، وقد فعلا هذا على امتداد عشر سنوات. وأحيانًا يراود بيتور شعور بأنّ احترام العملاق للوتر يفوق احترامه له. أغلب ظني أنّ ذاك اللعين سينفخ الآن بالضبط، يغمغم آرني بصوت أعلى قليلاً هذه المرة. يقف بنيديكت منفرج الساقين في وسط قاربه على بعد كيلومترين تقريبًا من كوخي الأخوين، يرفع بوقه إلى فمه، يملأ رئتيه بهواء الليل المظلم وينفخ.

يلعلع النفير فوق ما يقارب ثلاثمئة صياد سمك يكسوهم الجلد وصدورهم ضائقة من الانتظار أسفل الأكواخ الرئيسة، ويحلّق صداه بعيدًا في فضاء الليل الساكن. تشرئبّ أندريا بعنقها وتدير رأسها لتسمع جيدًا. يتفاقم نفاد صبر آرني وبيتور وإينار، فيلعنون بينديكت همسًا، بينما يصيخ باردور والفتى السمع، محاولَيْن التقاط اللحن، جوهره، شيء يستفيدان منه في رحلتهما الطويلة وفي الحياة التي يأملان أن تكون مديدة. حتى العملاق جفيندور يغلق عينيه خفية للحظة، غالبًا ما تذكّره الموسيقى بشيء جيد وجميل، وأكثر ما يشعر بهذا وهو وحده. لكنه على أيّ حال شبه خائف من أن يلاحظه إينار، لأنه بالتأكيد لا يُسرّ من الرجال الذين يغمضون أعينهم وهم مستيقظون، وليس جفيندور بذاك الشخص الذي يكدّر إينار عمدًا، الحياة كما هي قاسية بما فيه الكفاية.

تمام! يصيح آرني عندما يخبو دوي البوق، ويدفعون بكلّ ما أوتوا من قوة كأنهم رجل واحد. ينزلق المركب من على الشاطئ. ينطلق الفتى، يتلقّف البكرات التي تظهر من تحت العارضة، يجري بها إلى مقدّمة المركب ويضعها أمام الجؤجؤ. هو

سريع، نحن نشهد له بذلك، لديه القدرة على الجري بسرعة فائقة لمسافة بعيدة جدًا بانطلاقة واحدة، وهذا يستدعي التساؤل ما إذا كانت مساحة البلاد تتسع له إذا أراد أن يجري في مكان ما بكامل طاقته. ينزلق الجؤجؤ إلى البحر. آربي وبيتور هما آخر من يصعد إلى المركب، يقفزان إليه من البحر، وعندئذ يبدأ التجديف. يتشارك باردور والفتى مقعد تجديف في الوسط، تتدفّق الطاقة في عروقهم، يطبقون أسنانهم، ستة مجاديف، البحر هادئ، لا مقاومة منه، لا ريح ولا أمواج، ينطلق المركب إلى الأمام، ثم بعد دقيقة من التجديف، بعد أن ينتزعوا أنفسهم من اليابسة تمامًا، بعد أن يصبحوا في البحر يسحبون المجاديف إلى المركب، عندئذٍ، يخلع بيتور قبعة الصيد، فتظهر تحتها طاقيته الصوفية، وتلك أيضًا يخلعها، ثم يتلو صلاة البحار. يحني الخمسة الآخرون رؤوسهم وقبعاتهم بأيديهم. يعلو المركب ويهبط، حاله كحال حشد المراكب الأخرى أسفل الأكواخ الرئيسة، حيث أسرع ثلاثمئة رجل تقريبًا يصيحون ويزعقون مع ما يقارب ستين مركبًا إلى البحر بعد ما يقلّ عن دقيقة من الدوي العظيم الذي صدر عن بوق بنيديكت. والآن، عاد الهدوء ليسود. ولم يبق هناك إلا المراكب تعلو وتهبط بسكون بينما يتلو الربابنة الصلاة. ولا تلبث الأصوات أن ترتقي إلى السماء حاملة رسالتها، التماسها، وهي رسالة بسيطة: ساعدنا يارب!

البحر بارد ومظلم أحيانًا. مخلوق عملاق لا يرتاح أبدا، وهنا لا أحد يحسن السباحة ما عدا يوناس الذي يعمل صيفًا في محطة صيد حيتان نرويجية، وقد علّمه النرويجيون السباحة، ويلقّب إما بالقدّ أو ذئب البحر، واللقب الأخير يلائمه أكثر إذا أخذنا مظهره بعين الاعتبار. نشأ معظمنا هنا قرب البحر ونادرًا ما عشنا يومًا من غير أن نسمع هديره، ولطالما سعى الرجال إلى اكتساب المهارة في الملاحة وهم بعد في الثالثة عشر من العمر. هذا ما جرى عليه الحال على امتداد ألف سنة، ومع ذلك لا أحد يحسن السباحة إلا يوناس لأنه يتملّق النرويجيين. نحن مع ذلك

نعرف بضعة أشياء أخرى، نعرف كيف نصلّي، نعرف كيف نرسم علامة الصليب، نرسمها على أنفسنا حالما نستيقظ، عندما نرتدي معاطفنا المقاومة للماء، نرسمها على أدوات صيد السمك والطعوم، نرسمها على أي عمل نقوم به، على مقاعد التجديف التي نجلس عليها، نحن نفوّض أمرنا إليك يا رب، تغمّدنا برحمتك الغامرة، أخمد الرياح، هدّئ الأمواج التي يمكن أن تصبح مرعبة جدًا. نضع كلّ ثقتنا فيك يا رب، يا من أنت بداية كلّ شيء ونهايته، لأنّ أولئك الذين ينتهون في البحر يغوصون كالأحجار ويغرقون، حتى في أوقات الهدوء التام والمسافة التي تفصلهم عن اليابسة جدّ قصيرة بحيث يستطيع الناس الذين يقفون بأقدام ثابتة على الأرض المباركة أن يروا سحنات وجوههم، السحنات الأخيرة قبل أن يودي البحر بحياتهم، أو أجسادهم، تلك الأحمال الثقيلة. نضع ثقتنا فيك يا رب، يا من خلقتنا في أحسن تقويم، خلقت الطيور بأجنحة حتى تحلّق في أجواء السماء وتذكّرنا بحريتنا، خلقت السمك بزعانف وذيول حتى يسبح في الأعماق التي نهابها. يمكن طبعًا أن نتعلّم السباحة مثل يوناس، لكن يا رب، ألن نكون عندئذ نظهر قلّة إيماننا بك، كما لو أننا نعتبر أنفسنا قادرين على تصحيح عيب في الخلق؟ إلى جانب أنّ البحر شديد البرودة ولا أحد يملك القدرة على السباحة فيه مدة طويلة، لا، نحن لا نثق إلا بك يا رب ونثق بالسيد المسيح الذي لا يحسن السباحة أكثر منا، ولم يكن بحاجة إلى ذلك، فقد مشى على الماء بمنتهى البساطة. تخيّلوا لو أننا نملك الإيمان الصادق حقًا، ويمكننا بالتالي أن نمشي على البحر، نمشي هكذا ببساطة إلى مناطق الصيد، نسحب السمك ثم نعود إلى ديارنا، وربما نكتفي بصياديْ سمك فقط، يحملان معًا عربة يد. آمين، يقول بيتور، فيقذف الجميع قبعاتهم المقاومة للماء على رؤوسهم، محتفظين بطاقياتهم الصوفية إلى وقت لاحق، فالليلة معتدلة، ليلة ساكنة، ليلة مقدّسة، والقبّعات الواقية من الماء تكفي، طرفها الخلفي

يصل إلى الكتفين. يبدأون الآن في التجديف بمعية اسم الله، يبذلون جهدًا مضنيًا والشيطان يحفّزهم! لا، ليس الشيطان، زلّت ألسنتنا بذكر ذلك الاسم الأسود عن غير قصد، لم نعن شيئًا بهذه الكلمة، سنرسم علامة الصليب على ألسنتنا من أجل السلامة. تكاد المجاديف تنحني تحت وطأة المجهود المبذول، اثنتا عشرة ذراعًا مدرّبة بامتياز، عضلات مشدودة، قوة هائلة متّحدة، لكن هناك ينفتح الزقاق البحري على البحر القطبي ونحن لا شيء أمامه، لا نملك سوى الإيمان برحمة الخالق، ومعه ربما قدر ضئيل من البراعة والشجاعة والتوق إلى الحياة. يندفع المركب قدمًا. تومض عينا إينار، تحوّل غضبه إلى طاقة خالصة تنبض في جسمه كلّه، في كلّ خلية من خلاياه، وتتدفّق خارجة إلى مجدافه، وعلى جفيندور أن يجدّف بعزم ليتفوّق عليه. لفترة طويلة لا أحد يفكّر في شيء، ولا ينظر أيا منهم إلى شيء، يجدّفون فقط بجدّ لا متناهٍ، وجودهم بأكمله يتركّز على التجديف، تزداد اليابسة ابتعادًا، ويزداد توغلهم في البحر.

ينحسر بهم الموج نحو المدى.

ما زالت أندريا تقف حيث هي تراقبهم بينما هم يتضاءلون وقد اختفت سمات وجوههم. تراقب إلى أن يصبحوا جسمًا واحدًا يعيد إلى البحرِ المركبَ، جسمًا واحدًا يوغل في الليل، يتجه نحو السمك الذي يسبح في الأعماق مستمتعًا بكينونته. تراقبهم أندريا، تسأل الله أن يحميهم، ألا يتخلّى عنهم. تتلكأ في العودة إلى الكوخ حتى ترى حشد المراكب من الأكواخ الأمامية تنعطف عند المنحدر. ممتع أن تقف وحدها في الليل، عند أعلى الشاطئ، وترى نحو ستين مركبًا تنبثق وسط السكون، ترى هؤلاء الرجال كلهم يستخدمون جلّ طاقتهم ليكونوا أول من يصل إلى مناطق تكاثر السمك، ويحصلوا على فرصة اختيار البقعة الأفضل، تراهم يبذلون أقصى ما

لديهم من طاقة، طاقة هي لا شيء في الحقيقة بالمقارنة مع البحر مع غضب الريح مع نقمة السماء، ولا نملك إزاءها إلا ثقتنا التي نوليك إياها يا رب، ونوليها للسيد المسيح. ترسم أندريا علامة الصليب، تلتفت وتتنبّه إلى وجود نسيبها غودومندر. فالأخوان حتى وإنْ امتنعا عن التواصل ما زال واحدهما يهتمّ بشؤون الآخر. إذًا هي لم تكن وحدها، وما شعرت به ليس إلا خدعة ذهنية. هكذا تُحرّف الحقيقة، لأنّ أندريا كانت وحدها تمامًا في أفكارها ومشاعرها، ووجودها استند بأكمله على هذين، بينما على بعد عدة أمتار أعلى منها كان غودومندر يقف ويراقب المشهد نفسه الذي تراقبه. يندلع غضبها بسرعة، ثم يتبخّر بالسرعة نفسها، ما الداعي لأن تغضب، تفكّر أندريا، متفاجئة تمامًا من نفسها. تبدأ في الاتجاه نحو الكوخ، فهناك مهام مختلفة تنتظرها إلى جانب كتاب البطل البحري الدانمركي، إذا لم يكن مجرّد ثرثار آخر لعين، أو سياسي آخر، أيعرف المرء يا ترى أن قلّة مستثناة من الناس تستطيع أن تحسن استعمال السلطة من غير أن تغمرها أمطار القذارة؟ تتلاعب أندريا بغودومندر باقترابها منه أكثر مما يجدر بها أن تفعل، تنظر إليه مباشرة، تحيّيه، تقول شيئًا عن حالة الطقس. غودومندر رجل جدّي وصارم، والوجود بالنسبة إليه ليس دعابة، وهو محقّ في هذه النقطة، وعلاوة على ذلك لم يكن الوجود بالنسبة إليه خاليًا من أي طرافة بقدر ما كان في تلك اللحظة. وأندريا تدرك ذلك جيدًا، ولهذا السبب بالتحديد كان من الممتع لها أن تمعن في الاقتراب منه، أن تبدي ابتهاجًا لا داعي له، كما لو أنّ الحياة كانت عامرة تقريبًا بمسرّات جامحة في هذه الليلة. في المقابل يحدجها غودومندر بنظرة صارمة، شبه مروعة، فتكبح أندريا جماح ابتسامتها. إنّ العالم يتضمّن العديد من الألغاز. كيف يمكن أن يكون لدى رجل صارم وجدّي مثله ابنة بشوشة ومتألّقة؟ هناك الكثير مما أعجز عن استيعابه، تفكّر أندريا، وتقرّر أنه حالما يغادر غودومندر ورجاله، بعد ساعتين على الأرجح، وتكون

قد أنهت أعمالها المنزلية، ستتسكع إلى كوخه وتعطي البنت محاضرة بريت عن تحرير النساء، المحاضرة التي أعطاها لها باردور والفتى في وقت سابق من ذلك الشتاء؛ الكُتيّب سيثير سخط غودومندر، ولن يشفع في التخفيف من انزعاجه أنه مرفق بكتيّب ملزمة النجار لـ يون بيرنهاريوسن؛ نظراً إلى أنه يجد متعة كبيرة في النجارة. تدندن أندريا وهي تهمّ بدخول الكوخ، تشرع في تصفير جزء من اللحن الذي نفخه بوق بينيديكت، إلا أنها تتذكّر عند المدخل الحرارة والرائحة اللتين تدفقتا من عنق باردور، تغلق الباب على الليل وتحوب أفكارها الآفاق.

# ٣

لا يراقبها غودومندر ولكن يسمع الباب يُغلق. يديم النظر إلى البحر، البحر المظلم، ويعبّ الهواء، مشكّكًا قليلاً بتوقّعات حالة الطقس، ألا يتهيّأ له كما لو أنّ هناك نفحة ريح من الشمال الشرقي خلف الجبل، الاتجاه الذي تأتي منه ريح عاتية بل حتى مهلكة؟ يقف بلا حراك بينما يزداد نأي المراكب التي بدأ جوف الليل الحالك يغيّبها، التي بدأت تنتشر في البحر السحيق المتشعّب بين الشواطئ، وبين جبال شاهقة شديدة الانحدار وموغلة في القدم. لدى غودومندر لحية هائلة تغطي الجزء الأسفل من وجهه تغطية كاملة، لا نرى أبدًا ذقون هؤلاء الرجال، إذا أخطأ أحدهم وأقدم على حلاقة ذقنه، يبدو على الأغلب كأنه تعرّض لحادثة مروعة، كأن جزءًا من شخصيته قد بُتر، كأن ما تبقى منه ليس إلا نصف رجل. يقف غودومندر بلا حراك وقتًا طويلاً. تمرّ دقائق عديدة. وقوف المرء وحده في الليل شيء صحي، فهو أو هي يتّحد في هذه الحالة مع السكينة ويكتشف نوعًا من السلام، إنما هذا أمر يمكن أن يتغيّر بلا سابق إنذار إلى عزلة موجعة. ما زالت الدنيا مظلمة، ومع ذلك هناك وميض خفيف من جهة الشرق، خفيف جدًا بحيث يبدو أقرب إلى الوهم.

يبدّد هذا الوميض سواء كان مُتخيّلاً أو غير مُتخيّل شكوك غودومندر، فهو قادر على استقراء الغيوم فوق الشاطئ الأبيض في الجانب المقابل من الزقاق البحري، على الرغم من ضبابية معالمها في الغلس. وما لم تستطع أن تخبره به أذناه وأنفه أن الريح الشمالية الشرقية في طريقها إلى الهبوب فعلاً، وهي على الأرجح ريح عاصفة، إنما غالبًا لن تصل إليهم قبل منتصف النهار. وإذا أسرعوا وبادروا إلى الانطلاق في غضون ساعة، يمكن أن يعودوا قبل أن يُتاح للبحر أن يؤذيهم، قبل أن تصبح الأمواج مهلكة. تعتريه قشعريرة، يستدير بخفّة ويمضي متحرّكًا بخطوات واسعة إلى كوخه. وفي وسط السكينة التي عادت لتعانق الليل بعد صخب انطلاق المراكب تبدو حركته السريعة والمباغتة كما لو أنها تعكّر صفو كلّ شيء بما في ذلك الهواء المحيط بالأكواخ فتجعله يختلج قليلاً، بل حتى أندريا المنهمكة في تنظيف أرضية الغرفة العلوية ترفع رأسها. يدفع غودومندر باب الكوخ ويصيح، انهضوا واستعدّوا! سنجدّف اليوم! فينهض رجاله فورًا على صوته الجهوري والقوي. يَثبون من الأسرّة حتى قبل أن تطرف أجفانهم، بعضهم ما زالوا شبه نيام عندما تلامس أقدامهم الأرض. تبقى غودرون كامنة في السرير بضع لحظات أخرى، تعدّ إلى المئة، الحياة تحت الغطاء مريحة أكثر منها على الأرضية بين رجال ينخرون في ثنايا كنزاتهم الصوفية الخشنة، يطردون مع تثاؤبهم النوم والأحلام، تنتفض فيهم لهفة الانطلاق الفوري إلى البحر، لملاقاة الحرية والسمك.

رجال غودومندر سريعون في الخروج. يقلبون المركب الذي يزيد طوله مترًا كاملاً تقريبًا عن مركب بيتور، يحمّلونه بالضروريات، ولا ينسون رسم علامة الصليب على كلّ ما يلمسونه. جدّفوا معًا منذ عشرين سنة، اصطادوا سمك القرش وهم بعد في ريعان الشباب، خلال السنوات التي لم تحكمها قوانين الصيد البحري، وهذا أتاح لهم الذهاب إلى الصيد متى أرادوا، غالبًا في أحلك أيام منتصف الشتاء، عندما

يكون الظلام دامسًا إلى درجة أنّ المرء يستطيع أن يسحب مَدْية ويحفر عليه بها حروف اسمه الأولى، فيحمل الليل اسم المرء إلى الصباح. في بعض الليالي يقبعون لساعات متواصلة في مناطق سمك القرش، في أحضان الصقيع اللاسع، بعيدًا في قلب البحر، وحينها يبدو لهم كما لو أنّ الليلة لن تنتهي أبدًا وأنّ جهة الشرق مثقلة بديجور الظلام. لا يعرف سمك القرش الشبع، ولا يتوانى أبدًا عن ابتلاع أيّ شيء. مرةً، عثر رجال غودومندر على كلب في بطن سمكة قرش، التهمته في اليوم السابق في زقاق بحري يبعد خمسين كيلومترًا عنهم. كان الكلب قد سبح وراء زورق سيده، سعيدًا متدلي اللسان، ثم ندّ عنه عواء فجائي واختفى، هذا هو مدى ما يصل به الوضع من خطورة لمن يحسن السباحة.

تنظّف أندريا أرضية الغرفة العلوية، تفكّر في الرجال الستة الذين خرجوا بمركبهم إلى البحر، تفكّر في اللحظة التي قضتها مع بيتور في بيت التمليح في اليوم السابق، ثم فجأة ينتابها حزن شديد فتنهض وتعبّ رشفة قهوة، تجلس على سرير الفتى، تتنهّد بهدوء وتمسّد بحركة لا إرادية غلاف الكتاب الذي كان باردور يطالعه. تقرأ العنوان بصوت عالٍ، تفتح الكتاب وترى رسالة حشرها باردور بين طياته، ولعله أراد أن يعلّم بها الصفحات. ترى أندريا أنها رسالة لسيغريد، ثلاث صفحات مكتوبة بخط اليد، ثلاث صفحات مدجّجة بالكلمات. تقرأ أندريا الأسطر الأولى المشتعلة بنار الحب، ثم تشعر بشيء من الارتباك، أو ربما تشعر أنّ عليها التوقّف عن القراءة. تغلق الكتاب، تنظر جانبًا وتقع عيناها على معطف باردور المقاوم للماء، فتنتفض مقشعرّة كما لو أنّ شيئًا باردًا يلمسها.

# ٤

مضى عليهم وقت طويل وهم يجدّفون والسماء فوقهم تسافر نحو الضياء. جدّفوا خارج الليل إلى الصباح الهشّ. كانوا قد خلعوا معاطفهم الواقية. وشيئًا فشيئًا غابت عنهم المراكب الأخرى المنتشرة على صفحة البحر المتموّج. يمضون قدمًا ويوغلون في التجديف أبعد من الآخرين متجهين إلى بقعة عميقة غنية بالسمك، بقعة يعرف بيتور موقعها لكنه لم يقصدها منذ عدّة سنوات. وهم يثقون به. يثقون بأنه يعرف أكثر مما يعرفون مجتمعين ما دام الأمر يتعلق بسمك القدّ. إنه يفكّر مثل سمك القدّ، قال باردور مرةً، وكان من الصعب التكهّن ما إذا انطوى قوله ذاك على المدح أو السخرية، ففهم باردور ليس سهلاً. بيد أن بيتور قرّر اعتبار ذلك مديحًا. يُغيرون على المجاديف، ويلحفون في زيادة المسافة بينهم وبين الأرض. النأي عن اليابسة يمكن أن يحزّ في النفس، كما لو أنّ المرء يجدّف نحو العزلة. يتأمّل الفتى الجبال وهي تتضاءل، تبدو كأنها تغرق في البحر. إنّ الجبال تهدّدنا ونحن على الأرض، تأسر العواصف في ما بينها، تقتل الناس بقذف الصخور عليهم، تبيد المدن بالانهيارات الجليدية والانهيارات الطينية، لكنها أيضًا وسيلة حماية، فهي ترعانا وتحضن المراكب التي تجدّف نحو الخلجان، إنما لا شيء يحمي صيادي السمك الذين يجدّفون بعيدًا

عن اليابسة سوى الصلاة ومهارتهم. بدأ شعورهم بالإرهاق يثقل على الرغم من أنّ إينار ما زال يجد متعة في المهمة، ما زالت عيناه تلمعان. تخرج أنفاس باردور ضحلة وهو إلى جانب الفتى. نحن لم نولد لنكون بحّارة، قال للفتى في اليوم السابق وهما في المخبز الألماني يتناولان القهوة والرقائق المحلاة.

القهوة في المخبز أنقى على نحو ما، فهي خالية من الرواسب. يمكن أن نعتاد هذا الترف، قال الفتى لباردور. وفيما هما هناك انبرى صاحبا المخبز؛ الرجل وزوجته يتجادلان بالألمانية في المؤخرة. كان اختلافهما في الرأي سريع الانفجار، وخلال فترة قصيرة تعالى صياحهما، ثم فجأة عمّ السكون والهدوء الصرف كلّ شيء، بعدئذٍ سُمعت ضحكات مكتومة، تلتها فرقعة قبلات محمومة. تابعت عاملتا المخبز عملهما وتظاهرتا بعدم سماع شيء. غير أنّ باردور ألقى نظرة سريعة على الفتى مصحوبة بابتسامة، نعم، رائع أن يكون المرء حيًّا. هناك جلسا في المخبز يحتفلان بما يحمله لهما المستقبل بعد أن ضمن باردور لنفسه وللفتى عملاً صيفيًا في المتجر الذي يديره ليو، فوالده على علاقة وثيقة بالوكيل التجاري الذي يدعى يون، وهذا الأخير لديه مشكلة في الوقوف ثابتًا، إذ لا ينفك يجرجر قدميه وهو يتكلم، ويجرجرهما وهو يستمع، ويلعق شفتيه برأس لسانه باستمرار. يون ليس شيئًا بدون زوجته توفِّه، أوضح باردور، هي دانمركية، بعض الناس يسمّونها الفرقاطة، ويمكنك أن تفهم سبب هذه التسمية إذا رأيتها تأتي مُبحرة في الشارع. العالم يصبح أسهل بكثير إذا كانت إلى جانبك، غير أنها لا تطيق الكسالى: ما عليك إلا الانكباب على عملك ويجري كلّ شيء على ما يرام. وهو أيضًا عمل كالحلم خال من أي مشقة، ولن تُستنزف قواك في نهاية اليوم، ولن تكون هناك بقعة واحدة تلطخ ثيابك، بل حتى لن تحتاج إلى غسل يديك!

البحر مترامي الأطراف وسحيق الأغوار، ولم يسبق للفتى أن جذّف فيه بعيدًا جدًا.

هذه في الواقع مسافة أبعد مما هو ضروري.

لا شيء سوى لوح خشب هزيل بينهم وبين الغرق، وهو لن يعتاد هذا أبدًا. يشتدّ هبوب الريح عليهم حيث هم، يعلو ارتفاع الموج، ويزداد اضطراب البحر. لكنهم يعرفون أنّ هذه ليست عاصفة فيواصلون التجديف. يضغطون بقوة إلى أن تتقلّص عضلاتهم، انتظِرنا يا سمك القدّ، نحن قادمون. يحملق الفتى في ظهر بيتور، إنه لا يشبه في شيء ابنة أخيه غودرون، أأنت مجنون، هذا مثل المقارنة بين ليلة صيف ومطر ثلجي. أما الأسوأ فهو صعوبة التحدّث معها، بل في الحقيقة هو شيء مستحيل، لأنه غالبًا ما تخونه شجاعته وينعقد لسانه عندما تنظر إليه، ثم إنّ غودومندر لن يتورّع قطعًا عن إصدار أمر لرجاله بتمزيقه إربًا واستخدامه طعمًا إذا حاول القيام بأيّ شيء آخر يتعدّى النظر إليها وإبداء إعجابه. تابعت الأرض غرقها في الظلام والبحر، لكن الضوء سرعان ما يبدأ في الظهور من الشرق. يلمحون عددًا من النجوم، والغيوم فوقهم مختلفة في أشكالها وألوانها؛ داكنة الزرقة وثقيلة، أو رمادية وخفيفة، وحال السماء لا يتوقّف عن التغيّر أبدا مثل القلب. يلهث باردور ويغمغم بشيء ما على فترات متقطعة بسبب الإجهاد: قلنسوة تخيم... لون الغسق. تنبض قلوبهم كلهم بسرعة. القلب عضلة تضخ الدم، مسكن الألم والوحدة والبهجة، العضلة الوحيدة القادرة على حرماننا من النوم في الليل. مسكن عدم اليقين: أترانا نصحو ثانية على الحياة أم لا، أتراها تمطر على التبن، أترى السمك يتلقف الطعم، أتراها تحبني، أتراه يعبر المرج لينطق الكلمات. عدم اليقين بوجود الله، بالغاية من الحياة، ولا يقلّ عن كلّ ذلك عدم اليقين بالغاية من الموت. يجدّفون وتضخّ قلوبهم الدم وعدم اليقين بالسمك والحياة ولكن ليس بالله، لا، لأنهم في هذه الحالة لن يجرؤوا على الخروج إلى البحر في قارب كالمحارة، في تابوت مفتوح، إلى بحر أزرق السطح ولكن حالك الأعماق. الله كُلّي في أذهانهم.

ومن المرجح أن إينار لا يجلّ إلا الله وبيتور في هذا العالم، والسيد المسيح أحيانًا، لكن هذا الإجلال الأخير ليس غير مشروط. الرجل الذي يدير الخدّ الآخر لا يعمّر طويلاً في الجبال هنا. يجّدف آرني بجهد، حتى يكاد يصبح في بعض اللحظات واحدًا مع جهده المبذول، لفترة طويلة لا يفكّر في شيء، ثم تخطر سيسيليا وأطفاله على باله، ثلاثة أطفال أحياء وواحد ميت، يجدّف آرني ويفكّر في البيوت والماشية والأبرشية، يخطط لأن يصبح عضوًا في المجلس البلدي في غضون ثلاث سنوات، على الرجل أن يتّخذ لنفسه هدفًا في الحياة وإلا يفشل ويذوي. هناك طاقة عظيمة في الاثنتي عشرة ذراعًا المتمرّسة، إلا أنّ المركب لا يبدو أنه قد قطع شوطًا كبيرًا على الإطلاق، الأمواج تتدافع حولهم، لا تتدافع بعنف، لكنها في الوقت نفسه ضخمة وتحجب أي مشهد أمامهم. ثمة محيط كامن في تلك الأمواج، والمركب لا يعدو كونه قطعة خشب، يجلس الرجال على قطعة الخشب واضعين ثقتهم بالله، أما باردور والفتى فلم يكونا مطمئنين بالقدر نفسه. هما في ريعان الشباب، وقد قرآ أكثر مما هو ضروري. قلباهما يضخّان عدم يقين أكثر من الآخرين، ليس فقط في ما يتعلّق بالله، لأنّ الفتى غير متيقّن من الحياة أيضًا، من وجوده في الحياة على وجه الخصوص، من هدفه. يفكر في غودرون، وشكوكه لا تتضاءل بسبب ذلك. عينا غودرون لامعتان، لامعتان إلى درجة أنهما تقهران ظلمة الليل، يفكّر ما بين ضربة مجداف وأخرى، ويُسرّ من هذه الجملة، يكرّرها ويحفظها جيدًا ليردّدها أمام باردور في وقت لاحق من اليوم، عندما تستقرّ الأقدام على أرض ثابتة، وحيث تكون المسافة بينهما وبين الآخرين أطول من المسافة التي تفصلهما عن الرجلين التاليين هنا في المركب. ينظر إلى ظهر بيتور، يسمع جفيندور يتنفّس ببطء وثقل خلفه. عينان لامعتان إلى درجة أنهما تقهران ظلمة الليل، يكرّر لنفسه، ويتذكّر هناك في المركب عبارة قرأها باردور في الفردوس المفقود في المساء السابق: لا شيء حلو في نظري بدونك. يغمغم الفتى

مردّدًا هاتين الجملتين، عينان لامعتان إلى درجة أنهما تقهران ظلمة الليل، ولا شيء حلو في نظري بدونك. بيد أنّ التفكير في نحديها سرعان ما يطغى عليه. يحاول عبثًا أن يفكّر بدلاً من ذلك في الليل، في عدم اليقين، لكن رأسه غدا عامرًا بالصور والكلمات وبدأ عضوه ينتصب. هذا في البداية مستحبّ حقًا، ثم لا يلبث أن يصبح محرجًا، لا يلبث أن يجعله يشعر بخجل مميت. لم يعد الآن يملك الجرأة على النظر إلى غودرون، انتهى كلّ شيء، لقد فقدها. ينبغي أن أقفز خارج المركب مثل طلقة عيار ناري، لا شيء حلو في نظري بدونك، يلهث باردور كما لو أنه يعاقبه، يلهث بكلمات مقتبسة من الكتاب الذي أقرضه إياه قبطان البحر الأعمى، عندما عرّجا على مقهى غيرثرود في طريقهما خارج البلدة؛ نذهب الآن لزيارة غيرترود قال باردور بعد أن أنهى قهوته في المخبز. كانت فرقعة القبل قد توقّفت آنذاك، وبدأ الخباز يغني بالألمانية أغنية لجوجة بصوت عالٍ وعذب.

كانت حركة المرور في البلدة ضخمة، وبعض البيوت هناك ترتفع عاليًا فوقهما. الحياة الصاخبة والبيوت والاسم غيرترود جعلت الفتى يشعر بشيء من الضآلة. توقّفا أولاً في متجر تريجفي، ثم مضيا إلى رؤية ماغنوس صانع الأحذية، حيث قيست قدما باردور الذي طلب أن تُصنع له جزمة يصل ارتفاعها إلى الركبتين للربيع والصيف هنا في البلدة. لا تخف من غيرترود، قال باردور لاحقًا وهما يقتربان من المقهى، لن تأكلك أو في أسوأ الأحوال لن تأكل إلا إحدى ذراعيك. ما قاله باردور كان صحيحًا جدًا، فهي لم تأكل الفتى، ولكن ربما لأنها لم تكن هناك في الواقع، أو لم تأت إلى المقهى حيث مكثا حوالي نصف ساعة. كانت تلك دقائق طويلة على الفتى، أقلقته هيلغا، ذراع غيرترود اليمنى، أقلقه شعرها الرمادي، وعيناها الثاقبتان، وتملّكته الرهبة من القبطان البحري وصوته الأجش، من كلماته القاطعة وعينيه المنطفئتين تحت جبهته العريضة المجعّدة التي تحتوي أفكارًا مميّزة، أو هذا ما ينبغي

أن تحتويه، ما يجب أن يكون، لأنه يقتني على الأقل أربعمئة كتاب كما أكّد له باردور. باردور الذي بدا أنه ينتمي إلى المكان هناك كان يضحك، قدّم الفتى بعبارة صديقي، موهبته تتعدّى السمك، وكلمة صديقي كانت مفعمة بالدفء بحيث جعلت الفتى يشعر بالتحسّن. التعليقات الساخرة التي ندت عن صيادي السمك الثلاثة المنكفئين على قناني الجعة لم تثره، هو يفهم لسانهم بعد أن جّدف تقريبًا خلال ثلاثة فصول صيد سمك شتوية. كان هناك أيضًا ينز ساعي البريد البري. رجل ضخم ومخمور، وصل مؤخّرًا من رحلته الشهرية إلى ريكيافيك، رحلة تستغرق ستة إلى ثمانية أيام. كان باردور والفتى قد رأيا صندوق البريد وحقائب الرسائل في مدخل المقهى. طبعًا من المفترض أن يأخذ ينز البريد إلى الدكتور سيغيورد مباشرة، حيث يُفرز ويُسلّم إلى سعاة البريد الأدنى مرتبة ليحملوه إلى المزارع والخلجان في جميع المناطق، إلا أنّ اتّباع قوانين العمل هو أقلّ اهتمامات ينز، ثم إنه يضمر شيئًا من الضغينة لسيغيورد، ولذلك يؤثِر الجلوس في المقهى على أداء مهمّته، حيث يحتسي أكبر كمية ممكنة من الجعة وبقدر ما تسمح له ميزانيته. هذا إلى جانب أنّ سيغيورد ليس على تلك الدرجة من الطيبة التي تجعله يأتي بنفسه ليتسلّم البريد. عاجَل ينز الفتى بنظرة سريعة وما عدا ذلك لم يعره ولم يعر باردور أيّ اهتمام، فقد كان مستغرقًا في الحديث مع سكولي؛ محرّر صحيفة إرادة الشعب. سبق أن رأى الفتى سكولي مرة، ولكن من على مسافة، وقد أدام النظر إلى هذا الرجل الطويل المهندم، لا بدّ أنّ العمل كاتبًا في صحيفة شيء رائع، أفضل ألف مرة من صيد السمك. كانت هناك صحف أمام سكولي، وكان يكتب شيئًا يمليه عليه ساعي البريد. الصحيفة القادمة ستحفل بمعلومات كثيرة، لأنّ ينز قطع الطريق كلها من ريكيافيك إلى هنا راجِلاً وراكبًا، حاملاً معه أخبارًا من العاصمة ومن الخارج، إلى جانب نتف الأخبار التي يجمعها في رحلته الطويلة. يتوقّف ينز عند مزارع عديدة، وهناك أفواه

كثيرة ترغب في أن تقول شيئًا، ثرثرة أو قصص أشباح أو تخمينات عن المسافة بين كوكبين، عن المسافة بين الحياة والموت، فنحن ما نقوله، ولكن أيضًا نحن ما لا نقوله. يبدو القبطان الأعمى كولبين متكتّمًا على عديد من الأمور، ولحسن الحظّ لم يظهر أيّ اهتمام بالفتى، توجّه بالحديث إلى باردور فقط، خُذ هذا الكتاب عن يول لأندريا، قال، وهذا لك تابع كولبين وهو يضع يده على كتاب ضخم أمامه، الفردوس المفقود، طُبع سنة ١٨٢٨، أنا أثق بك كما ترى، قال لباردور بنبرة جلفة تقريبًا، بقي صامتًا للحظة كما لو أنه يتفكّر في هذه الكلمات، أترى، تابع الحديث عن الكتاب، سيقلب حياتك رأسًا على عقب وهذا ليس شيئًا سيّئًا.

لا شيء حلوّ في نظري بدونك.

كان ميلتون صاحب الفردوس المفقود فاقد البصر مثل القبطان البحري. شاعر إنجليزي فقد بصره في شيخوخته، ألّف قصائده في الظلام وابنته هي التي نقلتها إلى الورق. ونحن بالتالي نبارك يديها، ولكن عساهما حصلتا على حياة تتعدّى كتابة القصائد، عساهما كانتا قادرتين على حمل شيء أدفأ وأرق من ريشة كتابة نحيلة. من الممكن جدًا أن تغيّر بعض الكلمات العالم، فهي قادرة على أن تريحنا وتجفّف دموعنا. بعض الكلمات أشبه بالرصاص، غيرها أنغام قيثارة. بعضها يمكن أن يذيب الثلج المتراكم حول قلب المرء، بل حتى من الممكن بعث الكلمات في مهمة مثل فرق الإنقاذ في الأيام الصعبة ونحن ربما لا في عِداد الأحياء ولا في عِداد الأموات. في جميع الأحوال الكلمات لا تكفي، وإذا لم يكن لدينا شيء نحمله سوى ريشة كتابة نحيلة نضيع وننقرض في أرض الحياة البور. يحلّ المساء، وقلنسوة ما تحطّ على كلّ شيء. سطور كُتبت في غمار ظلمة لازمت عينيه، كُتبت بيد امرأة، وتُرجمت إلى الأيسلندية على يد كاهن سليم العينين لكن كان أحيانًا أفقر من أن

يجد ورقًا للكتابة، آنذاك كان يستعيض عن الكتابة على الورق بالكتابة على سماء وادي هورجيردالور.

تمام! يقول بيتور بصوت عالٍ.

تمام!

الكلمة الأولى التي سُمعت في المركب منذ أربع ساعات تقريبًا.

يتوقّف الجميع عن التجديف في اللحظة نفسها.

يتنفّسون بعمق كالبحر تحتهم.

كانت معظم الجبال حولهم قد غرقت بالكامل، ما عدا حدود قمّتين تظهران أمامهم باهتتين، وقربهما يقود بيتور المركب، المركب فوق منطقة توافر السمك، حيث العمق ليس سحيق الأغوار، وظلمة البحر ليست جدّ مروعة.

تمام! ويسحب آربي وبيتور المجاديف.

كلمة واحدة، هي في جميع الأحوال لا تكاد تكون كلمة، وهي عادة بلا أي قيمة. نحن نادرًا ما نقول تمام! عندما نحلم بهدف ما، نتوق إلى تلامس الشفاه، نادرًا ما نتنهّد ونحن نقول تمام! عندما نبلغ هزة الجماع لا نقول تمام! ولا عندما يهجرنا أحدهم وتتحجّر قلوبنا. لكن بيتور لا يحتاج إلى أن يقول أكثر من ذلك. الرجال لا يحتاجون إلى الكلمات هنا في البحر المفتوح. سمك القدّ لا يملك أدنى اهتمام بالكلمات ولا حتى بالصفات مثل كلمة رائع. سمك القدّ لا تعنيه الكلمات على الإطلاق، ومع ذلك جاب البحار بدون أن يطرأ عليه أيّ تغيير حوالي ١٢٠ مليون سنة. أيخبرنا هذا شيئًا عن اللغة؟ لعلنا لا نحتاج إلى اللغة لنبقى على قيد الحياة؛ لكن من ناحية أخرى، نحن نحتاج إلى الكلمات لنعيش.

تمام! يقول بيتور ويقذف الطوافة خارج المركب ثم يبدأ في إعداد أول دفعة من خيوط الصيد مع آرني.

يدفع الأربعة الآخرون الخيوط خارج المركب بمجاديفهم. وتر طويل بخطافات عُلقت بها الطعوم في المساء، ستة خيوط، واحد لكلّ رجل، بدأوا بخيط بيتور أولاً. يرسم هو وآرني علامة الصليب على كلّ خيط قبل رميه في البحر لئلا يصعد إليهم شيء شرّير من الأعماق، لكن ما يمكن أن يكون ذاك؟ إنّ أعماق البحر بريئة من كلّ الشرور، هي فقط حياة وموت، بينما هناك حاجة إلى أن نرسم علامة الصليب على الخيوط، لا مرة واحدة إنما على الأقلّ عشرة آلاف مرة، إذا كان علينا أن نغطسها في أعماق النفس الإنسانية. يتزايد هبوب الهواء الشرقي بثبات متحوّلاً أكثر إلى ريح شمالية شرقية. تنخفض درجة الحرارة. تنخفض رويدا رويدًا على أيّ حال وما زالوا يشعرون بالدفء بعد مجهود التجديف، دفء لا يفارق الرجال الأربعة مفارقة نهائية؛ الأربعة الذين يدفعون الخيوط بعيدًا عن المركب، الاثنان الآخران يشعران بالبرد ولكن لا يظهران ذلك ليبرهنا على قوّتهما، وهي ربما ليست قوة على الإطلاق إنما لعلها بكلّ بساطة خوف من آراء الآخرين. الناس أحيانًا مضحكون. تغوص الخيوط تباعًا في البحر الأزرق البارد، تستقرّ في الأسفل حيث الصمت وظلمة الأعماق، تنتظر السمك، وسمك القدّ هو المفضّل.

ينتظر رجالُ المركب الستة السمكَ الذي سكن البحار ١٢٠ مليون سنة. بقي القدّ محافظًا على مساره الخاص بينما جاءت الأجناس الحيوانية المختلفة وراحت، والإنسانية ليست إلا مرحلة قصيرة في حياته الطويلة. يسبح القدّ طوال حياته بفم مفتوح على مداه، فهو نهم جدًا بحيث يحصل على الأفضل من كلّ شيء، ما عدا البشر طبعًا، يأكل كلّ ما يمكن أن يصادفه ولا يكتفي أبدًا، مرةً عدّ الفتى ١٥٠ سمكة كابلين في جوف قدّ متوسط الحجم، ووُبِّخ بشدة لأنه هدر وقتًا طويلاً على

شيء تافه. القدّ أصفر اللون والسباحة تسعده، دائمًا يبحث عن الطعام، قليلة جدًا هي الأحداث التي تطرأ في حياته، وخيط يتمايل نزولاً والطعم معلّق بخطافه يعتبر أخبارًا عظيمة، حدثًا ضخمًا. ما هذا؟ يتساءل سمك القدّ، أخيرًا شيء جديد، يقول أحدهم وينقضّ على الطعم فورًا، عندئذ يسارع الآخرون كلهم لينالوا نصيبهم هم أيضًا، إذ لا أحد يرغب في الاكتفاء بالتفرّج، التسكّع هنا رائع يقول الأول من طرف فمه، ويوافقه الآخرون. تمرّ الساعات، ثم تطرأ حركة، ثم يبدأ كلّ شيء في الاضطراب، يشعر القدّ العالق بالخطافات أنه يُرفع إلى الأعلى، قوة عظيمة ما تجذبه أعلى فأعلى صوب السماء التي لن تلبث أن تنشقّ منفتحة على عالم آخر عامر بسمك غريب.

يلقون الخيوط كلها وتبدأ مرحلة الانتظار.

الانتظار الطويل قبل أن يتلقّف السمك الطعم. ساعتان بدون عمل أيّ شيء. ساعتان في تابوت مفتوح في البحر القطبي. في حضن الصقيع، في حضن الريح الآخذة بالاشتداد. فقط جفيندور وإينار لديهما ما يقومان به في هذه الأثناء؛ يبقيان قابضين على المجاديف، لا يفلتانها، لا ينالان فرصة راحة منها إلا بعد الوصول إلى اليابسة والتحّرر من البحر، اللهم إلا إذا هبّت ريح مناسبة للشراع، حينها يرتاحان بينما يشقّ المركب البحر، يتولّى بيتور القيادة ويتحوّل "السيكسرين" إلى ما يشبه أكثر السفن روعة. أوه نعم، تلك لحظات جيدة، بل حتى رائعة، يصبح التابوت سفينةً تمخر عباب البحر، يأخذ الرجال إغفاءة قصيرة وتعمر أذهانهم بالأحلام.

يحرّك جفيندور وإينار مجاديفهما عكس التيار للحفاظ على المركب ثابتًا قرب الطوافة. يغرق لون الليل الأسود ببطء قبل ظهور ضوء النهار، يغرق ببطء شديد،

ما زالت الدنيا شبه مظلمة فوق رؤوسهم، نجمة هنا ونجمة هناك تخترق الغيوم الملبدة الواطئة التي تفترش السماء شيئًا فشيئًا. ينحني بيتور طلبًا لبرميل مصل اللبن، ينزع سدادة الفلين ويعبّ جرعة كبيرة، يناول آربي البرميل ويتناوبون الشرب كلهم بالطريقة نفسها، تمتلئ أفواههم بالمصل ويشعرون بالانتعاش. تنخفض درجة الحرارة. سيكون هذا انتظارًا طويلاً، ولكن ماذا في ذلك؟ سبق أن انتظروا في جوّ أقسى من هذا، وسبق أن انتظروا وسط ريح أشدّ، أشدّ إلى درجة أنها تطلبت أربعة رجال لإبقاء المركب في مكانه. سبق أن انتظروا في ظلام حالك جدًا بحيث اضطر بيتور إلى إحكام قبضتيه على الحبل المربوط بالعوامة حتى لا تنزلق بعيدًا وتُفقد، أمسك الحبل بقوة ولكن كان خائفًا حتى العظام من أن يكون الشيطان يترصّد لهم في الليل وهو يمسك الطرف الآخر من الحبل. مع ذلك لم يفكّر ولا للحظة أن يفلت الحبل، لأنّ أسوأ شيء في هذا العالم بدون شكّ هو إفلات الصيد، فقده، الاضطرار إلى التخلي عنه، الاضطرار إلى الفرار بذعر قبل أن يستولي هياج العاصفة على المركب، قبل أن تتفاقم حدّة الأمواج وتتكسّر عليه، ثقيلة كالموت تمامًا. لكن العالم متنوّع، هناك عواصف وهناك هدوء، وقد كان بديعًا الهدوءُ عندما جدّفوا في البحر آخر مرة، قبل نصف شهر. يومها استسلم العالم للنوم، وكان البحر مرآة تعلو وتهبط. يومها رأوا من المركب كلّ صدع وشقّ في جبال تبعد عنهم عدة كيلومترات، والسماء فوقهم متقوّسة كسقف كنيسة؛ السقف الذي يحمينا. كان الرجال الستة صامتين، متواضعين، وشاكرين لأنهم أحياء. إلا أنه ليس من الطبيعي أن يسيطر الشعور بالامتنان أو التواضع مدة طويلة على المرء: بدأ بعضهم يفكّر في التبغ ونسي الحياة الأبدية. أما باردور والفتى فرجعا بظهريهما إلى الوراء قليلاً وراحا يتأمّلان السماء المتلألئة التي تجعلنا وديعين وجبارين في آن، وتبدو أحيانًا كأنها تكلّمنا. ما تقوله يطهّر بعناية الجراح القديمة.

لكن لا نجوم هناك الآن، ليس في هذه الرحلة. ما عاد هناك أيًا منها. اختفت كلها وراء الغيوم المتلبّدة فوق رؤوسهم مُنبئة إياهم بطقس سيّئ. كان النهار يقترب، ومع اقترابه ازدادت شدّة الريح وبرودتها، ريح مولودة من رحم الثلج الذي يغطي العالم وراء الأفق، لن نجدّف في ذلك الاتجاه، جحيم هو البرد. وضعوا عليهم معاطفهم الواقية، إذ ليس أسهل من أن تتسلّل الريح القطبية إلى أجسادهم حتى على الرغم من أنّ غرز كنزاتهم الصوفية مرصوصة جيدًا. وإذا خضّلهم العرق لن يساعدهم ذلك بالتأكيد. يسارع الجميع إلى ارتداء المعاطف الواقية، الجميع ما عدا باردور، باردور لا يسارع إلى شيء، تتصلّب يده الممدودة في الفراغ ويعلو صوته بالسباب. ماذا؟ يسأله الفتى. نسيتُ المعطف اللعين، يزمجر باردور ويعود إلى كيل وابل الشتائم، يلعن تركيزه غير الضروري على حفظ الأبيات من الفردوس المفقود، بلغ به استغراقه في التركيز حدّ نسيان معطفه. من المؤكد أنّ أندريا قد رأته الآن وباتت تخشى عليه من الصقيع هناك، حيث يقف أعزل أمام الريح القطبية. هذا ما يمكن أن تفعله القصائد بنا. يا لك من أبله، يقول إينار ويكشّر، أما بيتور فلا يقول شيئًا، بل حتى يبدو كما لو أنه يتحاشى النظر إلى باردور الذي يضمّ في خيط واحد جميع ما لقنته إياه الحياة من مفردات الشتيمة والسباب، وهي بلا شكّ مجموعة واسعة. إنّ كلمات السباب قطع فحم صغيرة قادرة على تسخين الأشياء، لكن الكلمات لسوء الحظّ قليلة التأثير في اتقاء شرّ الريح القطبية؛ ريح تتسلّل وتنفذ إلى اللحم، وأيّ سترة واقية مناسبة أهمّ بكثير جدًا من قصائد العالم كلها. يجلس الفتى وباردور متقابلين متباعدي الساقين على مقعد التجديف، يبدآن في ضرب أكفهما معًا، ببطء في البداية، ثم بأسرع ما يمكنهما، ويستمرّان في فعل ذلك إلى أن تسري حرارة مناسبة في باردور، في حين راح الفتى الذي تقطّعت أنفاسه ينضح عرقًا. على أيّ حال، سرعان ما تفارق الحرارة باردور الذي يعمد إلى لطم جسمه بقوة ليولّد فيه الحرارة.

سأمرض الآن يفكّر ممتعضًا، وسأُحرم طبعًا من الرحلة البحرية التالية، ومن تسليم السمك إلى الدكان، تبًّا، يعود إلى السباب، سيّئ أن أفوّت على نفسي السمك. السمك ليس مجرّد مجموعة من الفقاريات ذوات الدم البارد، تعيش في الماء وتتنفّس من خياشيمها، السمك أكثر من ذلك بكثير. معظم المستوطنات الأيسلندية بُنيت بعظام سمك القدّ، هي الأعمدة التي ترفع سقف الأحلام المقوس. يحلم بيتور بأن يصبح غنيًا، يهدم المزرعة القديمة ويبني بيتًا من الخشب بنوافذ تسعد أندريا التي يمكنها بالتأكيد الاستفادة منها، في الحقيقة يبدو أنّ شيئًا سيّئًا قد حدث بينهما. مع ذلك يجهل بيتور كنهه، هو، في الواقع، مغلوب على أمره، فهو لم يتغيّر، يكرّس جلّ جهده في العمل بإخلاص، لا يمنح نفسه استراحة أبدًا، إنما لماذا يشعر أحيانًا أنه يفقدها، أترى الحياة تخونه؟ إنه لا يستطيع وضع يده على أيّ حدث معيّن، ليس هناك ما يعزّز هذا الشكّ، ما عدا الشعور بأنّ شيئًا ما في الهواء يعمل ضدّه ويبني جدارًا بينهما، يخلق مسافة. يتحوّل هذا الشكّ أحيانًا إلى اضطراب بحت، تحطّ عليه الكآبة، كآبة تجرّد يديه من القوة وتثقل رأسه، إنما نادرًا ما يحدث هذا هنا في البحر، هنا هو سعيد، هنا يمكنه التغلّب على كلّ شيء، وإلى جانبه يجلس آربي أفضل نوتي حصل عليه بيتور في يوم. يحلم آربي أيضًا ببيوت الخشب، يحلم بتحسين حقوله، بتسوية الحشيش، بشراء نسيج أحمر ناعم الملمس من دكان تريجفي في نهاية موسم صيد السمك مع ألعاب للأطفال. من ليس لديه أحلام هو في خطر. يحلم جفيندور بجزمة أمريكية ولا ينفكّ يدقق النظر في جزمة آربي. يخطط إينار لشراء سترة وقبعة نسيجها مزركش بأشكال مربّعة في نهاية موسم صيد السمك، لكن الفتى يحلم بالكتب، بحياة أخرى، وأحيانًا يحلم بغودرون، ربما يستطيعان معًا شراء مزرعة صغيرة، لا، تبًّا، إنه ليس مزارعًا، ولا يهتم بأن يكون مزارعًا، ولا حتى معها هي التي من المحتمل أن تجعل كلّ شيء برّاقًا ورائعًا، هي التي من المحتمل أن تحوّل كلّ شيء

إلى حكاية خرافية، لا، هو ينوي أن يعمل مساعدًا في متجر ليو كبداية، وحينها يتفرّغ للقراءة في المساء، ثم يطرأ أمر جديد وتزيد معه فرصه.

اشتدّت سرعة الريح وقوّتها.

يصفع باردور نفسه ويطلق لسانه بالسباب عاليًا وبينه وبين نفسه. يحلم بالتحرّر من أبيه، يحلم بالخلاص والإفلات، بقضاء حياته مع سيغريد، مع ضحكاتها وتعليقاتها التي تسلّط الضوء في أغلب الأحيان على أشياء في هذا العالم. يحلم بتحصيل مزيد من المعرفة، يحلم بكوبنهاغن، حيث الأبراج، وشوارع تفوق الحصر يمكن أن يتيه فيها المرء، يحلم بالقيام بشيء عظيم، إذ ما الفائدة بحقّ الجحيم من حياتنا إن لم نفعل؟ ذاك سؤال يستحقّ التفكّر فيه، ولكن لديه الآن سؤالاً آخر أكثر إلحاحًا: كيف يمكنه التخلّص من البرد؟ يعطيه بيتور تبغًا، ويأخذه باردور على الرغم من أنه لم يعتده، يعبس من المذاق المرّ، ويدفئه التبغ نسبيًا ثم لا يلبث مفعوله أن يزول. يعود هو والفتى إلى ضرب الأكف بسرعة وقوة، ترتفع سرعة الريح والبرد الصقيعي وتسود الغيوم. كانت اليابسة قد اختفت، والثلج المدوّم يحجب الأفق ومن المتوقع أن يصل إليهم بعد ساعة إذا لم يتوقّف الزمن، هو الساعة لا يكاد يدبّ قدمًا، بطيء جدًا حتى ليبدو كأنه ثابت تقريبًا. يتلوّى آرني وبيتور، فهما يشعران بالبرد يجتاحهما على الرغم من معطفيهما. يبدأ بيتور بالهمهمة، بصوت منخفض وغير متماسك، يمرّن حباله الصوتية، وعندما تغدو دافئة ومطواعة بما يكفي يشرع في إلقاء الشعر ويفتح الآخرون آذانهم. في بادئ الأمر يلقي أشعارًا عن الخيول ثم عن رحلات صيد السمك، عن البطولات والأفعال الجريئة في البحر. لكن البطولات والخيول لا تؤثران كثيراً في البرد، فيغيّر السياق، يبدأ في إلقاء أشعار غامضة سرعان ما تتحوّل إلى بذيئة. يعرف بيتور مجموعة كبيرة من مثل هذه الأشعار، يبلغ عددها العشرات وربما المئات. ينتقل إلى مقعد تجديف آخر

ويجلس في الصدارة محتميًا بمعطفه وقفازيه الصوفيين الهائلين وطاقية صوفية تحت قبعة صيادي السمك، حافتها تصل إلى حدود جفنيه، ولا يُرى منه إلا عينيه وأنفه وجزء من خدّيه وفمه، لحيته تغطي بقية وجهه وتخفي سماته، ولعلها في الواقع السبب وراء ظهوره منيعًا وهو يتأرجح إلى الوراء والأمام ويمضغ تبغه. تتدفّق الأشعار منه، كما لو أنها تهدف إلى تطهير البرودة القطبية نفسها. تصبح الأشعار أكثر عنفًا وأكثر فجاجة وينقلب بيتور من حال إلى حال. لم يعد الربّان الصامت الجدي، لم يعد حصان الشغل. شيء ما عتيق ومظلم يصحو فيه، ما يلقيه لم يعد شعرًا يتدفّق من داخله، الشعر للمتخاذلين وخريجي المدارس، هذه قوة بدائية، لغة عميقة الجذور في العقل الباطن المظلم، نبعت من حياة قاسية وموت لا يكفّ عن الاقتراب أبدًا. يشتعل بيتور ويهتز بإيقاع منتظم على مقعد التجديف، يصفع فخذيه بيديه بين حين وآخر عندما تغدو القوافي ثقيلة جدًا بحيث يصعب على الجسد البشري التعامل معها، لأنّ الجسد البشريّ حسّاس ولا يقدر على تحمّل وطأة الصخور الكبيرة، لا يقدر على تحمّل الانهيارات الجليدية، ولا البرد القارس، لا يقدر على مكابدة الوحدة، لا يقدر على الصمود أمام الكلمات المقفّاة المُثقلة بالعصور القديمة، المُشبعة بالشبق، ولذلك السبب يصفع بيتور فخذه، ليدفع الكلمات قدمًا، ويرتج الأمر على الرجال الخمسة، كلهم مكبّلون بهذه الطاقة البدائية المتدفّقة من ربّانهم. عينا إينار شاخصتان ومفعمتان ببهجة خالصة، جفيندور يتنفّس من فمه، وآرني لا يزيح عينيه عن بيتور، عينا باردور نصف مغمضتين، لا يستمع إلى الكلمات بقدر ما يستمع إلى جرسها، جرس الصوت، ويفكّر، إنه الشيطان بنفسه، من أين أتى هذا النذل بكلّ هذه الطاقة!؟ الفتى يترنّح متأرجحًا بين نشوة الطرب والنفور، يحدق في رجل خمسيني يجرف من باطنه أشعارًا بذيئة، أيعدو بيتور أن يكون شيئًا آخر غير رجل كهل؟ أتعدو تلك الأشعار أن تكون شيئًا آخر غير

السفاهة؟ لكن مع النفَس التالي يتحوّل بيتور إلى سياق أكثر قِدمًا، فيُغيرُ جرس الكلمات على الفتى الذي يلعن نفسه ويلعن بيتور. يجلس هناك بين خمسة رجال أحياء في مركب يطفو في البحر القطبي، والصقيع من حوله، يتأرجح بين نشوة الطرب والنفور. نزع بيتور قبعته الواقية بعد أن أخذ ينضح بالعرق، نحى جانبًا أحد قفازيه، تبدو يده الضخمة كأنها قابضة بإحكام على بعض الكلمات، يحملق في لا شيء، ممعنًا في التركيز، ويحاول ألا يفكّر في أندريا، أَطِلّ بقاءك، تطلب منه أحيانًا وهمًا في بيت التمليح، هناك عند كومة القدّ المملّح التي تزداد ارتفاعًا، وقريبًا تصبح أعلى من أن يقدر على القيام بما يقوم به واقفًا. تمهّل، تقول له، هذا جيد، وتباعد بين ساقيها أكثر، لتستمتع به ولتشعر به على نحو أفضل، وأيضًا حتى لا يؤلمها، بيد أنّ السخونة في كلماتها وفي ساقيها المنفرجتين تتفاقم، ينفجّر كلّ شيء داخل بيتور، يرتعش ويطبق أسنانه، فتشيح أندريا وجهها بطريقة فطرية كما لو أنها تخفي خيبة الأمل، بل الحزن أيضًا الذي يظهر على قسمات ذلك الوجه. ثم يخيّم الصمت على بيت التمليح وتتحاشى أندريا النظر إلى زوجها. في تلك اللحظة بالذات، في خضم ابتهاجه بقوة الأشعار ينظر بيتور عاليًا. الطاقة والسحر والشهوة تنحسر عنه كلها على نحو مفاجئ، تتحوّل إلى لا شيء، تتملّص منه وتختفي عندما يستهدفه الخوف من فقد زوجته، ويحتلّ كلّ خلية فيه. يفقدها، كيف ومتى؟ إنه لا يدري، لم يسبق له أن تعمّق إلى هذا الحدّ في جوهر ذلك السؤال، لكن ماذا لديه بالفعل، وما معنى الحياة؟ نعم، الحياة هي هذا المركب، والأرض ببيوتها ومخلوقاتها، ثم هناك أندريا. ثلاثون سنة معها. إنه لا يعرف حياة أخرى، إذا حدث واختفت من حياته يفقد توازنه، إنه يدرك هذا الآن، يمثُل هذا الاستنتاج أمامه بشكل مفاجئ تمامًا. يموت الشعر على شفتيه، ويبدو بيتور على شفير الانهيار.

يطلق إينار لسانه بالشتائم بينه وبين نفسه. فهو يعرف مجموعة الأشعار التي

شردت من باطن بيتور، وكان ينتظر بلهفة المقاطع الأخيرة. يعود إليهم العالم والصمت المفاجئ. ومع الصقيع تأتي الريح والأمواج المتصاعدة وندف الثلج، لأنّ العاصفة الثلجية المدوّمة قد ألحفت في اقترابها. يفرك باردور ذراعيه بشراسة، يستدير الفتى حتى يستطيع فرك صدر صديقه وظهره في الوقت نفسه، يصارع إينار وجفيندور الأمواج، يتحاشى آرني النظر إلى بيتور الذي ما عاد على طبيعته وبدا كأنه يجلس هناك منتظراً أن يلقيه شخص ما خارج المركب كما يُلقى شيء عديم الفائدة. يعلو المركب ويهبط. يعود إلى الفتى دوار البحر الذي لم يزعجه كثيراً في الرحلة بفضل العقار السحري، العقار الذي ما انفكّ يباركه في سرّه، يعود لكنه ما زال خفيفًا، غثيان يجب أن يكون قادراً على التخلّص منه عندما يبدأون في سحب الخيوط، هذا إذا لم يخذلهم الزمن، لم يخلّفهم وراءه في البحر القطبي. ينفض بيتور جسمه، ينفضه مثل حيوان، يحرّر نفسه من الخدر، من الاستسلام والخوف ويقول: هيا نجدّف إلى الطوافة.

ينتصب آرني وباردور والفتى، ويعطف إينار وجفيندور المركب ويجدّفان بعنف ليقطعا المسافة القصيرة إلى الطوافة، لأنهم الآن سيسحبون السمك، الآن يسحبونه إليهم من الأعماق التي تبقي الحياة فينا، التي ترمّم البيوت وتضخّم الأحلام. يربط باردور البكرة بمسند المجداف، مهمته أن يجذب الخيط، مهمة تتطلّب قوة وجلدًا وهو يمتلك الكثير منهما. يتكئ بيتور بعض الشيء على طرف المركب، يمعن النظر في البحر، ينتظر والرمح الحديدي بيده اليمنى، يبدأون بخيطه، خيط الربّان. تعتريهم قشعريرة الأمل. يجذب باردور، وفي الأعماق تختلج الخيوط، يصعد القدّ إلى السطح ويتلقى استقبالاً جلفًا. يطعن بيتور السمك في المركب ثم يشقّه آرني فوراً بحركة سريعة واحدة، وهكذا لا يعود السمك أبدًا إلى الغوص ثانيةً في الأعماق الزرقاء

الداكنة مبتلعًا كلّ ما هو أصغر منه. لحظات البهجة تلك أصبحت من الماضي وحلّ محلّها الموت، مع أننا لا نعرف إلى أين يأخذ الموت السمك، أهناك بحر أبدي يجري في مكان ما وراء الزمن، بحر عامر بالسمك الفاني، بعضه انقرض من على الأرض منذ زمن سحيق؟ السمك من ذوات الدم البارد، ولعله ليس مرهف الحسّ تجاه الحياة والموت، يفكّر الفتى، يتسلّم الخيط بمجرّد أن يسحبه باردور إلى المركب مثقلاً بالسمك، يضعه على أرض المركب بعناية، يحرص على ألا يتشابك، ينزع الطعوم المتبقية في الخطافات، وعليه أن يكون سريعًا، وهذا ليس سهلاً دائمًا. أحيانًا لا يجد أمامه إلا أن يستخدم أسنانه، ينتزع الطعم ثم يبصقه باردًا كالثلج وشديد الملوحة. هناك سمك كثير. يبدأ باردور في سحب خيط آرني، يجهّز بيتور الخطاف، يبتسم، هذه لحظة جميلة. يصارع إينار وجفيندور الأمواج، يبتسمان. يبدو جفيندور مع إطلالة الصباح الأولى أشبه بكلب وديع وضخم. ثم فجأة، وبينما كان باردور قد قطع شوطًا كبيرًا في جذب الخيط الرابع، خيط الفتى، تعتم السماء كما لو أنّ الظلام عاد ليغشاها، كما لو أنّ الليل عاد يطرق الأبواب ولسان حاله يقول، معذرةً، نسيت شيئًا هنا. لكن هذا ليس الليل وقد عاد من أجل قبعته، إذ عندما يرفع بيتور رأسه ويمعن النظر حوله، يرى أنّ العالم كلّه قد اختفى من حولهم، وحيث ينبغي أن يكون هناك أفق انتشرت سحابة سوداء كثيفة.

كانت العاصفة تقترب ولن تلبث أن تصبح فوقهم.

آرني، يقول بيتور، ولا يقول شيئًا آخر لأنّ آرني يرى إلى ماذا ينظر الربّان، يضع سكينه جانبًا ويبادر إلى مساعدة باردور في جذب الخيط. يتزايد تخبّط البحر، تساهله نحو هذا المركب وهؤلاء الرجال أشرف على نهايته. تتعاظم الأمواج، تغدو أضخم وأعلى، تهبّ الريح باردة، تتضاءل سرعة باردور، بدأ البرد يستنفد طاقته، الفرح بالصيد الوفير يمكن أن يشيع الدفء نوعًا ما، لكنه دفء محدود وغير كافٍ

بالتأكيد. إنّ الفرح والبهجة والحبّ المتأجّج المستمدّة كلها من الثالوث الذي يجعلنا بشرًا، الذي يبرّر الحياة ويجعلها أعظم من الموت لا تؤمّن الستر من الريح القطبية أكثر مما يؤمّنه دفء الصيد الوفير. المعطف الواقي هو حبّي الآن، سترة أخرى هي فرحي وبهجتي الآن. تهبّ الريح فوق البحر القطبي، تلحف في سرعتها مع كلّ دقيقة تمرّ، وتبصق في طريقها ندف الثلج. يحتاج جفيندور وإينار الآن إلى بذل جلّ طاقتهما ليحافظا على المركب شبه ثابت، الأمواج ترتفع محيطة بهم، الأرض قد اختفت منذ مدة طويلة، الأفق اختفى، ما عاد هناك أيّ شيء إلا ستة رجال في محارة، يسحبون السمك والأحلام من الأعماق الباردة. يتجالد بيتور، يشبك السمك برمحه، ينظر أولاً إلى باردور ثم إلى الجوّ من حولهم، بدأ آرني وباردور يجذبان الخيط الخامس، خيط جفيندور القابض بإحكام على مجدافه؛ هو ضخم جدًا إلى جانب إينار، ولكن من الداخل صغير وخائف إذ لا ريب في أنّ الغرق شنيع، والبحر القطبي كفّ عن رعاية هذا المركب، هذه الرقعة الخشبية مع رجالها. وها هي العاصفة تنقضّ. يثخن الثلج المتساقط، مع أنه ما زال من الصعب القول إنها تثلج. تجلد الريح ندف الثلج في وجوه الرجال، ترغمهم على تضييق عيونهم أو الإشاحة بوجوههم بعيدًا. تتكسّر الأمواج حول المركب، يندفع ماء البحر عليهم، ليس بكميات كبيرة، إلا أنّ القليل منه كاف ليبلل رجلاً نسي معطفه الواقي في اليابسة، يشهق باردور وتتلاحق أنفاسه. في تلك اللحظة تقريبًا ينظر آرني إلى بيتور الذي يهزّ رأسه موافقًا، يلقي الرمح وسط كومة السمك، مئتي سمكة تقريبًا، يتناول آرني السكين، يقطع خيط جفيندور بعد الحصول على أغلب ما علق به. لقد حان الوقت، يهمهم الفتى متنهّدًا وهو منحن فوق ما يعمله، غير جالس ولا واقف. تقيّأ في تلك الأثناء مرتين، تقيّأ مصل اللبن، تقيّأ خبز الجاودار الذي تناوله في الليل، استقرّ بعض القيء في المركب وبعضه في البحر والباقي حملته الريح معها. يتكاثف

الثلج المتساقط حولهم ويقلّص العالم، مدى ما يرونه لا يتعدّى بضعة أمتار، ولا يرون إلا أمواجًا صاعدة عميقة القيعان. يرتفع المركب، يهبط المركب، تتحوّل كنزة باردور إلى درع من الثلج، يجلس على مقعد التجديف، يرمي، يلطم نفسه بشراسة. يحاول الفتى أن ينتزع نفسه من دوار البحر الذي ما فتئ يستفحل على الرغم من العقار السحري، ذلك المُنتج المشهور عالميًا بمواصفات علمية عالية، شبه يتدلّى فوق المقعد ويفرك جسم صديقه بوهن، يعرض عليه إقراضه معطفه لكن باردور يرفض، فمعطف الفتى صغير جدًا، ولن تتحسّن الأمور إذا تبللا معًا بالماء. تبًّا، تبًّا، تبًّا، يغمغم باردور. ماذا عن خيطي أنا؟! يصرخ إينار وينظر بجنون إلى بيتور وآربي. لا يمكن أن نمكث أكثر من ذلك! يزعق بيتور، والمسافة التي تفصل بينهما لا تتجاوز ثلاثة أمتار، لكن إذا أراد المرء أن يُسمع هنا في البحر القطبي عليه أن يصرخ، أن يزعق، على الرغم من أنه ليس من المؤكّد أنّ أيًّا منهما يفي بالغرض. يصرخ إينار، يلوي رأسه كما لو أنه يعاني عذابًا ممضًّا، كما لو أنه يحاول تهدئة ثورة الغضب التي تهدّد بتفجير رأسه، يطبق فكّيه بكلّ ما أوتي من قوة ويفلح في كبح الكلمات التي تعوي داخله. إنّ بيتور هو الربّان، وكلامه قانون، ومن يختلف معه يمكن أن يذهب إلى مكان آخر، إنما ما زال هذا هوانًا. هوان يؤجج جنون إينار ويجعله لا يرى سوى الدمّ، لأنّ جميع الخيوط قد جُذبت باستثناء خيطه، وكلها مثقلة بالسمك، هذا هو الظلم الأكثر فظاعة، هذا جحيم قاتم السواد. أكثر من ثلاث ساعات من التجديف المجهد، والدفع ثلاث ساعات أخرى عكس الريح والمدّ، وماذا ينال المرء في النهاية، لا شيء، تُرك السمك هناك في البحر، تُرك معلّقًا بالخطافات. يحدج إينار بعينين دمويتين باردور الذي يحاول مغالبة الصقيع، والفتى الشاحب كالأموات يفرك جسم صديقه، ليس الجو هو من يسرق سمك إينار، بل باردور. الشراع! ينعق بيتور في وجه الريح والثلج الدافق، كلمة واحدة منه ويقبض إينار وجفيندور على

المجاديف، يعتدل باردور والفتى، يتحرّك الرجال بسرعة ولكن بحذر، حركة واحدة غافلة، حركة واحدة متهوّرة، ويفقد المركب التوازن الذي يفصل الحياة عن الموت. ترتفع الساريتان، ويُفرد الشراع بينهما، يجهز بيتور الدّفة، اضطر إلى الزحف نحوها، هناك احتمال كبير في أن تهاجم الريح الشراع، تنقض عليه بعنف ولسان حالها يقول أخيراً بعض المقاومة، أخيراً هناك شيء آخر غير الفضاء الفارغ. يميل المركب على جنبه تقريبًا، ينظرون مباشرة إلى البحر المتلاطم. السماء فوقهم اختفت منذ وقت طويل، هنا ما عادت السماء موجودة، ولا الأفق. يستعيد المركب توازنه بفضل الحركات اليدوية المتمرّسة، وبفضل بيتور الذي يوجّه الدّفة بمهارة. بدأ البحر يمور، بدأ يتدفق على الرجال ويغرقهم بالماء، يشهقون طلبًا للنفس ما عدا باردور الذي يقبع صامتًا ويحاول نزح الماء خارج المركب، لكنه يجد صعوبة في حمل الدلو بسبب الصقيع المتزلق إليه من خلال درعه الثلجي، تواصل الريح جلدهم، يبحرون والريح القطبية في أعقابهم، والعاصفة الثلجية تطاردهم، يتراكم الثلج في المركب وعلى الأشرعة ويتجمّد هناك، يحاول الرجال تكسير الجليد وتنحيته، مهمتهم أن يبقوا أحياء. يعملون كالمجانين ما عدا بيتور الذي يوجّه الدّفة منطويًا على نفسه من شدّة البرد، خدر الوجه ولا شيء أمامه إلا البحر الهائج والثلج، لكن بيتور لا يحتاج إلى رؤية أي شيء، استقراء الاتجاهات يكمن في أعماقه، وهو يحاول أن يقود بهم المركب نحو المسار الصحيح بقدر ما تسمح الريح. يعملون كالمجانين. يقذفون الثلج والجليد خارج المركب. يحاولون قذف الموت بعيدًا، ويحتاجون إلى بذل كلّ ما يملكون من قوة من أجل ذلك، على الرغم من أن لا شيء على الإطلاق يؤكد أنّ هذا يكفي. تسوء حالة باردور أكثر فأكثر، إنما أن يقرضه أحدهم معطفه ولو للحظة يكون أشبه بحكم الإعدام، وفي هذه الحالة يصبح هناك عاجزان بدلاً من عاجز واحد. مصير الرجل بدون معطف سميك واق من الماء البلل، البلل من رأسه إلى

أخمص قدميه في أقصر مدة زمنية. يمسك الصقيع بتلابيبه بقوة ولا يفلته، صعب أن يفلته هنا في البحر المكشوف. حاول أن تقاوم، يصيح الفتى باردور وهو ينحي الثلج والجليد عن الشراع فوقه بوهن، ثم يتوقّف فجأة وينظر إلى صديقه. بدا له كأن باردور يبتسم، يقترب منه، يقترب بحيث لا تفصل بينهما إلا بضعة سنتيمترات، أحدهما شاحب وضعيف من دوار البحر، والآخر ممتقع من شدة البرد. يحرّك باردور رأسه بحيث يدنيه من رأس الفتى، عيناه البُنيّتان مترقرقتان بشيء لا يدرك الفتى كنهه، تتغضّن شفتا باردور، يصارع ليشكّل الكلمات، ليهزم الصقيع، وينجح في فعل هذا، تأتي الكلمات، مشتتة طبعًا ولكن مفهومة لأولئك الذين يعرفون من أين تنبع، حلو نفَس الصباح، حلو مجيء النهار مصحوبًا بأنغام تطلقها الطيور المبكرة في النهوض، بهجة للسامعين. يحاول الفتى اغتصاب ابتسامة وسط الصقيع ودوار البحر، وسط الخوف. يقترب باردور أكثر، يميل طرف قبعته، فتتلامس جبهتاهما، لا شيء حلو في نظري بدونك، يغمغم باردور مردّدًا بيت الشعر المكتوب في الرسالة التي أنهاها في المساء الفائت، الرسالة الموجهة إلى سيغريد التي ربما تقف الآن عند مخضة اللبن في الريف في مكان ما خلف العاصفة، هذا إذا كان هناك شيء آخر موجود إلى جانب هذه العاصفة، إلى جانب هذا المركب وهذا الثلج الذي تنهشه العاصفة وتقذفه في وجوههم. يواصل الفتى تنحية الثلج عن الشراع والمركب، هذا يسهّل عليه التنفّس. تيقّنه من أن باردور لن يسمح للصقيع بأن يهزمه يمدّه بعزيمة مضاعفة. حلو نفَس الصباح، ولفترة ينسى كلّ شيء ما عدا جهده في تكسير الجليد من على الشراع، باستثناء الصراع من أجل البقاء، لكن، عندما يعاود النظر لاحقًا يرى أنّ باردور قد زحف إلى جؤجؤ المركب واضطجع هناك. يتقدّم الفتى مترنّحًا شبه زاحف، يدفع إينار جانبًا حتى يصل إلى باردور، يصيح إينار في أذنه، أتريدنا أن نهلك كلنا يا بَول الجرو اللعين! يصيح لأنّ الرجل الذي لا يقوم بعمله

يعرّض الجميع للخطر، بيد أن باردور مرتمٍ هناك وقد ضمّ ركبتيه إلى صدره وأحاطهما بذراعيه. يجثم الفتى إلى جانبه ويصيح، باردور! ينادي على الاسم الذي يعنيه أكثر من كلّ الأسماء في العالم مجتمعة، أكثر من مركب فيه مئتا سمكة، يدنو كثيراً بحيث تحطّ أنفاسه على عيني باردور البُنيّتين. يبادله باردور النظر، بلا أي تعبير على الإطلاق لأنّ الصقيع شلّ عضلات وجهه، إنما ما زال قادراً على النظر. تقبض يد إينار على ياقة الفتى ويجرّه بعيدًا بقسوة. يتفحّص الفتى المركب بعينيه، يصيح عليهما بيتور وآربي لكنه لا يسمع شيئًا، لا يسمع إلا زئير الريح. ينظر الفتى إلى إينار ثم ينقضّ عليه بغضب جنوني كالجليد، يلكم ذقنه، يترنّح إينار مذهولاً من اللكمة، ومذهولاً أكثر من الغضب الذي يجعل الفتى مستحيل التمييز. يخرّ الفتى على ركبتيه، يخلع معطفه الواقي، يحاول عبثًا أن يغطي به باردور، يحاول عبثًا فرك وجهه، يلكم كتفيه ويتنفّس في عينيه لأنّ الحياة تستقرّ هناك، يزعق، يلكم بقوة ويفرك بمزيد من القوة إنما لا يحدث ذلك فرقًا، كلّ ذلك بلا جدوى، توقّف باردور عن النظر، ما عاد هناك أي تعبير في عينيه، يخلع الفتى قفازيه ويفرك الصقيع من على وجه صديقه، يحدّق في عينيه ينفخ أنفاسه فيهما، يهمس، يقول شيئًا ما، يدلّك وجنتيه، يصفعهما ويزعق ويهمس ولا يحدث شيء، انصرم حبل تواصلهما، طالب الصقيع بحقّه في باردور. ينظر الفتى من فوق كتفيه إلى الرجال الأربعة الذين يصارعون من أجل حياتهم، يصارعون متّحدين، ثم ينظر إلى باردور الذي يستلقي وحيدًا، لا شيء يمكن أن يمسّه الآن، ما عدا الصقيع. لا شيء حلو في نظري بدونك.

## ٥

إنه لأمر رائع جدًا أن يجد المرء أرضًا صلبة تحت قدميه، ما يعني أنه لم يغرق ويستطيع الحصول على شيء يأكله بعد اثنتي عشرة ساعة في البحر القطبي تحت رحمة العواصف والثلج الغاضب. يأكل عدة شرائح من خبز الجاودار مع كتلة من الزبدة ومعجون كبد الإوز، ويشرب قهوة قاتمة السواد محلاة بالسكر الأسمر. لا يكاد يكون هناك شيء أفضل من ذلك. في لحظة كتلك، والجوع قد بدأ يقضم أحشاءهم، وعضلاتهم ترتعش إعياءً تكون القهوة وخبز الجاودار الجنة بعينها، ثم عندما ينتهون من معالجة صيدهم، يأتي دور السمك المسلوق بمرق الشحم. السعادة هي الحصول على شيء يؤكل، هي الهروب من العاصفة، والاصطدام في الثانية المناسبة والمحدّدة بدقة بالأمواج العارمة المتكسّرة على صخور اليابسة، ليتسنى لهم ركوبها والمرور عبرها. وإن لم يفعلوا ذلك فيمكن أن تقلب المركب أو تغمره، وعندئذٍ، يؤول مصير ستة رجال لا يحسنون السباحة إلى البحر مع مئتي سمكة ميتة، فيتلف الصيد وتميل كفة غرق الرجال إلى الرجحان. إلا أنّ بيتور عبقري، فهو يعرف اللحظة المناسبة، وبفضله ينزلق المركب قدمًا كما ينبغي وتُكتب لهم النجاة.

يقفز جفيندور وإينار خارج المركب، يحطّان في الماء الذي يصل إلى ركبهما،

يهرع غودموندور وأحد رجاله إلى لقائهم. لم يبحروا، قرّر غودموندور عدم الخروج إلى البحر في الدقيقة الأخيرة، في آخر دقيقة على وجه التحديد، كان هناك رجلان من طاقمه يجلسان بمعطفيهما الواقيين في المركب، والآخرون يهمّون بدفعه عندما ألغى الرحلة، فقد لاحظ تلاعب الألوان في الأفق ولم يستسغه. لا يراقب الذين على الشاطئ بسلبية المراكب وهي ترسو، بل يهرعون إلى مدّ يد المساعدة، فهناك قانون فوق القوانين التي يسنّها البشر لأنّ المسألة هنا مسألة حياة وموت، والأكثرية تختار الأولى. تلغي الحياةُ الموتَ أيضًا عندما تكون لدى المرء فكرة عما يمكنه السيطرة عليه، الموت من ناحية أخرى هو عدم اليقين المطلق، وما ينفّر البشر أكثر من عدم اليقين قليل جدًا. هو في الواقع أسوأ من أيّ شيء آخر.

يقف أربعة رجال من طاقم غودمندور عند الرافعة مع جفيندور وآينار ويسحبون المركب إلى اليابسة، ويتولّى الآخرون الدفع، يتلاطم الموج خلفهم وعلى مسافة منه يشتدّ احتدام العاصفة. الجو هنا على اليابسة أفضل إلى حدّ كبير، على الرغم من العزيف المولول في الجبال فوق الأكواخ. اضطرت قوة الريح أندريا إلى الوقوف متباعدة الساقين، واضطرتها أحيانًا إلى الانحناء. القهوة جاهزة في الكوخ وهي تقف هناك تنحني أمام الريح ولا تستوعب ما يعتمل فيها، ترى أنه كان يجب عليها أن تنحدر إلى الأسفل حيث المراكب، تقطع الأمتار الأخيرة، تلتقط سمكتين من الصيد لتسلقهما، ثم تصعد مع الرجال إلى الكوخ حيث يجلسون سعداء وسط رائحة القهوة والخبز القديم المخزّن في صناديقهم، فالسعادة يمكن العثور عليها في الأشياء الصغيرة. تلك أويقات طيبة، الجلوس بين الرجال وسماع رواياتهم عن الرحلة، والشعور كما لو أنّ رائحة المحيط تغمر الطابق العلوي، مع ذلك ها هي تقف هناك، لا تتحرّك. تضيّق عينيها، تحاول حمايتهما من ندف الثلج الهوجاء. ثمة شيء غير سوي. تشعر به. يعاودها الهاجس المشؤوم الذي اعتراها في الصباح عندما وقعت

عيناها على معطف باردور، ويتضخّم داخلها. يبدو كما لو أنها لا تجرؤ على الحركة، كما لو أنّ أدنى حركة تقوم بها تؤكّد أسوأ مخاوفها.

الجسد الحي مدهش. لكن، عندما يتوقّف القلب عن الخفقان، ويكفّ عن ضخّ الدم، ويتوقّف اتّقاد الذكريات والأفكار في قلب الجمجمة، لا يعود الجسد مدهشًا ويتحوّل إلى شيء نفضّل ألا نضطر إلى البحث عن اسم له، نفضّل أن نترك هذا للعلم، وبعد العلم التراب. تضيّق أندريا عينيها، تدير رأسها بعيدًا عن ندف الثلج اللجوجة، ثم تخطر لها أخيرًا فكرة عدّ الرجال. هناك جفيندور وإينار عند الرافعة، بيتور متمسّك بالجؤجؤ، هناك آرني، هناك الفتى، تلاحظ الآن أنّ حركتهم ثقيلة، ليس من الإنهاك ولكن من شيء مختلف كلّ الاختلاف، وهي لا ترى باردور في أي مكان. أين باردور، تقول بتلقائية، تسأل الريح، تسأل الثلج، إلا أنهما لا يجيبان، لا يحتاجان إلى ذلك، فالريح تكتفي بالهبوب، تهب بسرعة وترحل بسرعة، وندف الثلج تنزل من السماء، لهذا هي بيضاء وأشكالها مثل أجنحة الملائكة. لم تحتج السماء أبدًا إلى توضيح أي شيء، هي تتقوّس عاليًا فوقنا، فوق رؤوسنا وفوق حياتنا، ودائما نائية، نحن لا نقترب منها مطلقًا سواء كنا نقف على سطح بيت أو على جبل محاولين الوصول إليها بالكلمات أو بالعربات. تنتفض أندريا، كما لو أنها تهمّ بأن تخطو خطوتها الأولى، ثم التي تليها، كما لو أنها تبدأ في المشي، فالهرولة، لتجري إلى المركب في الأسفل، إلى الرجال الذين انتهوا من جرّه إلى اليابسة. الجو سيّئ جدًا إنما ليس إلى درجة تضطرهم إلى تأمين سلامة المركب أكثر مما فعلوا، ليس بعد، فالعاصفة ما زالت في البحر؛ عنصران طبيعيان يغرقان أي بشري يجازف بمواجهتهما. كان يفترض بهم الآن أن يقصدوا الكوخ، ليعثروا على السعادة في القهوة، والسرور في خبز الجاودار ومعجون كبد الإوز والزبدة، لينعموا ببهجة الاستراحة القصيرة، وكان يفترض بغودومندر أن يتثاقل إلى كوخه بما أنه لا

يحتاج إلى البقاء أكثر مما هو ضروري تحت السماء نفسها التي تظلّل أخاه، تبًّا، ينبغي على الأقلّ أن يتحرّك أحد ما، أيّ أحد غير الريح المتلاحقة وندف الثلج الوافدة من السماء. ينتصب الرجال الذين عند الرافعة وينظرون إلى المركب. والذين دفعوا وجذبوا يقفون بلا حراك، مربكين، أذرعهم متدلية. يقفون على ذلك النحو مدة طويلة، وتشعر أندريا أنه قد مرّت عدّة دقائق عليهم أو ربما عدّة ساعات، لكن وقوفهم لا يكاد يتجاوز الثواني. كثيرة هي الساعات، والساعة نادراً ما تقيس الزمن الذي يمرّ داخلنا، نادراً ما تقيس عمر المرء الفعلي، ولهذا السبب يمكن أن تُقاس عدة أيام ببضع ساعات والعكس صحيح، ويمكن أن يكون حساب عدد سنوات عمر المرء إجراءً غير دقيق، فذاك الذي يموت في سن الأربعين ربما يكون قد عاش في الحقيقة مدة أطول بكثير من ذاك الذي يموت في سن التسعين. بعد بضع ثوان أو ساعات؛ يطرح الفتى نفسه في المركب. يجثم عند المقدمة، ثم ينهض ببطء وبين ذراعيه شيء ضخم، شيء أكبر من سمكة قدّ، بل أكبر من قدّ ملوكي، وذلك لأنّ ما يحمله ليس سمكة ولكن إنسانًا. يزعق الفتى بشيء ما فيفارق الهمود أخيراً الرجال الواقفين. بحركة واحدة يستقرّ آرني في المركب، يتقدّم جفيندور وإينار إلى المرسى، يحملون باردور ويتوجهون نحو الكوخ. بدا تقريبًا كما لو أنّ الأرض تنحني تحت وطأة الثقل مع أنها صلبة بفعل الجليد والصخور وملايين السنين، إلا أنّ الرجل الميت أثقل بكثير من ذاك الحي، والذكريات التي كانت يومًا تضجّ بالحياة تصبح معدنًا ثقيلاً مظلمًا. لا ينبس أيّ منهم ببنت شفة. يقف غودموندور ورجاله بلا حراك وقد نزعوا قبعاتهم الصوفية. تخرج غودرون من الباب، تستطلع ما يجري، ثم تبدو كما لو أنّ شخصًا لكم معدتها بقبضة قوية. تدخل أندريا الكوخ، تندفع إلى الأعلى وتسرع نزولاً وهي تحمل قنينة برينيفين، تزيح كلّ شيء من على طاولة تحضير الطعوم، يدخلون، يمدّدون جثمان باردور على الطاولة وتعوي الجبال فوق

الأكواخ. يستقرّ هناك بعينين محملقتين، يحدّق إلى الأعلى، متجمّدًا من البرد ومع ذلك لا يريد البرينيفين، لا يريد شيئًا على الإطلاق لأنه ما عاد أيّ شيء إلا بالنسبة إلى عدم اليقين. زحف الصقيع إلى قلبه، دخله، وبدخوله تلاشى كلّ ما جعل منه ما هو عليه. الجسد الذي كان قويًا، الذي كان منيعًا ومرنًا وفي ريعان شبابه أصبح باردًا كالثلج ومنطويًا على مشاكل معقدة في الحقيقة. إذ من الضروري الآن حمله إلى داره، هذا إن كان للأموات أو لجثثهم ما يمكن أن يُسمّى دارًا. يغيّر الموت كلّ شيء. الأنانية لم تكن في يوم صفة يمكن أن يربطها أحد بباردور صاحب العينين البُنيّتين المميّزتين، أما الآن فجسده المسجى على طاولة الطعوم يتوقّع أن يتولى الآخرون الاهتمام به، يتوقّع أن يُحمل هنا وهناك، إلى جانب أنه على الأغلب يلوم رفاقه الملاحين السابقين وأندريا لأنهم أحياء.

يأكلون صامتين في الغرفة العلوية. يفعلون ذلك بقلق تقريبًا كما لو أنهم يرتكبون جريمة، وما يأكلونه أقلّ من الكمية التي تتطلّبها بطونهم.

لا يقترب الفتى من صندوق طعامه، لا ينظر إلى القهوة، يجلس على السرير، سريره وسرير باردور، سرير ضيّق أصبح عريضًا بشكل غير مريح، وأطول بكثير من اللازم، يجلس هناك وحيدًا مع معطفه الواقي وكتاب. ولا تلبث أندريا أن تجلس إلى جانبه. تجلس وتحدق فقط. ينهي الأربعة الآخرون خبزهم، ينهون قهوتهم، حتى إينار يحرص على ألا يصدر الكثير من الأصوات وهو يمضغ، ولا يشتكي على الرغم من شدة ألم فكّه بسبب اللكمة. شهية جفيندور إلى التهام خبزه قليلة، يرغم نفسه على ابتلاع نصفه، ويضع ما تبقى منه جانبًا كما لو أنه غير صالح للأكل. يقف بيتور، يقف الثلاثة الآخرون فورًا وينزلون إلى الطابق الأرضي. يختطف إينار شريحة خبز جفيندور وهو في طريقه إلى الأسفل. يتمهّل بيتور، ينظر إلى الفتى وينوي أن يقول شيئًا ما، شيئًا عن باردور، شيئًا جيدًا عن باردور، ثم يسأل الفتى أن ينزل،

يسأله لا يأمره، فهم يحتاجون إلى الاعتناء بصيدهم؛ قطع رؤوس السمك، استخراج أحشائه، فتحه، تسويته، تمليحه، وللفتى مهمته الخاصة في هذا العمل، فهو يقطع الرؤوس ويستخرج الأحشاء، يقطع الأكباد ويضعها في براميل. العمل جيد، العمل يشفي كلّ العلل. إلا أنّ بيتور يُمنع من قول هذا عن العمل، من قول إنه يساعد، وإننا لا شيء بدونه، لأنّ أندريا تحدجه ونظرتها تقول، اتركه وشأنه وانزِل. وهكذا ينزل بيتور ويشعر بكتلة مفاجئة تستقرّ في حلقه. إنني أفقدها، يفكّر، لا، لا يفكّر بل يشعر، يحدس، فبين الناس خيوط خفيّة تربطهم، وهم يشعرون عندما تنقطع. يخرجون ليعملوا على الصيد. صيد كلّ واحد فيهم ما عدا إينار، خيطه ما زال هناك في البحر، صيده من السمك ما زال عالقًا بالخطاطيف على عمق عدة أمتار تحت العاصفة، وذلك السمك لا يتذكّر الحياة على نحو مختلف. إينار حزين، ليس من العدل ألا يحصل على شيء بينما يحصل الآخرون على غنيمتهم من الصيد. غنيمة الجميع ما عداه، حتى باردور الذي ما عاد يحتاج إليه، سمك ميت لرجل ميت. يخرجون، يمرّون بطاولة الطعوم والجسد الذي يخصّ شخصًا عُرف مرة باسم باردور.

بين أولئك الذين يذهبون للقيام بواجبهم، للقيام بعملهم، لضمان قوت يومهم، وبين أولئك الذين يجلسون في الطابق العلوي يتمدّد رجل ميت، جمّده الصقيع حتى الموت. عيناه مفتوحتان ولكنهما فقدتا لونهما، وتنظران إلى لا شيء. الجسد الميت جسد عديم الفائدة، يمكننا أيضًا أن نستغني عنه ونرميه. يشيح الفتى بنظره، الباب القلاب مرفوع، مفتوح على الموت. جحيم هو الرجل الميت. يحرّك يده اليمنى إلى أحد الجانبين، يربّت الكتاب الذي جعل باردور ينسى معطفه. قراءة الشعر محفوفة بالمخاطر. الكتاب طُبع في كوبنهاغن سنة ١٨٢٨، قصيدة ملحمية ترجمها القسّ يون، صاغها، كرّس لها خمس عشرة سنة من حياته، ملحمة ألّفها في إنجلترا شاعر فاقد البصر، أُلّفت للاقتراب من الله أكثر، الله الذي على أيّ حال مثل السماء

وقوس قزح والجوهر، يتفادانا حتى ونحن نسعى إليه.

الفردوس المفقود.

أفي الموت خسارة للفردوس؟

تفكّر أندريا في رائحة جسم باردور. ذلك المزيج اللحوح من الدفء والأريج. تضع يدها خلفها، تحركها بحذر، وتمسّد راحتها الموضع الذي استقرّ عليه رأس باردور في الليل. يبقى الفتى جالسًا بلا حراك كالخدر. مرة كانت هناك امرأة كتبت رسالة عن القمر، مرة كانت هناك بنت صغيرة فخورة بشقيقيها الكبيرين، مرة كان هناك رجل سارره بكلّ شيء، وهو في المقابل سارره بكلّ شيء، الآن كلهم موتى، كلهم ما عدا القمر، وهو ليس إلا كتلة طين في الفضاء، على سطحه تتبعثر صخور صمّاء وبقايا نيازك.

أيمكن أن تكون مشاعر المرأة مستقرّة في مكان أسمى من مكان مشاعر الرجل، وبالتالي أكثر قربًا من جلدها؟ أيمكن أن تكون مشاعر المرأة تجاه الحياة أرهف من مشاعر الرجل لأنها قادرة على إنجاب الحياة، وأكثر منه إحساسًا بالألم الذي يمكن فقط قياسه بالدموع والأسف والحزن؟

تزيح أندريا يدها من على نهاية السرير حيث ارتاح رأس باردور وتضعها على كتف الفتى اليمنى. تفعل هذا بلا تفكير. هذه حركة تأتي من داخل المرء، العطف والحزن يأتيان معًا مجتمعين، وسرعان ما يبكي الفتى. تتدفّق الدموع عندما تصبح الكلمات أحجارًا عديمة الجدوى. يتقوقع كالمحارة نصفه على السرير ونصفه في حضنها، الحضن الذي لن يلبث أن تخضله الدموع. الدموع تخفّف التوتر وهي جيدة إنما ليس بما يكفي. فالدموع لا يمكن أن تُنظَم في خيط ثم تُترك لتغور مثل الحبل المتلألئ في الأعماق المظلمة، لننشل به أولئك الذين ماتوا ولكن كان ينبغي أن يبقوا أحياء.

لا يستغرق الفتى وقتًا طويلاً في جمع الأغراض التي ينوي أخذها معه. تساعده أندريا، تجعله يأكل شيئًا، تحزم له قطعًا من اللحم المملح، القطع الأخيرة التي يفترض أن تعدّ مع الحساء في الأحد القادم. يمكن أن يعيشوا بدونها، تفكّر، ويجتاحها غضب محتدم تجاه أولئك الذين في الخارج، الذين شرعوا يعالجون ما اصطادوه، بل تقريبًا تكره بقاءهم أحياء، أربعتهم. مئزرها ما زال داكنًا من الدموع، لعل البقعة لن تختفي أبدًا، ليتها لا تختفي، تفكّر. تغلّف كتاب الفردوس المفقود بعناية، هذا الكتاب سيؤخذ، تقول، ثم تضع ما يكفي من الخبز الممدود ومعجون كبد الإوز، وحفنة من مكعّبات السكر. قبل أن تفعل ذلك، يفتح الفتى الكتاب ويتشنّج وجهه حالما يرى الرسالة إلى سيغريدور. لا شيء حلوّ في نظري بدونك. كلمات موجهة إليها هي التي تتنفّس وراء الجبال والمروج، وما زالت لا تعلم أنّ احتمالات الحياة تضاءلت بشكل ملحوظ، هي التي تجفل كلما رأت أحدهم يقصد المزرعة، وتأمل أن يكون ساعي بريد محطة الصيد وأنه يحمل رسالة لها، كلمات تنشئ جسرًا بين المسافات، كلمات تخفّف الأسى، أو تضخّمه وتغذّيه. الرسالة التالية لها ستكون كلمات عاطفية ضخمة من رجل ميت. يناول الفتى أندريا الرسالة ويقول احرصي على أن تذهب معه، فتقول أندريا يا للفتاة المسكينة، وهذا ما نقوله نحن أيضًا، لأنّ الصقيع والشِّعر سلباها أغلى شيء لديها.

يصبح الفتى جاهزًا للانطلاق.

طبعًا أنت راحل، كانت أندريا قد قالت، لأنه عجز عن مجرّد التفكير في أن يستلقي وينام في السرير وباردور ليس هناك، أو أن يقتعد لوح التجديف وباردور ليس هناك. رحل باردور، وكلّ ما بقي منه جسد متجمّد. إنها خيانة، كان الفتى قد قال، ولا أستطيع تحمّلها.

تفسيران، وعذران، لكل شيء وجهان في أدنى الأحوال.

يستعجلان لأن بيتور لن يستحسن الأمر، فالرجل لا يهجر طاقمه، وأقلّ ما يُقال عن مثل ذلك التصرّف إنه منافٍ للعقل. دع بيتور لي، تقول أندريا، ارحل، أنت لا تنتمي إلى هذا المكان. وهكذا يذهب الفتى، يذهب إلى المكان الذي قصده هو وباردور في الربيع، إلى البلدة هنا، المركز، محور العالم.

خُذ حذرك وأنت تسلك ذلك المجاز الوعر اللعين، لا ريب في أنّ الأمواج تتكسّر بضراوة عليه الآن، تقول أندريا، ويقول الفتى نعم سأكون حذرًا، لكنه لا يقول إنه ينوي طرق درب مختلف، عبر الوادي الذي يشقّ الجبال، فهو يريد الصعود إلى المروج ثم الهضبة، يريد الابتعاد عن البحر بقدر ما يمكنه. وعلى الرغم من أنّ هذا قد لا يتجاوز ليلة أو ليلتين، تعتبر تلك طريق طويلة وخطرة في مثل هذا الوقت من السنة. إنما ما الأهمية في ذلك ما دام معظمهم قد مات، من يأبه سواء عشت أو متّ، يفكّر الفتى، بيد أنه لا يقول شيئًا، يعد أندريا أن يأخذ حذره من الأمواج المتلاطمة، فأندريا لن تتركه يذهب لو عرفت الطريق التي ينوي أن يسلك. وبعد ذلك؟ تسأله أندريا. أُعيدُ الكتاب لصاحبه، يجيب ببساطة. تربّت وجهه بيديها الاثنتين، تقبّل جبهته، تقبل حاجبيه، لا تنساني يا فتى، تقول. أبدًا يجيب ويتلاشى في الثلج الذي تسوقه الريح.

## ٦

أولئك الذين يسكنون هذا الوادي لا يرون إلا قطعة من السماء. أفقهم الجبال والأحلام.

يعرف الفتى هذا الوادي، ويعرف أنّ كلّ من يتتبع مساره ثم يسلك طريقه على طول سبيل معين بين سفوح الجبال التي تشقّها وديان ضيقة، ويجتاز هضبتين يهبط إلى الوادي الذي دعاه باردور منطقته ودعا إحدى مزارعه داره. لم يتجه الفتى إلى داره، إذ كيف يمكن التوجّه إلى مكان لا وجود له، ولا حتى في رؤوسنا؟ وهو لا يدعو الوادي منطقته، على الرغم من أنه نام واستيقظ هناك معظم حياته، ولا يدعو أي مزرعة داره. بعضنا يحتاج إلى أن يعيش مدة طويلة ليحصل على المكان الذي يطلق سراح هذه الكلمات الكبيرة "في الدار" من قيود اللغة، وكُثر، كُثر جدًا أولئك الذين يموتون من غير أن يعثروا عليه. إنه لا ينوي أبدًا أن يعود إلى المنطقة التي تحتضن أجمل فترة في صباه، المنطقة التي شهدت أحلامًا لم تتحقّق مطلقًا، وأسى على حياة لم يقيّض له أن يعيشها، المنطقة التي تضمّ الأشخاص الذين عاش معهم منذ أن غرق أبوه وأصبح تحت سلطة مقرّه المظلم في البحر، الناس الذين نشأ وسطهم، نام منفصلاً عنهم واستيقظ بينهم. لا، ليسوا أناسًا سيّئين، لا، لكنه بكلّ

بساطة لم يستطع مطلقًا أن يتخلّص من الشعور بأنّ المزرعة والوادي هما أكثر قليلاً من مجرّد مكان يمكن التوقّف فيه لقضاء ليلة. المرء يحتاج إلى موضع يجلس فيه برهة، يتريّث ريثما ينمو الجسم ويصبح العقل ناضجًا بما يكفي ليتعامل مع العالم من تلقاء نفسه. إنّ تلك المنطقة من ناحية أخرى منطقة جميلة، جدّ معشوشبة وغنية، ورحابتها تمتدّ من عدة مزارع فيها وصولاً إلى البحر، بيد أنّ بعض عتبات البيوت هناك لا يتسنّى لها ولا حتى إلقاء نظرة خاطفة عليه، وهذا أمر غير عادي هنا، إذ كيف يمكن أن يعيش المرء من غير أن ترى عيناه البحر أمامهما؟ البحر هو ينبوع الحياة، وفيه يقطن إيقاع الموت. على أيّ حال يتوجّه الفتى بعيدًا عن كلّ هذا، يروم الابتعاد بقدر ما يستطيع، ولو حتى لليلة أو ليلتين، يروم الابتعاد بما يكفي كي لا يعود يستشف البحر.

باردور ميت وهو يشقّ طريقه مجهدًا إلى الوادي.

قرأ باردور قصيدة وتجمّد حتى الموت بسببها.

تحملنا بعض القصائد إلى أماكن لا تبلغها الكلمات، ولا الأفكار، إنها ترقى بك إلى الجوهر نفسه، فتتوقّف الحياة للحظة واحدة وتصبح جميلة، تتضح معالمها بكل ما تحتويه من أسى وسعادة. تغيّر بعض القصائد النهار والليل وحياة المرء. تجعله بعض القصائد ينسى؛ ينسى الكآبة، ينسى اليأس، ينسى معطفه الواقي فيأتي إليه الصقيع، يقول له نِلت منك، ويغدو في عِداد الأموات. ومن يموت ينتقل فورًا إلى الماضي. لا يهمّ كم كان الشخص ذا شأن، ما مدى ما يتميّز به من طيبة وقوة إرادة، وكيف أنّ الحياة كانت مستحيلة بدونه أو بدونها: يقول الموت، نِلتُ منك، فتتلاشى الحياة في ثانية ويصبح الشخص من الماضي. كلّ ما هو مرتبط بذلك الشخص يصبح ذكرى يكافح المرء للاحتفاظ بها، لأنها خيانة منه أن ينسى. أن ينسى كيف رشفَت قهوتها. أن ينسى كيف ضحكت، كيف نظرت. لكنه على

الرغم من كلّ شيء ينسى. تطالبه الحياة بأن يفعل. ينسى ببطء وشيئًا فشيئًا، وهذا يمكن أن يكون مؤلمًا جدًا إلى درجة أنه يجمّد القلب.

يحتاج الخوض في الثلج إلى بذل الجهد.

يمضي الفتى إلى الأمام مباشرة، أو يعتقد أنّ هذا ما يفعله.

يمشي ويمشي ويمشي، الثلج يتساقط كثيفًا ومدوّمًا، مجال الرؤية لا يتجاوز بضعة أمتار، يتوقّف مرّة ليأكل، ثمّ يعاود المشي بينما تبدأ العتمة في الانتشار، يستشفّ بحواسه وعينيه كيف أخذ ضوء النهار يتضاءل بين ندف الثلج، وكيف بدأت الريح تكفهرّ. الشيء المعقول الوحيد الذي يمكن عمله هو العثور على مزرعة وطلب ملاذ، يفكّر، بيد أنه يتابع المشي، غير آبه ولا ذرّة واحدة بما يمليه العقل، ونصف مكترث ما إذا كان سينجو من الليلة أو لا. مع ذلك، لديه ذلك الكتاب الذي يحمله على ظهره، الفردوس المفقود، وعلى المرء أن يعيد الكتب لأصحابها. ولا ريب في أنه السبب الذي من أجله أمرته أندريا أن يأخذ الكتاب، فهي تعرفه، وتعرف ولعه الغريب بالكتب. يشعر الفتى بالدفء يسري فيه فجأة وهو يفكّر في أندريا، بيد أن الدفء يبرد بسرعة لأن باردور تجمّد حتى الموت، تجمّد إلى جانبه تمامًا. ثم إنّ الدنيا مظلمة بسبب المساء وندف الثلج الكثيفة وكتله المتراكمة.

في واقع الأمر لا ينقص مجال الرؤية بشكل ملحوظ في مستهل المساء، لكن الظلام ظلام دائمًا، والمساء مساء دائمًا. يصبح المساء ليلاً يحطّ على العيون، ينخل طريقه عبر القرنية، يغمر العصب البصري؛ ورويدًا رويدًا يُغرق بسواده هذا الفتى الساري بالليل. جلّ ما يريده أن يضطجع، حيث يقف تمامًا، يريح نفسه من عبئه، يستلقي على ظهره وعيناه مفتوحتان، ويعتم العالم من حوله ما خلا ندف الثلج الأقرب إليه، بيضاء ومفصلّة كأجنحة الملائكة. ثم لا يلبث الثلج أن يغطيه، ولا يلبث أن يموت وسط البياض. هذا مغرٍ جدًا، يقول الفتى لنفسه بصوت مسموع

أو غير مسموع، مضى عليه وقت طويل منذ أن كفّ عن التمييز بين الأشياء؛ من يمشي مدة طويلة وبلا رفقة تحت الثلج المستمر في تساقطه ينتابه شيئًا فشيئًا شعور بأنه غادر العالم، بأنه يمشي في أرض محايدة، ويهجره يقينه بالحياة. ثم يتوقّف الثلج عن التساقط. لعلّ هذا يبدو مدهشًا، لكن الثلج يتوقّف دائمًا عن التساقط في النهاية. يجد نفسه واقفًا أمام ما قد يكون مزرعة، يقف متحللاً من كلّ الروابط الإنسانية التي بُترت على يد الليل والعاصفة. مغرٍ جدًا، يقول الفتى لنفسه، أن يضع حدًّا لهذا المشي المنهك، أن يستلقي، وينام، نعم، ثم يموت. حتمًا من الجيد أن يموت، لا مزيد من المشاكل، يقهر الحزن، يقهر الأسى. هذا إلى جانب أنّ المسافة بين الحياة والموت قصيرة جدًا، هي فقط قطعة ملابس واحدة، هي في الواقع مجرّد معطف سميك مقاوم للماء فقط لا غير.

أولاً هناك حياة، ثمّ هناك موت:

أنا أحيا، هي تحيا، هم يحيون، هو يموت.

لكن إن متّ هنا، يتضرّر الكتاب الذي يفترض بي أن أعيده لصاحبه، وبذلك أخيّب أمل بعض الأشخاص، قبطان البحر المسنّ الذي في الحقيقة لا يهمّني لولا الكتاب، وأندريا وباردور. باردور ميت طبعًا ولكن حضوره هنا: الحضور الذي لم يسبق له أن كان أقوى مما هو عليه الآن. نعم، أعيد الكتاب أولاً، ثمّ يصبح في وسعي أن أمضي إلى القفر، ويمكن الثلج أن يغمرني، يفكّر الفتى، مدركًا من ناحية أخرى أنّ عليه اختيار ذلك الموضع بعناية. سهل أن يترك المرء الثلج يغمره، سهل أن يموت، لكن، لا ينبغي أن ننسى قدرة الليل والثلج على الخداع، إذ قد يظن الفتى أنه يضطجع بعيدًا عن المناطق الآهلة بالسكان، في الفلاة، ثم قد يتبيّن بعد ذلك أنه ليس إلا على رأس منحدر يشرف على مزرعة صغيرة. يذوب الثلج بعد أيام أو أسابيع، فيظهر تحته ميتًا، وتجد طفلة أو طفل الجثة صدفة؛ جثة تضرّرت بفعل

عوامل الطبيعة والحشرات، محجرا العينين فيها فارغان، مجرّد فتحتين مظلمتين لأنّ الغربان قد قنصتهما. وهو أو هي لن ينسيا أبدًا ذلك المشهد. الموت هكذا مجازفة، تبًّا، عليّ إذًا أن أتابع التقدّم، يفكّر الفتى خائب الأمل، أو ربما يقول ذلك بصوت مسموع، ويخوض طريقه بجهد، يشقّ الثلج، يستشعر بقدميه ما إذا الأرض تحته ترتفع أو تنخفض، يستدير مبتعدًا عن المنحدر محاولاً بذلك أن يبقى على نحو ما في وسط الوادي. لكن وطأة الليل تثقل، وصعوبة الخوض في الثلج تزداد، إلى أن يغمّ الأمر عليه أخيرًا، فلا يدري أهو يتجه صعودًا أم هبوطًا، إلا أنه ما زال يتجه جنوبًا، هذا يشعر به من الريح التي تسوط ظهره بلا هوادة. في مرحلة ما على أي حال ينبغي أن يتجه شرقًا ليصل إلى المرج فالهضبة. إنّ هذا في الحقيقة صعب جدًا. ويستحسن أن يرتاح قليلاً لأنّ قدميه تئنان من الإنهاك. يتلمّس الفتى الطريق أمامه، يبحث عن صخرة أو حجر كبير بما يكفي ليحتمي به من الريح الشمالية القارسة التي لن تتكبّد العناء في تحويله إلى جليد. يعثر على مبتغاه، يشرع في تكويم الثلج حوله، يواصل العمل على ذلك حتى يصنع ما يشبه حائطًا وسقفًا، طبعًا ذاك أقرب إلى جحر ثلجي منه إلى مأوى، لكنه ما عاد عرضة لسياط الريح والثلج وهو مرهق إرهاقًا شديدًا. ثقل وطأة إرهاقه جدّ فظيع. إنه متغلغل في كلّ خلية من خلاياه، في كلّ فكرة. من المرجح أنه قد مضت أربع وعشرون ساعة منذ أن فتح عينيه، منذ أن استيقظ على صوت بيتور والعالم الذي كان باردور حيًا فيه، ما عدد السنين التي مرّت على ذلك فعلاً، يفكّر بينما الريح تعصف خارج جحره. رأسه متيبّس من شدة البرد، طبقة الجليد التي تغطي كنزته تبدأ في الذوبان، هو غارق بالماء ووجهه مندّى، من الصعب التكهّن ما إذا كان يبكي في نومه أو وهو صاح، ليس هناك في الأحلام ملجأ دائمًا، وفي بعض الأحيان ليس هناك أي ملجأ على الإطلاق. لكن كُن حذرًا يا فتى، لا تنم مدة أطول مما هو ضروري، ولا تنم بعمق، لأن مَن ينام

بعمق في مثل تلك الفجوة الثلجية لا يصحو أبدًا على هذه الحياة. وبعدئذٍ، يأتي الربيع وتمضي بنت صغيرة لتقطف الأزهار من وراء مزرعتها فتعثر عليك بدلاً من ذلك، وأنت لن تكون زهرة آنذاك، لن تكون إلا جثة متعفّنة ومصدرًا للكوابيس.

الجحيم هو ألا نعرف
أنحن أحياء أم أموات

الجحيم هو ألا نعرف أنحن أحياء أم أموات.

أنا أحيا، هي تحيا، هم يحيون، هو يموت.

هوى هذا الاقتران القاسي على رؤوسنا كما يهوي صولجان، لأنّ الحكاية عن الفتى والثلج والأكواخ كادت تنسينا موتنا. نحن لم نعد أحياء: ذاك الذي لا اسم له يقف بيننا وبينكم. المنطقة التي لم يعبرها أحد بأي وسيلة أخرى إلا بخسران الحياة، وليس هناك على الأرجح خسارة أعظم. مع ذلك هناك كما تعلمون قصصًا لا تُحصى عن أموات يعبرون ما لا حدود له ويظهرون بين الأحياء، وفي الوقت نفسه يتضح أنهم لم يجلبوا معهم أي رسائل مهمة أبدًا، ولم يرووا مطلقًا أخبارًا عظيمة عن الحياة الأبدية، ولا كيف يجري ذلك؟

تقول إحدى القصائد، موتك هو الحركة البيضاء الصافية.

لا مناص من الاعتراف أننا خشينا الموت حتى آخر لحظة من الحياة، وانبرينا إلى محاربته طوال ما ملكنا القدرة على التحمّل، إلى أن جاء شيء وأطفأ الأضواء، لكن خشيتنا امتزجت بالفضول، امتزجت بحبّ استطلاع هيّاب ومتردّد، لأننا ظنّنا أنّ جميع تساؤلاتنا ستلقى أجوبة. بيد أننا متنا ولم يحدث شيء. أُطبقت أجفاننا،

ثم ما لبثنا أن فتحنا أعيننا ثانية على المكان نفسه، أبصرنا كلّ شيء لكن لا أحد أبصرنا، كنّا في أجساد وفي الوقت نفسه بلا أجساد، لدينا أصوات وفي الوقت نفسه كنّا بلا أصوات. مرّت أسابيع، أشهر، مرّت سنين، وأولئك الذين بقوا أحياء بعدنا كبروا بمنأى عنا ثم ماتوا، ولا ندري إلى أين راحوا. عشر سنوات، عشرون سنة، ثلاثون سنة، أربعون، خمسون، ستّون، سبعون، إلى متى نحتاج أن نحسب، ما المدى الذي يمكننا بلوغه؟ ها نحن، فوق سطح الأرض، قلقون وفزعون تعتصرنا المرارة، بينما عظامنا على الأرجح مستقرة بسلام تحت سطح الأرض، وأسماؤنا على صلبان فوقها. الضجر يمكن أن يكون عامًّا، بل عالميًا، ولو قدرنا على أن نفعل لفضّلنا أن نجنّ منذ عهد بعيد. الشيء الوحيد الذي يمكننا القيام به، ما عدا متابعتكم ومتابعة الأحياء الآخرين، هو أن نسأل بدأب، لماذا نحن هنا؟ أين ذهب الآخرون؟ ما يمكن أن يخفّف اللسيع؟ وأين الله؟ نسأل ونسأل ولا يبدو أنّ هناك أجوبة. كلّ ما يبدو أنّ الكهنة فقط والسياسيين وأصحاب الإعلانات هم وحدهم يملكون أجوبة جاهزة.

أحيانًا تسود هنا سكينة شاملة بحيث لا يُسمع شيء إلا دقّات قلوبنا، وهذا ببساطة يبعث فينا الأسى. نموت، نغلق أعيننا، ونزول عن كلّ ما هو مهم. ثم نفتح الأعين مرة أخرى والقلب ما زال ينبض، العضو الوحيد الذي يعرف عمله. يعرف هدفه. أتلك هي السماء الزرقاء التي لا نلمسها أبدًا؟ نطوف هنا، وثمة شيء غير مرئي بيننا وبينكم أنتم يا من تحيون، نمر عبر الجدران، الجدران المطوّقة بالحديد وتلك الخشبية، نتسكّع في صالات الاستقبال ونفغر أفواهنا معكم أمام التلفزيون، ننظر من فوق أكتافكم عندما تقرأون صحفكم، عندما تقرأون كتابًا. نقعد ليالي بطولها في باحة الكنيسة وظهورنا تستند على شواهد القبور، سيقاننا مضمومة إلى صدورنا وأذرعنا تعانق ركبنا، مثل باردور عندما شعر بالصقيع يزحف دائيًا من قلبه. من حين لآخر ينفذ إلينا صوت واهن في هدأة الليل، صوت غير معقّد، عزف شبه متقطع،

نخال أنه يأتي من مسافة جدّ بعيدة. هذا هو الإله، نقول عندئذ والأمل يحدونا، إنه الصوت الذي يُسمع عندما يأتي الإله طلبًا لأولئك الذين انتظروا طويلاً ولم يعتريهم الشكّ. هذا ما نقوله والتفاؤل يغمرنا، والفزع لم يسيطر علينا بعد سيطرة كاملة. لكن لا شيء يؤكّد أن ذلك هو الإله، فقد يكون مجرّد شخص كامن في بطن الأرض ومعه صندوق موسيقى صغير، ينبري إلى تحريك مقبضه كلما اعتراه السأم.

الجحيم هو أن تكون ميّتا وتدرك أنك لم تكترث للحياة، والفرصة لأن تفعل بين يديك. أي شخص، بالمناسبة، هو تكوين استثنائي، في حياته وفي مماته أيضًا. عندما يتورّط في المشاكل، يُبتر وجوده إلى نصفين، فيبدأ تلقائيًا في مراجعة حياته، ينشد ذكرياته مثل حيوان صغير ينشد الملاذ في جحره. وهذا هو الحال معنا. إنه نوع من الفرج أن نتابعكم على امتداد حياتكم، راحة تتحوّل إلى مرارة عندما لا تحسنون التعامل مع حياتكم، تفعلون شيئًا قد يعرّضكم إلى عذاب أبدي، بيد أنّ ما نحاول الوصول إليه أولاً وأخيرًا هو ذكرياتنا نحن، فهي الخيط الذي يربطنا بالحياة. ذكريات أيام عشناها حقًا، عندما أثلجت الدنيا وأمطرت على حياتنا، وكانت الساعات دافئة بالشمس، ومظلمة بالليل.

إنما لماذا نروي لكم هذه الحكايات؟

أي قوة مروّعة غير اليأس تقذفنا إلى ما قبل ما لا اسم له كي نروي لكم قصصًا عن الحياة المُطفأة؟

كلماتنا فريق إنقاذ مرتبك معه خرائط ملغاة وأهازيج طيور بدلاً من البوصلات. مرتبك وتائه إلى أبعد الحدود، وعلى الرغم من ذلك مهمته إنقاذ العالم، إنقاذ الأرواح المُطفأة، إنقاذكم وبعد ذلك إنقاذنا نحن أيضًا كما نأمل. لكن حريّ بنا أن نضع الآن جانبًا أي تأمّلات أخرى وأسئلة ثقيلة، ونعود مرة أخرى إلى الليل والعاصفة، نعثر على الفتى ونحاول إنقاذه في الوقت المناسب من النوم والموت.

# الفتى والبلدة والثالوث الدنيوي

# ١

لم ينم الفتى في الفجوة الثلجية. مع ذلك، عرض عليه النوم أن يضمّه بين ذراعيه البضّتين، ليخفف عنه إعياءه الذي بلغ ثقله ما بلغه إلى درجة أنه جعل وزن جفنيه يبلغ على الأقل نصف كيلوغرام، كان النوم في الحقيقة عرضًا مغريًا لا يستطيع أن يرفضه، لكنه انتزع نفسه بعيدًا عن تلك الإغاثة، حاول البقاء صاحيًا بالتفكير في باردور، لأنّ الحزن لطالما حرم العديد من النوم. فكّر أيضًا في أندريا التي سمحت له بالانطلاق في هذه العاصفة الثلجية أو بالأحرى الانطلاق إليها. إذا نام هنا في هذه الفتحة، إذا استسلم لنداء النوم المريح فلن يصحو ثانية، ليس في هذه الحياة على الأقلّ.

كان الوعي إذًا هو ما حال بين الفتى وبين النوم والموت. كان يحتاج إلى أن يعيد الكتاب لأنه لم يشأ أن يخذل أندريا، لم يشأ أن يخذل باردور، ولا ذاكرته، ولا أمه وأخته الصغيرة التي لم يتح لها أن تكبر أبدًا وماتت قبل أن يبهت بريق إعجابها البريء بأخويها وراء الجبل، أن ينام هنا يعني أن يخذلهم كلهم، وهكذا اقتلع نفسه من الفتحة الثلجية.

ينهض بسرعة ويعود مرة أخرى إلى الثلج الكثيف المتساقط، إلى الليل والعالم الذي جمّده الصقيع.

يشهق مستدرّاً النفَس بسبب العاصفة وينطلق.

يمضي صعودًا خارج الوادي إلى المرج والهضبة موغلاً إلى حيث تصبح الأرض قاحلة وشبه مستوية: فالجليد قد ملّس قمة الجبل منذ آماد. يمضي الفتى والليل يحيط به والريح القطبية تهبّ من وراء ظهره تقريبًا، متغلغلة في الثلج المتساقط، متغلغلة في الندف البيضاء. لم يسبق للفتى من قبل أن بلغ مثل هذا الارتفاع، لم يسبق له أن اقترب إلى هذه الدرجة من السماء، وفي الوقت نفسه لم يسبق له أن كان بعيدًا عنها كلّ هذا البعد. تقدّم، وحيدًا مهجوراً من الجميع إلا من الله، لكنه لم يجد الله هناك. البرد قارس. رأسه متجمّد ودماغه انقلب إلى سهل أجرد فسيح، وعلى مدى النظر لا شيء سوى أرض صلدة مكسوّة بجليد أبيض، بلا أي حياة تدبّ على سطحها، إنما تحتها تكمن حِمار واهنة، ذكريات ووجوه وجُمل، و... لا شيء حلو في نظري بدونك. هذه الحِمار من المحتمل أن تذيب كسوة الصقيع، تستدعي الطيور، توقظ عبير الأزهار. لكن هنا على الهضبة لا شيء الآن يفوح بالعبير. لا شيء سوى الصقيع والليل. صقيع وليل بينما يتابع السير، ويمضي الوقت ويأتي الصباح. والصباح أيضًا يمضي. يكفّ عن مكابدة الأفكار، وتواصل قدماه المشي كأنهما آلة، هذا جيد جدًا، مع ذلك عليه التزام الحذر لأنّ لكلّ شيء نهاية، بما في ذلك الهضاب التي قد تنتهي فجأة في بعض المواضع، تتوقّف عن أن تكون بكلّ بساطة، ومع توقّفها يبدأ السقوط المدوّخ.

مدهش في الحقيقة أنه لم يتجاوز الحافة ليلاقي حتفه، وهو على ما هو عليه من لا مبالاة، والصقيع قد أنهكه وأعياه والحزن خدّره. لعله استشفّ تحوّلاً طفيفًا في الهواء؛ ذاك الشعور الذي يشعر به بعض الناس عندما تنتهي الأرض وتبدأ السماء. يتأنّى، يمشي بحذر، يتلمّس طريقه، يمرّ وقت طويل، ثم أخيرًا يعثر على

منحدر سالك. ليس الدرب الأفضل بالتأكيد، إذ لا يلبث أن يكشط جلده بالصخور، يقع، يؤذي نفسه، لكنه حيّ ونادراً ما يطلب المرء أكثر من ذلك. يصل إلى قاع الوادي، وادي تانجودالور. المكان الذي نقصده في الصيف عندما تكون الشمس دافئة في السماء والعشب أخضر وأشياء كالأزهار تنتشر. بل حتى نقصده بمجموعات كبيرة ومعنا زوّادة الرحلة والابتسامات والسعادة، ندعوها نزهة في الغابة بما أنّ تانجودالور يضمّ حفنة من الأشجار الممتدّة على مسافة مقبولة، تجمّعات من أشجار البتولا المائلة التي تحمل فروعها الأمتن الطيور ولكن ليس الناس. يتّكئ الفتى للحظة على شجرة مخلّفًا الهضبة وراءه، متجاوزاً النهار والليل، والنوم والموت. يقطع الوادي ويمضي نحونا، نحو البلدة في أول يوم من شهر نيسان.

الكلمات متفاوتة.

بعضها ساطع، وبعضها معتم؛ كلمة نيسان على سبيل المثال كلمة ساطعة، ففي هذا الشهر يطول النهار، ويأتي سطوعها مثل طعنة رمح في قلب الظلمة. نستيقظ في صباح ما ونجد أنّ طير الزقزاق قد جاء وأنّ الشمس ازدادت دنوًا منّا، ومن تحت الثلج ينتأ العشب ويبدأ في الاخضرار، تنطلق قوارب الصيد بعد أن تكون قد غفت على امتداد الشتاء الطويل وحلمت بالبحر. كلمة نيسان تتكوّن من الضوء وتغريد الطيور والأمل المتلهّف. نيسان هو أكثر الشهور تفاؤلاً.

رباه! يا للمسافة إلى الخضرة كم تبدو جدّ نائية بينما يجرجر الفتى ساقيه عابراً وادي تانجودالور وقد انتهت زوّادته منذ مدة. يتقدّم ورأسه مجرّد سهل أجرد شاسع، متيبّس الأطراف وعلى ظهره عبء ثقيل جدًا، كتاب أودى بحياة أعزّ أصدقائه، لا بل صديقه الوحيد. لم تمض إلا فترة قصيرة منذ أن غادرا معًا البلدة، ومشيا جنبًا إلى جنب. يئن الفتى قليلاً وهو يتقدّم على الرغم من أنه لا يكاد يملك طاقة ليئن.

يُقبل العصر وتحبس السماء الثلج. يتابع الفتى سيره على طول الشاطئ حيثما يكون هذا ممكنًا، أو على الأرض المعشوشبة الممتدّة بين الجبال والشاطئ، أرض بعرض عدّة عشرات من الأمتار في أقصى حدّ. يتريّث برهة عند نهر صغير ويلاحظ الأنبوب الحديدي الذي ركّبه هناك فريدريك؛ وكيل متجر تريجفي؛ أكبر متجر في البلدة. أنبوب طويل وقاعدة ضخمة نصف مطمورة في الأرض تحت إحدى نهايات الأنبوب، يجري الماء هناك نظيفًا وصافيًا ولا يتجمّد أبدا. يجدّف رجال فريدريك يوميًا عبر البحيرة لجلب الماء للمتجر وللقوارب عندما تجهز للرحيل. لا تفتقر البلدة إلى الآبار طبعًا، بيد أنّ مياهها ليست صالحة كثيراً، فهي ممتزجة بماء البحر وأحيانا بالأقذار، بعض الناس يظنون أنه من الممتع رمي القمامة في الآبار، بل حتى التبوّل فيها. الغرابة التي يتسم بها بعض الناس تكاد توحي بأنّ الشيطان قد عضّ مؤخراتهم. يعبّ الفتى الماء المغرق في البرودة. يجتلي البحيرة والبيوت التجارية الدانمركية القديمة عند رأسها؛ أقدم مباني البلدة التي تعود إلى أوائل القرن الثامن عشر. مخزنان يستعملهما متجر تريجفي الآن للغرض نفسه، ودار الوكيل التجاري التي اتخذها رئيس المساعدين في المتجر في السنوات الأخيرة سكنًا. ذلك المنزل مسكون بالأشباح؛ والشخصان الوحيدان اللذان بقيا فيه لأكثر من سنة هما المساعد وزوجته، وثمة من يقول إنهما بقيا لأنهما يفتقران إلى الخيال الذي يؤهّلهما لأن يلاحظا وجود الأشباح. يضيّق الفتى عينيه ليرى الأبنية على نحو أفضل، تبدو داكنة، وهذا يعود على الأغلب إلى الجسيمات المتغلغلة في الهواء التي تحول دون تمييز التفاصيل الدقيقة بسهولة، حتى وإن كانت الدنيا مضيئة بما يكفي. يتابع المشي. نفعه الماء، زوّده بالطاقة ليحرّك قدميه، ثم إنه من الجيد ألا يضطر إلى خوض الثلج. الشاطئ لطيف وعبوره يسير لخلوّه من الصخور الكبيرة والأرض غير المستوية

كما هو الحال في محيط محطة الصيد حيث يقع الشاطئ هناك تحت سطوة عنف البحر. لا يلبث أن يستعيد في ذهنه ما جرى قبل أربع وعشرين ساعة فقط، كيف أنهما جلسا معًا على السرير يقرآن ريثما يأتي آربي. يبلغ به التأثر درجة كبيرة فيرتقي سفح جبل، يجلس بين صخرتين كبيرتين ويحّدق بعيدًا بعينين فارغتين بينما يثقل جو العصر ويتحوّل إلى مساء يحيط به.

ما الداعي إلى الاستمرار؟

وماذا يفعل هنا؟

أما كان يجدر به البقاء في محطة الصيد ليبقي عينه على الجسد الميت، ثم يعمل على أخذه إلى داره، لأيّ شيء هم الأصدقاء، وألا ينبغي أن تتغلّب الصداقة على القبر والموت؟ يتنهّد وفيه يعتمل الشعور بأنه قد ارتكب خيانة بحقّ كلّ شيء. يجلس هناك زمنًا ويبدأ الثلج في التساقط من جديد. أتراها تثلج فوق الوادي الذي يضمّ أناسًا كثيرين يفكّرون في باردور، أو أهناك قمر في السماء، يشقّ الغيوم مستدعيًا حبيبة باردور لتخرج وتملي عينيها منه؟ درج باردور على الخروج في الثامنة مساء ليحدّق إلى القمر وفي الوقت نفسه تقف حبيبته خارج البيت الريفي وتحدّق هي أيضًا إلى القمر، كانت هناك جبال ومسافات تفصل بينهما ومع ذلك لطالما تلاقت أعينهما على القمر، تمامًا كما تتلاقى عيون الأحبة منذ بداية الزمان، ولهذا السبب وُضِع القمر في السماء.

يعاود الفتى المشي من جديد. يسلك طريقه على طول الشاطئ إلى أن تطالعه الكنيسة، حيث عليه أن يستدير ويخوض في الثلج ثانية. يتّكئ للحظة على حائط باحة الكنيسة ويتأمّل الثلج الذي يحجب البلدة، تلتقط عيناه لمحة من البيوت المجاورة للكنيسة، ومن نافذة أو اثنتين ينبعث ضوء خافت، إذ لا ريب في أنّ

الكثير من الناس قد أووا إلى الفراش، بيد أنّ نومهم ليس بعمق نوم أولئك الذين يرقدون خلفه في الباحة. ما زال قادراً على تمييز الدرب الذي يتتبّعه الكاهن؛ القسّ ثورفالد، نزولاً من الكنيسة إلى شارعه. يتتبّع الفتى ذلك الدرب، هذا يجعل التقدّم أسهل إنما ليس إلى مسافة طويلة. الطريق الذي يقع فيه المقهى محجوب بالثلج، ودرب ثورفالد يتضاءل هناك ويختفي. يقف الفتى في وسط السبيل، يتساقط الثلج عليه، قدمه اليسرى تزن مئة كيلوغرام، قدمه اليمنى تزن ثلاثمئة، وهناك ثلج كثير بينه وبين المقهى. يمكنه أن يقف هناك في المكان نفسه إلى الصباح على أمل أن يأتي لولي وأودور ليشقّا ممرّاً بمجرفيهما، لكنه لا يفعل هذا، لا يعرف حتى أنّ هناك مَن يُدعيان لولي وأودور، ولا أنهما يعملان شتاءً في جرف الثلج من الشوارع، محظوظان جدًّا جدًّا لتأمينهما هذا العمل من أيلول إلى نيسان، كلاب لعينة، لماذا يحالف الحظّ أفرادًا دون غيرهم؟ هناك ثمانية بيوت في الشارع، وجميعها فخمة. يتلمّس الفتى طريقه عبر أكوام الثلج ويقترب من البيوت ومقهى غيرترود. الحياة التي اختبرها حتى الآن أصبحت من الماضي، وأمامه حيرة مطلقة. المؤكّد فقط هو أنه ينوي إعادة الكتاب، ناقلاً معه خبر موت باردور، ومعلنًا أنّ الشيء الوحيد المهم قد ولّى إلى غير رجعة. وبعد ذلك ما الداعي لأن يواصل حياته. لماذا؟ يغمغم سائلاً ندف الثلج التي لا تجيبه، فهي بيضاء وتسقط بصمت على الأرض فقط لا غير. أدخلُ وأعيدُ الكتاب، شكرًا على إقراضه لباردور، هذه نصوص بديعة، لا شيء حلو في نظري بدونك، نصوص أودت بحياة أعزّ صديق لي، الشيء الوحيد الجيد الذي استطعت العثور عليه في هذه الحياة الملعونة، عمومًا، شكرًا على إقراض الكتاب. بعدئذٍ، يقول وداعًا، لا، دعكَ من هذا. يكتفي بالاستدارة ويمضي خارجًا، يجاهد ليصل إلى الفندق؛ فندق نهاية العالم، يستأجر غرفة تحت الأرض، يدفع أجرتها

لاحقًا، أو بالأحرى لا يدفع أبدا لأنه غدًا أو غدًا مساء ينوي أن يقتل نفسه. تأتيه الفكرة فجأة، يظهر له الحلّ بهذه البساطة. يقتل نفسه وبذلك يخلّف الحيرة كلّها وراءه. فكّر أن يشكر الله، لكن شيئًا منعه. كان باردور قد أخبره عن صخرة الانتحار: نعم، يذهب إلى هناك، والسقوط منها أسلس وأخفّ من الهواء، والبحر كفيل بالاهتمام بباقي التفاصيل، البحر يعرف كيف يغرق الناس، مدرّب على ذلك تدريبًا ممتازًا. يودّ الفتى لو يذهب حالاً لو أنه ليس منهكًا من شدة التعب ويتضوّر جوعًا، ثم إنّ عليه أن يعيد الكتاب. يخوض الأمتار الأخيرة من الثلج، ببطء وبصعوبة بالغة.

لا أحد في الخارج يجول في البلدة بأكملها ما عدا هذا الفتى المتعب والجائع أكثر من أن يموت.

# ٢

ما عدد السنوات التي يمكن اختصارها في يوم واحد، في نهار وليلة فقط؟ مَن يفتح باب مقهى غيرترود الخارجي، بعد ثمان وأربعين ساعة تقريبًا على مروره عبر الباب نفسه للمرة الأولى مع صديقه باردور، ليس فتى في التاسعة عشرة من العمر، بل رجلاً في خريف العمر. افتقاده المرير لصديقه اضطره إلى أن يريح جبهته فترة طويلة على حائط المدخل الداخلي، أو مهما يمكن أن نسمي هذه الفسحة الضيّقة حيث يضع ينز ساعي البريد أكياسه وصندوقه عادةً، إلى أن يأتي الدكتور سيغورد ليأخذها أو يرسل شخصًا ليجلبها له، بينما يقبع ينز في المقهى ويتناسى مصاعب الحياة بشرب الجعة. يحّدق الفتى إلى الحائط لوقت طويل بعينين شاخصتين، ثم يتطلّع إلى الأسفل حيث تصطفّ مجموعات من أحذية مصنوعة من جلد ذئب البحر. إذ يُتوقّع من روّاد المقهى أن ينزعوا جزمهم هنا إذا كانت ملوّثة بالطين والأقذار، ثم ينتعلوا هذه الأحذية بدلاً منها. يرى عديد من الناس أنّ هذا تكلّف غير ضروري، أمر مبالغ فيه جدًا في الحقيقة، وبعض الناس يرفضون بعناد ثم يضطرون إلى الاستسلام إذا رغبوا في تلقّي خدمة المقهى، ومن ذاك الذي لا يخلع حذاءه ما دام هناك أمل في الحصول على قنينة جعة؟ لن أخلع أي شيء، يقول الفتى بهدوء

لنفسه، لكنه يعرف أنّ عليه أيضًا ولوج باب آخر ليصبح في الداخل، فالباب الثاني هو الباب الذي يفتح على المقهى، وذلك للتأكّد من أنّ الصقيع لا يتسلّل مع الضيوف بدون عراقيل. إنّ الحياة هنا نضال متواصل لإبقاء البرد بعيدًا عنّا. ثلاثون سنة، يهمس الفتى، مضت ثلاثون سنة منذ أن كنت هنا مع باردور. يتأمّل الباب، هذا ما يبدو عليه الباب إذاً، وهذا ما يبدو عليه مقبض الباب، رائع، يفكّر، ثم فجأة يغدو كلّ شيء أمامه ضبابيًا، تنفر الدموع من زاويتي عينيه وتعكّر بصره. لا يسترسل الفتى في البكاء، يذرف عدّة قطرات من الدموع فقط، عدة قوارب صغيرة تبحر على وجنتيه جدّ مشحونة بالحزن.

يأخذ الفتى نفسًا عميقًا، يفتح الباب، ويجفل من جلجلة الجرس فوقه.

يلمح في الحال ثلاثة رجال في أبعد زاوية عنه، طبعًا يلمحهم، إذ لا أحد غيرهم هنا، هؤلاء الرجال فقط، وثماني إلى عشر طاولات شاغرة. يرفع الرجال رؤوسهم، ينظرون كلّهم إليه، وفجأة يحدث ما يعتبره يفوق طاقته على الاحتمال، ويجعله يحتقر نفسه بسببه، يكتسحه الحياء الذي يكنس منه الحزن والأسى، يحرمه من التفكير، فيصبح لا شيء إلا كتلة ارتباك وحيرة، ولا يملك أدنى فكرة عما يجدر به أن يفعل. الخاطرة الوحيدة التي تعتمل في ذهنه هي أن يجلس. وهذا ما يفعله. يجلس إلى أبعد طاولة ممكنة عن الرجال الثلاثة، يوليهم جانبه، ويجلس مستقيمًا وأبيض من الثلج. الضوء خافت في الداخل، على الحائط يلمع مصباحا بارافين، وعلى طاولة الرجال الثلاثة شمعة. من السقف في وسط الحجرة تتدلّى ثريا ضخمة. كانت قد استولت على انتباهه وجعلته يتسمّر في أرضه في زيارته السابقة، أما الآن فهو بكلّ بساطة يحدق إلى لا شيء بينما بدأ الثلج يذوب عنه. ينظر خارج النافذة، كما لو أنه قد مشى ستًّا وثلاثين ساعة في العاصفة والظلام من أجل هدف واحد، من أجل أن يجلس هنا وينظر خارج النافذة. هذا يكفي لأن يبقيه مشغولاً

على امتداد عدّة ساعات تالية، فهناك ست نوافذ في المقهى، وكلها تعكس الضوء بشكل خافت كأنها مرايا معتمة. ما يميّزه الفتى من العالم الخارجي الذي يكتنفه المساء قليل، أما أكثر ما يستشفه فهو الأبله الجالس هناك وحده إلى الطاولة والثلج يذوب عنه. أنا مجرّد مخلوق ضئيل أذوب مع الثلج بالتأكيد، أتحوّل إلى بركة لن تلبث أن تجفّ، أستحيل إلى بقعة داكنة سرعان ما تختفي. ينظر إلى انعكاس صورته في النافذة بنفور، يعاقب نفسه بمواصلة النظر، إلا أنه أخيراً يحوّل عينيه نحو سطح الطاولة، هكذا إذًا يبدو سطح الطاولة، المرء يستطيع بسهولة أن يُمضي الوقت في تأمّل سطح الطاولة، ولكن إذا حوّل نظره عنها يلمح الرجال الثلاثة، يميّز كولبين وعينيه المُطفأتين، حادّ المزاج مثل ذئب بحر كما قال باردور مكشّراً، ومع ذلك أحبّه كثيراً. أما الفتى فرأى أنه من المستبعد أن يحبّ كولبين في يوم. هو أولاً خبيث لعين، وثانيًا كلب قذر، وثالثًا أكون غدًا في عِداد الأموات. إلا أنّ الرجل يمتلك كتبًا كثيرة، كتبًا حقيقية في الواقع؛ كتب شعر وكتبًا تعليمية، لا مجرّد كتب محشوّة بالقوافي والأغاني الشعبية ولا كتب توراة وتراتيل ومواعظ. كيف يتأتى لرجل كريه أن يملك عددًا كبيراً من الكتب، يُفترض بالكتب أن تجعل الناس أخياراً، يفكّر الفتى. إنه ساذج جدًا.

بدأ الرجال يتبادلون الحديث، هم يسخرون منه حتمًا. بيد أنّه لسوء الحظّ لا يفهم كلمة مما يقولون، هي في الحقيقة ضوضاء مبهمة تأتي من ناحيتهم. في البداية يصغي لما يقولونه بدهشة، ثم يدرك أخيراً أنّ هذه لا بدّ أن تكون لغة سمك القدّ، لهجة غريبة جدًا لم يسبق له أن سمعها من قبل. يرفع رأسه قليلاً ويتفحّصهم، وهذا أراحه من حدجهم بطرف عينه كما لو أنه يتعرّض للخنق. تبيّن له أنه لم ير الاثنين الآخرين من قبل. رجلان ضخمان، ولا ريب في أنهما من صيادي السمك التابعين لإحدى السفن، يفكّر، وإلا لكانا الآن في محطّة صيد، أتمنى أن يأخذهما الشيطان

الليلة ويحشر قضبانًا مُحماة بالنار في مؤخرتيهما. منعشٌ التفكير على هذا النحو، منعشٌ أن يكون المرء سيّئًا، فالمرء لا يعتريه الخجل عندما يكون سيّئًا، ويكفّ عن أن يكون مجرّد بائس يذوب مع الثلج. يجلس ويحدّق ببساطة إلى لا شيء غير آبه بأحد ولا بأيّ شيء. يتساءل ما إذا كانت لهجتهم العامية تدعى القدّية؟ ثم يلاحظ أنّ الثلج يذوب عنه بسرعة، وأنّ ثمة بركة كبيرة تشكلت على الأرضية. تبًّا. كان يتوجب عليّ أن أنفض نفسي عند الباب. يا لعنة الجحيم. هذه الـ هيلغا لا تطيق الناس الذين يأتون ويجلبون معهم الأقذار والماء. لن أرغب في العبث معها! كان باردور قد قال، عليّ اللعنة إن لم أكن أحيانًا نصف خائف منها.

إذا كان باردور يخشى هذه المرأة، الأحرى بي إذًا أن أذعر، يفكّر الفتى الغارق في مقعده الرطب.

يضحك الرجال بطريقتهم القدّية. هم يهزأون منه طبعًا. لا ريب في أنه من المفيد لصيادي السمك أن يفهموا اللغة القدّية، فهي تكفيهم لأن يغطسوا رؤوسهم في البحر ويصيحوا بكلام ما فتكتظّ قواربهم بصيد وفير. ماذا يُدعى الموت باللغة القدّية؟ يحتمل أن يكون اسمه "أومانيو"، "أومانيو" مفخّمة. تتأذّى عيناه من التحديق جانبًا وبثبات. لعلّ الاثنين الآخرين من رفاق كولبين القدامى في الملاحة، وبدأت تظهر عليهما علامات التقدّم في السنّ مثله. أحدهما عريض الكتفين، أصلع، وحاجباه كثيفان جدًا. الآخر لديه شعر أشيب قصير وأنف أفطس بالغ الضخامة بحيث يمكن أن تحتويه راحة رجل متوسطة الحجم. لحيتا الاثنين مكتملتا النمو، غير مشذبتين، تصلان إلى صدريهما وتجعلانهما يبدوان أكثر ضخامة. ربما يجب عليّ أن أطلق لحية، يفكّر الفتى، قد يستغرق مني الأمر شهرًا لأغطي وجنتي، ثم يتذكّر أنه قد قرّر إنهاء حياته غدًا، فيتخلّى عن فكرة اللحية نهائيًا. فجأة يشعر بنفسه يقف. يحدث ذلك من غير أن يميّز ما يفعله. يقف بين الطاولات مشوّش

الذهن. يتوقّف الرجال عن الحديث وينظرون إليه، طبعًا ما عدا كولبين، الرجل الأعمى، إذ يرفع ذقنه وينصب أذنه اليسرى تجاه الفتى كما لو أنها عين غير مكتملة النمو. قناني جعة كارلسبيرج أمامهم على الطاولة وإحداها ما زالت ممتلئة تقريبًا. يتقدّم الفتى ثلاث خطوات، يمدّ يده إلى القنينة، يفرغ ما فيها في جوفه، ثم يلمح هيلغا التي تقف إلى جانب منصة البيع تحدجه. تبًّا، أصبح شخصًا مهمًا فجأة. يستدير الفتى، يفتح حقيبته، يخرج منها الكتاب، ينتزعه من اللفافة التي تغلفه ويرفعه عاليًا، يتمسّك به كما لو أنه بيان رسمي أو رمز، ويقول لكولبين، طلب مني باردور أن أنقل لك امتنانه على إقراضه الكتاب.

لا يظهر ذئب البحر المسنّ أي ردّ فعل، ليس أكثر مما فعل الثلاثة الآخرون. يكتفون بمراقبته ويبدو عليهم أنهم ينتظرون منه أن يقول شيئًا آخر.

لكن هناك ما هو أشبه بحجاب لعين يجلل رأس الفتى ويجعله غير واثق مطلقًا ما إذا كان يفكّر أو يتكلّم. ولعلّه لم يقل كلمة واحدة الآن، بل فقط حمل الكتاب فوق رأسه وبقي صامتًا. لذلك، يتنحنح بشدّة، يأخذ نفسًا عميقًا ويستجمع كلّ ما لديه من عزيمة ليسلّم هذه الرسالة:

*طلب مني باردور أن أحمل إليك امتنانه*
*على إقراضه الكتاب. كان يرغب حقًا أن*
*يتعمّق أكثر في قراءته ويحفظ مزيدًا من*
*الأبيات عن ظهر قلب، إلا أنه لسوء*
*الحظ ما عاد قادرًا على فعل هذا الآن،*
*بمعنى آخر، نسي معطفه الواقي وتجمّد*
*حتى الموت، جثمانه مسجى على طاولة*

*الطعوم، وهناك ما زال يرقد حيث رأيته*
*آخر مرة.*
*شكرا جزيلا.*

ينهي خطابه باقتضاب غير متوقّع، يضع الكتاب بعناية على الطاولة المجاورة للرجال الثلاثة، ينحني ليسترجع قفازيه، يدفع يديه فيهما، على ماذا شكرتهم، يفكّر، أنا دائماً ذلك الأحمق اللعين نفسه، يقذف حقيبته على كتفه ويمضي إلى الباب، ولكن لا يمضي أبعد من ذلك. يشعر بوزن ثقيل يحطّ على كتفه اليسرى، لعلّه يد ما، لعلّها السماء، ينهار، تخذله قدماه، يحدث ذلك بهذه البساطة، تكفّان عن الوقوف تحته، فيخرّ على الأرض ويتكوّم هناك. يأتي جابي اللاوعي ويطالب به.

# ٣

يعيش هنا في البلدة حوالي ثمانمئة شخص.

هناك الكثير مما يتناسب مع ثمانمئة روح.

عوالم عديدة. أحلام عديدة. حشد من الأحداث؛ بطولة وجبن، خيانة وولاء، أوقات طيّبة وأخرى سيّئة.

يعيش بعض الأشخاص بأسلوب معيّن يمكن ملاحظته، ووجودهم يطلق حركة في الأثير، غيرهم يتمسّكون بالحياة لسنوات طويلة، ربما لثمانين سنة ولكنهم لا يلامسون شيئًا أبدًا، يمرّ الزمن عبرهم ثم لا يلبثوا أن يموتوا ويدفنوا ويطويهم النسيان. يعيشون حتى الثمانين ومع ذلك ليسوا أحياء. بل يمكن أن يشير المرء هنا إلى الخيانة؛ خيانة الحياة، لأن هناك مُن يولدون ويموتون قبل أن يتسنّى لهم أن ينطقوا كلمتهم الأولى، يصابون بألم في الأحشاء، أو بنزلة برد، ويضطر النجار يون أن يصنع تابوتًا صغيراً، أن يفصّل صندوقًا صغيراً لتُرحّل به حياة لم تستمرّ إلا عدة ليال مؤرقة. تُرحّل به عيون لا تقاوَم ذات دموع منمنمة تشبه المعجزة، قامت بزيارة قصيرة للحياة كأنها قطرات ندى. وعندما نصحو نكتشف أنها قد رحلت. ولا نملك إزاء

كلّ هذا إلا الأمل العميق المضطرم داخلنا، حيث ينبض القلب وتسكن الأحلام، بأن لا تهدر أيّ حياة، ولا تمضي بدون هدف.

*

ليس في الأعداد أيّ مجال للخيال ولذلك لا يمكن أن يوليها المرء الكثير من الاهتمام. وفقًا للخرائط تشمخ الجبال هنا نحو السماء، وهذا صحيح قطعًا، في بعض الأيام تكون كذلك، لكن في صباح ما عندما نستيقظ وننظر، نرى أنّ الجبال قد ازدادت ارتفاعًا وأنها على الأقل تبلغ ثلاثة آلاف متر وأنها تخدش وجه السماء فتنكمش قلوبنا. في أيام كتلك يصعب علينا الانحناء لنملّح السمك على رقع التجفيف. فالجبال آنذاك لا تعود جزءًا من الطبيعة بل تصبح هي الطبيعة.

ينبسط اللسان الرملي الذي تقوم عليه بلدتنا مثل ذراع تلتفّ متداخلة في الزقاق البحري الضامر، وتمتدّ تقريبًا عبره. البحر ضمن ذراع اللسان الرملي محمي وسريع التجمّد، يتحوّل بسهولة إلى جليد أملس، وعندما يحدث ذلك، نصفّر للقمر وننفر من بيوتنا ومعنا مزالج الجليد. غالبًا ما يعمّ الهدوء هنا لأنّ هذه الجبال تصدّ الرياح، إنما لا ينبغي أن يظنّ المرء أنّ هناك هدوءًا أبديًّا في بلدتنا، وأنّ الريش المتساقط من أجنحة الملائكة يطوف هابطًا إلينا، طبعًا هذا يحدث أحيانًا لكن لا داعي لأن يطمئن أحد كثيرًا، فالعاصفة يمكن أن تهبّ! لأنّ الجبال تعمّق الهدوء، وكذلك تضخّم الرياح التي قد تندفع بجنون نحو الزقاق البحري؛ رياح قطبية مُشبعة بنوايا قاتلة، وكلّ ما ليس موثقًا بإحكام يندفع مع الريح ويختفي. عارضات ومجارف وعربات وقراميد الأسقف، بل أسقف بحالها، جزم الأقدام اليمنى، والمثل العليا ومصطلحات الحبّ الفاترة. تعوي الريح بين الجبال، تمزّق البحر وتفرّقه

أشلاءً، فتستقرّ الملوحة على البيوت وتُغمَر الأقبية بالماء. عندما يعود الهدوء ويصبح في وسعنا الخروج من غير أن نجد الموت بانتظارنا نرى أنّ الشوارع قد كُسيت بالأعشاب البحرية كما لو أنّ البحر عطس فوقنا. لكن الهدوء يعود دائمًا، وأجنحة الملائكة تطفو وتحطّ عندنا، نقف عند الشاطئ ونستمع إلى الأمواج الصغيرة الوئيدة تتكسّر وهي تخرّ بصوت منخفض، يهمد الهياج، يتدفّق الدم بروية، ويغدو البحر سريراً مغريًا نتوق إلى افتراشه ونحن واثقون من أنه سيهدهدنا لننام. يعلو بطّ العيدر وينخفض وهو يثرثر ثرثرة أبدية. آنذاك يخفّ نوعًا ما ألم التفكير في أولئك الذين أخذهم البحر وضمّهم إلى مجموعته.

## ٤

ينام الفتى نومًا عميقًا وغير واعٍ.

يحلم بالحياة ويحلم بالموت.

بعض الموتى يظهرون أحياءً في الحلم، ولذلك يكون من المؤلم أن يصحو المرء. وهكذا يخوض الفتى غمار الظلمة ويستغرق وقتًا طويلاً ليستعيد حواسّه، ليميّز بين ما هو حلم وما هو واقع، ما هو حياة وما هو موت. يستلقي في السرير وينتفض مثل حيوان جريح، يعود إلى النوم، يغرق كحجر في بحر الأحلام.

أحيانًا يكون الاستغراق في النوم أهنأ اللحظات، فالمرء هناك آمن، ولا يستطيع العالم الوصول إليه. ينام ويحلم بأكوام من السكاكر وبشعاع الشمس.

## ٥

غيرترود ليست من هنا، ولا يبدو أنّ أحدًا يعرف على وجه اليقين من أين هي، ولا أين ترعرعت. فقط نعرف أنها في أحد الأيام تمثل أمامنا بصحبة غوديون المسنّ، غوديون الغني الذي تصغره بثلاثين سنة، بل حتى بخمس وثلاثين سنة، تمثل أمامنا بشعرها الأسود القاتم. شابة فارعة الطول بعينين سوداوين مثل قطعتي فحم، وحول أنفها بقع نمش خفيف باهت منحتها مظهرًا بريئًا، وهناك من انبرى مقترحًا أنّ ذلك النمش هو ما أوقع الرجل المسنّ في غرامها، وأنه في حال بلغ التعب بالمرء ما بلغه هذا الرجل فليحذر من أن يأتمن النمش في يوم. أما غوديون فنحن نعرفه حقّ المعرفة، أو عرفناه. ولد وترعرع هنا منحدرًا من سلالة ملاّك الأراضي الأغنياء. أسّس شركة صيد سمك، واشترى أسهمًا في محطّة صيد حيتان نرويجية، وغنم أموالاً كثيرة جدًا جعلته ينجو من سطوة كبيري التجار هنا؛ تريجفي وليو. وهذان في الواقع يهيمنان على كلّ ما يهمّهما بسط سيطرتهما عليه؛ أيّ بيوت تبنى، أي طرقات تمهّد، مَن يتلقى معونة من الأبرشية، من يذهب إلى الجحيم ومن يذهب إلى الجنة. بطبيعة الحال لم تكن ثروة غوديون تضاهي بعظمتها ثروتهما، والفرق بين هذه الثروات

كالفرق بين ألمانيا وبريطانيا من ناحية والسويد من ناحية أخرى. أما نحن فلا نعدو أن نكون بالمقارنة معهم أكثر من أبرشية في أيسلندا. تزوج غوديون في مقتبل العمر تقريبًا، وهذا شائع هنا، نتزوج شبّانًا حتى نستلقي في الفراش متلاصقين عندما يسود العالم حكم الظلام والصقيع. تنحدر زوجته من أصل رفيع، رشيقة وذات شعر أشقر فاتح، بشوشة وميالة إلى الضحك. وهو؛ ذاك الجسد الضخم المتين، وبطول أكثر من المتوسط، اتسم منذ وقت مبكر بسرعة الانفعال والجرأة الكبيرة. سيسحق الفتاة، قلنا، إلا أنها لم تُسحق. تعامل غوديون بدمائة معها وأنجبا ثلاثة أطفال. عاشا معًا ما يقارب ثلاثين سنة ثم ماتت. احتوى بيتهما على بيانو وأثاث ضخم وسجادة وصورة لـ يون سيغرثسون. ومع أنّ الدكتور سيغورد كان يقيم في بقعة قريبة من بيتهما ماتت. لم يتغلّب غوديون في يوم على حزنه لفراقها، وتصدّعت أسس حياته. بدأ يفرط في تعاطي الكحول، وأقدم هو والقسّ على ارتكاب أفعال شائنة مختلفة وغير لائقة عندما تكون الليالي طويلة. بيد أنّ ولديه أفلحا في الالتحاق بالمدرسة العليا، وأحدهما تابع مسيرته إلى كوبنهاغن، واستقرّ هناك في عمل ما. الثاني أصبح مسؤولاً في العاصمة ريكيافيك وتحت حماية الحاكم، وهما لا يأتيان إلى هنا أبدًا. أما الابنة فتعلّمت طبعًا العزف على البيانو والخياطة وكيف تؤدّي تحية الاحترام وتُجري المحادثات في المآدب، أتقنت ثلاث لغات وشُجّعت على قراءة الروايات الطويلة وبرعت في عزف ألحان شوبان. وصدف أن سمع عزفها عبر النافذة المفتوحة قبطان صيد حيتان نرويجي، وهكذا انتقلت إلى النرويج بعد سنة ولم نرها منذ ذلك الحين. بقي غوديون وحده، ضجرًا وشقيًا، ومتورّمًا من الأرق والكحول، ابتاع مسدسًا من قبطان بحر إنجليزي، صوبه نحو صدغه ثلاث مرات في عدد مماثل من السنوات، بيد أنه لم يملك القوة قطّ ليضغط الزناد ويقتحم مملكة الموت.

ثم التقى غيرترود.

كان من عادته على مدى عدة سنوات أن يقوم برحلات طويلة، أغلبها خارج البلاد، بما أنّ أيسلندا ليس فيها ما يُرى باستثناء الجبال والشلالات والأعشاب الغزيرة، وهذا الضوء الذي يسمّر المرء ويحوّله إلى شاعر. جال غوديون العالم، رأى مدنًا ولوحات وقلاعًا. كان يهرب من نفسه، يهرب من عزلته، يهرب من المسدس الذي في درج منضدته. مرةً، أمعن في الهروب حتى وصل إلى مصر وهناك برّح ثلاثة لصوص ضربًا بقبضتيه ومزاجه العنيف. تولى صديقه يوهان الحسابات وحاول في الوقت نفسه الحفاظ على استمرار الشركة. ولطالما تأفّف يوهان بقلق كبير؛ يوهان رجل مدهش توفي بعد سنوات عديدة عديدة، ولا ريب في أنه سلك أقصر درب إلى الجنة. لكن، عندما يعود غوديون من إحدى رحلاته، الرحلة الأطول التي استمرت خمسة شهور، الرحلة التي عبر فيها من إنجلترا إلى ألمانيا فإيطاليا، ورأى البابا، واستمع إلى السيد تشارلز ديكنز يقرأ في لندن، يعود مصطحبًا معه غيرترود.

تتميّز غيرترود بجبهة عريضة، وهناك شيء فيها لا نستطيع استيعابه؛ صرامة أو برود، غطرسة أو فتور، سخرية أو شك، أو ربما القليل من كلّ ذلك، هذا إلى جانب نمشها الذي يحيّرنا نوعًا ما. كانت تعمل في فندق ريكيافيك، قال غوديون لرفاقه. وكنت أشعر بالوحدة وسألتها ما إذا لديها أي رغبة في أن ترى العالم، أهناك شيء لأراه، ردّت، أجبت: البابا في روما. فقالت: هو مجرّد رجل عاجز طاعن في السن، محشو بالجشع والخرافات. هذا كفر، اعترض القسّ ثورفالدر محتدمًا. هزّ غوديون كتفيه باستخفاف. ومع ذلك رافقتكَ، قال القاضي لارس. جرى هذا الحديث في المساء، وهم لا يكاد يميّز أحدهم الآخر بسبب دخان السيجار في الغرفة، إلى أن اقترح واحد منهم فكرة فتح النافذة على الخريف، وحالما شُفط الدخان إلى الخارج كحّت السماء. تأمّل غوديون وهج شعلة سيجارته وقال، سألتُها ماذا تريد أن تفعل في هذه الحياة، إذ لا ريب في أنّ هناك ما ترغب في اختباره. فأجابت، أن أتناول

الفطور في قرية ألمانية عريقة في الجبال. وهذا ما قمنا به. سافرنا إلى ألمانيا، تناولنا الفطور في قرية جبلية، تزوجنا بعد الظهر في معبد جبلي عمره ثلاثمئة سنة. إنها لا تريد إلا الاستيلاء على كلّ ما لديك يا صديقي، قال لارس والغضب والأسف يغليان فيه. نعم، أنت تذلّ نفسك، أضاف ثورفالدر وكوّر قبضتيه بطريقة غريزية. إلا أنّ غوديون اغتصب ابتسامة متكلّفة وقال: أنتم تحسدونني لأنّ في مقدوري النوم مع شابّة، شابّة فتية وجميلة وذات بشرة ناصعة البياض، إلى جانب أنها تفوقني فطنة وتقول أشياءً تجعلني أنظر إلى العالم بطريقة مختلفة. كنت تستطيع بالتأكيد النوم معها من غير أن تتزوجها وتجرّها معك إلى هنا، ما يدريكَ لعلّ الناس الآن يسخرون منك، ما يدريكَ، لعلّها الآن تنتظر العثور على فرصة للتخلّص منك، تستولي على كلّ شيء وترحل؟ نظر غوديون إلى وجه لارس مباشرة بعينيه الزرقاوين اللتين يمكن أن يغمرهما حزن غريب كعيني كلب عجوز، ولكن أيضًا يمكن أن تصبحا لاسعتين ومفزعتين. تحاشى لارس نظرته وهمّ بالاعتذار، لكن غوديون تنحنح، بصق في المبصقة وقال: كانت الحياة عديمة الجدوى بالنسبة إلينا، ولذلك كان من المنطقي أن نتزوج، الفرق بين عمرينا لا يهمّ كثيراً.

أمضيا سنتهما الأولى في بيته القديم القائم في الشارع الرئيس، بيت جميل وممتاز الموقع، بيد أنّ غوديون قال إنه ما عاد يحبّذ السكنى هناك. وبعد عدة أسابيع على المحادثة التي جرت بين الأصدقاء، أقبلت سفينة عظيمة من النرويج محمّلة بالخشب لبناء المنزل الذي يضمّ الآن المقهى؛ المنزل الذي ينام فيه الفتى نومًا عميقًا جدًا. يتألّف ذلك المنزل من طابقين فسيحين وعلية كبيرة: هو هدية زواج من غوديون إلى غيرترود. بُني البيت إلى جانب بيت القسّ في أعلى شارع من شوارع البلدة، حيث لا يسكن إلا الأشخاص المهمّون: القاضي والطبيب وقباطنة البحر الأثرياء.

سرّ الموقّر ثورفالدر أيّما سرور بالحصول على غوديون جارًا له. جمعتهما الصداقة

سنوات عديدة، فضلاً عن التواصل الممتاز بين بيتيهما عندما كانت زوجة غوديون السابقة على قيد الحياة، فقد كانت هي وغودرون زوجة القسّ على وفاق تام. كان القسّ وزوجته أول من أقام في ذلك الشارع، انتقلا من مزرعة الكنيسة القديمة، من بيت ريفي طيني بدأت تظهر عليه علامات التآكل والاعوجاج في بعض جهاته، وكان آخذًا في الانهيار ببطء. كان البيت تحت كنيستنا تمامًا التي يزّ ارتفاعها جميع أبنية البلدة، كما لو أننا بطريقة ما نعنون الجبل ببيت الله. هناك صليب بياض الثلج على برجها، لكن عند الفجر تحطّ الغربان أحيانًا على حافة السقف وتطلق نعيقًا كريهًا وقاتمًا، كما لو أنها تريد أن تذكّرنا بالليل الأبدي. يصعد ثورفالدر إلى الكنيسة يوميًا في الصباح ليسأل الله المغفرة، وليختلي بنفسه قبل أن يجتاحه النهار بضوضائه وإغراءاته وقذارته. في وقت ما عاقر ثورفالدر من الخمر هنا ما يكفي طاقم سفينة، وأنجب ثلاثة أطفال خارج رباط الزوجية. بيد أنه الآن من فرسان الهيكل الصالحين. ينهض باكرا ويصعد إلى الكنيسة، يحملق ساخطًا إلى الغربان فتبادل نظراته الساخطة بأخرى مستهزئة. يسجد أمام المذبح ويسأل الله أن يبقي الكحول بعيدًا عنه لأنه مع الكحول تأتي الخطايا والتسيّب. يسأل الله أن يغفر له جميع انتهاكاته ثم يعود إلى البيت لتناول الفطور، إلى البيت حيث زوجته والأطفال الذين لم يغادروا البيت، الذين ليسوا أمواتًا، وليسوا متزوجين، وليسوا في المدرسة. قالت له غودرون مرة: إذا كان الله قادرًا على مسامحتك فسأحاول أنا أيضًا أن أفعل، وما زالت تحاول. كان لديهما سبعة أطفال، واحد منهم مات في طفولته، وما زال الاثنان الأصغر معهما في البيت، لكنهما لن يلبثا أن يغادرا وعندئذ لن يبقى سواهما إضافة إلى عاملة التنظيف. يخشى ثورفالدر حدوث هذا، ويفتقد الأيام التي كان يصحو فيها على أصوات الأطفال. مع ذلك لم يكن سهلاً عليه دائمًا استرجاع الماضي من غير أن يشعر به في قلبه، من غير أن يشعر بوخز الندم والحزن

لأنه لم يستمتع بتلك الأيام كما ينبغي؛ لم يستمع جيدًا، كان يعاني من ضيق الوقت، من الحاجة إلى كتابة موعظته، وإلى جمع المستحقّات من رعايا الأبرشية، وكان هناك عمله في الجالية. عدا عن إطالة مكوثه في المجلس البلدي، واشتراكه في الفرقة المسرحية، ومعاقرته الكحول. هذا استنفد وقته كلّه ولم يجد إلا لحظات يتفرّغ فيها للأطفال وأسئلتهم الطفولية التي تقرّبنا كثيراً من براءتنا، لماذا لا تسقط الشمس

يا بابا؟ لماذا لا نرى الريح؟ لماذا لا تتكلم الأزهار؟ أين يذهب الظلام في الصيف، والضوء في الشتاء؟ لماذا يموت الناس، ما يضطرنا إلى أكل لحوم الحيوانات، ألا يحزنها هذا، متى يفنى العالم؟

بيت غيرترود؛ هدية الزواج، هو أفخم أبنية البلدة، وأكبر بكثير من بيت القسّ. تغطي أرضية صالة الاستقبال سجادة، ومن سقفها تتدلّى ثريا ضخمة، وهناك البيانو الذي يجهد غوديون أحيانًا في خبطه بيأس مسميًا ما يوقّعه عزفًا. سرّ ثورفالدر بوجود بيت صديقه إلى جانب بيته، لأنّ الحصول على صديق في هذا العالم من أعظم الأمور، فهذا يعني أنك لست أعزل تمامًا، أنك تستطيع التحدّث إلى شخص والاستماع له من غير أن تحتاج إلى مراقبة قلبك. ثم إنّ أمسيات الشتاء طويلة هنا، فهي تمدّ أوتار ظلمتها من قمة جبل إلى أخرى، يخلد الأطفال للنوم ويغرق لهوهم في بحر الصمت، فنحظى عندئذٍ بوقت للقراءة والتفكير. لكن عندما ينام الأطفال تتقهقر البراءة، وقد نتذكّر عندئذ الموت والعزلة، آنذاك يكون وجود صديق في البيت المجاور نعمة، ولا شيء يضاهي تدخين سيجارة في مكتب غوديون، تأمّل شعلتها المتوهجة، مراقبتها وهي تحترق ببطء. في وسع ثورفالدر وغوديون أن يجلسا على هذا النحو لساعات، يتحدّثان عن الحكومة، عن الدانمركيين، عن صيد السمك، أينبغي أو لا ينبغي أن يُمنع استخدام المحار طعمًا للسمك، أينبغي أن توظّف البلدةُ المالَ في شراء باخرة. يتحدّثان عن اهتمامات البلدية. كان من المريح لغوديون أن يناقش

مشاكل العالم هناك، حيث القضايا أوضح وحيث الكلمات لا تزعج القلب، لا تلامس الجراح العميقة داخلنا. مساء طيب لكليهما، صرف نظر آني عن أمور أخرى، وخطوات ميمونة من بيت القسّ إلى دار غوديون النرويجية، ثماني وعشرون خطوة ميمونة. مع ذلك لطالما أقلقت غيرترود ثورفالدر. كانت مهذبة، لا مجال للشكّ في ذلك، تأتي بالمرطبات، تبتسم له، تطرح عليه أسئلة سهلة الأجوبة، إلا أنه شعر دائمًا أنّ هناك شيئًا يترصّد تحت السطح، ربما هو السخرية أو الازدراء. كما أنه كان يستنكر من عاملة التنظيف هذه في فندق ريكيافيك قلّة إظهار امتنانها بعد رفع مستواها بطريقة مفاجئة لتكون بصحبة مواطنين أرقى منها. كانت، على سبيل المثال، قد دُعيت بعد فترة وجيزة، باعتبارها زوجة غوديون الثري، إلى الالتحاق بنادي بنات حواء الذي يتألّف من عشرين إلى ثلاثين امرأة يلتقين بانتظام ويدردشن عن أمور تخصّ الحياة والعالم، عن العوز وعن الخيانة الزوجية. ويتكفّلن برعاية مهرجانات أعياد الميلاد للأطفال، يجمعن التبرّعات عندما تفقد الزوجات الشابات رجالهنّ في البحر ويصبحن وحيدات مع عدد كبير من الأبناء، وأحيانًا يدعين رجالاً مثقفين ليلقوا عليهن المحاضرات. حضرت غيرترود مرّتين. أنا لسوء الحظّ لا أودّ أن أجلس أمسيات بحالها أتناول الحلويات وأستمع إلى نساء يناقشن قضايا واضحة، شرحت لغودرون زوجة القسّ عندما جاءت لزيارتها مستفسرة عن سبب توقّفها عن الحضور. لعلّك أرقى منا، قالت غودرون بتهذيب بارد.

ما يوجب أن أكون كما تقولين؟

أدامت غودرون النظر إلى غيرترود التي بادلتها نظرات مستفهمة، بل حتى بريئة. دعوناك من منطلق النية الحسنة، ومن منطلق النية الحسنة جئت أزورك، والنية الحسنة ليست عملة معدنية تعثرين عليها في الطريق.

أنا لست ممن تستهويهن الرفقة، قاطعتها المرأة الشابّة.

أتطلبين مني المغادرة؟

لا، أنا فقط لست ممن تستهويهن الرفقة.

اسمحي لي أن أقول إنك لست ودودة جدًا.

لا نية لديّ في أن أكون غير ودودة، أنا فقط أحاول أن أكون صادقة.

جلستا في صالة الاستقبال الفاخرة؛ الصالة التي تحوّلت لاحقًا إلى مقهى، السجادة السميكة هناك غلّفت الضجيج، وفي الزاوية تكتكت ساعة الجدّ القديمة، ما عدا ذلك لا شيء إلا صمت مخيّم. ركزت غودرون عينيها على فنجان الخزف الأزرق نصف الملآن بالشاي، وشربت غيرترود القهوة من قدح كبير. ثم جاءت هيلغا بمزيد من القهوة، فرشفتها غيرترود كما يُرشف الماء. انتظرت غودرون خروج هيلغا ثانية وفكّرت؛ مدبرة المنزل الصامتة هذه التي أرسلت غيرترود في طلبها من ريكيافيك، حادّة الطبع وغير اجتماعية مثل ربّة المنزل. وبعد أن أُغلق الباب وراء هيلغا وبقيتا وحدهما لا ثالث لهما إلا الوقت في صالة الاستقبال الواسعة انبرت قائلة؛ ألستِ على الأقل ممتنّة. فسألتها المرأة الأخرى بدهشة واضحة، لأيّ شيء؟

أأحتاج إلى الشرح بالتفصيل؟

نعم، لسوء الحظّ يبدو أنّ عليك أن تفعلي.

حسن جدًا، قالت غودرون ثم اعتدلت في مقعدها، اشرأبّت بعنقها وعاينت الشابّة بنظرة قاسية. نحن نعرف هذه النظرة، هي نظرة تخترق الجدران، وثورفالدر يخشاها أكثر من أيّ شيء آخر تقريبًا. أتعتقدين، قالت بتأنّ، أنه من الطبيعي جدًا بالنسبة إلى رجل مثل غوديون، رجل أبعد ما يكون عن الشخص العادي، إلى جانب أنه ميسور ماديًا، أن يولع بك، أن يجعل من فتاة عاميّة، من عاملة تنظيف نظيراً له بالزواج منها؟ أتعتقدين أنه من العادي والطبيعي لنا أن نرحّب بك بلا قيد أو شرط في مجموعتنا، بل حتى نعاملك بتسامح ومحبة أبوية؟

أنا لسوء الحظ لست عاميّة، ولست لسوء الحظّ فتاة.

بل أنت فتاة طبعًا. قالت غودرون محتدةً، فهي لا تطيق أن يشكّك الناس بما يبدو واضحًا بالنسبة إليها، نعم أنت فتاة، عاميّة أو غير عاميّة، لن نناقش هذا الآن، لن نناقش التي تصبح فجأة زوجة رجل ثري، ولكنها تُظهر بما لا يقبل الشكّ علامات تدلّ على أنها من طبقة دنيا. لا أقول هذا لأنتقدك، فنحن ما نحن عليه، لكن مع الإرادة وتقويم السلوك يمكن أن تتعلّمي الكثير. عليك أن تكوني قادرة على ترويض نفسك لتقبّل العادات والتقاليد التي ربما لا تكمن تمامًا في طبيعتك، ثم عليك أيضًا أن تقضي وقتًا مع الأشخاص المناسبين. أشعر أنه ينبغي لي أن أقول إنّ امرأة من طبقتك، على سبيل المثال، لا تبتلع القهوة من قدح فخار مثل زوجة صياد سمك، بل مثل صياد سمك. امرأة من طبقتك تجلس معتدلة لا مثل طفل مشاكس.

رنت غيرترود إلى نفسها كأنها تتفحّصها. كانت تجلس بالعرض في المقعد الأخضر الواسع والوثير، إحدى ساقيها فوق إحدى ذراعيها، ويديها حول قدح قهوتها كما لو أنها تشعر بالبرد. بدت أنها تستعرض الأمور في ذهنها للحظة، ثم انبرت تقول من غير أن تنظر إلى غودرون مباشرة، وافقتُ على الزواج من غوديون لأنه رجل طيب، لأننا نشعر بالسعادة معًا، ولأنني أعتبره مساويًا لي.

رفعت غودرون فنجانها إلى شفتيها بهدوء، ثم وضعته فارغًا، أنت لست مساوية لغوديون ولن تكوني أبدًا، قالت ووقفت، نظرت إلى غيرترود وأردفت، أتوقّع أنك لن تحضري إلى اجتماع آخر في نادي حواء.

لسوء الحظّ، شهيتي لتناول الحلويات فاترة.

وكذلك لصحبة الآخرين، أضافت زوجة القسّ.

عندئذ ابتسمت غيرترود للمرة الأولى وقالت، نحن الاثنتين يمكن أن ننسجم معًا تقريبًا. نعم تقريبًا، أجابت غودرون.

مهّدت بالمراوغة طريقها إلى حياة رجل وحيد في خريف العمر، هكذا قالت مجموعة كبيرة نسبيًا من الناس. حرمته من سكينة مساء حياته، وكما هو متوقّع، وضع غوديون في أحد الأيام يده على صدره، حدث هذا في الشارع وتحت الشمس، نظر حوله مذهولاً ثم رحل إلى عالم الأموات. ورثت غيرترود نصف ثروته التي لم تكن ضئيلة، ولم تذرف دمعة واحدة أثناء تشييع الجنازة. على أي حال، لم تبخل في الإنفاق على طقس السهر على جثة الميت قبل دفنها، نعترف لها بهذا. كانت السهرة عظيمة ومبهجة كما لو أنّ الشرير اللعين بنفسه أوقد نارًا تحت الحاضرين. عاقر ثورفالدر الخمر بإفراط غير قابل للغفران وانتهى في السرير الخطأ مع غونهيلد؛ الخادمة المرحة التي رأت أنه من الممتع والمعقّد أن تقضي ليلتها مع قسّ. جعلته يرتدي لباس الكهنوت طوال الوقت وكان ذلك مرحًا وقتها، ولكن ليس بعد أن أفاق من سكرته، حينها لم يعد هناك أيّ مرح في فعلته، وبعد يومين التحق ثورفالدر بجمعية الفجر المعتدل لعلاج الإدمان. من ناحية أخرى لم يلمح أحد غيرترود في حفلة السهر على الجثمان، كانت طبعًا في البيت تعدّ المال، قال أحد الرجال. أعتقد أنني رأيتها تسلك الطريق الصاعد خارج البلدة، قال آخر، نعم، لتقابل الشيطان على الأرجح، أيّ زوجها، قال الثالث. في جميع الأحوال أفاق العديد منهم وهم يعانون من أعراض السكر، بينما غوديون في باطن الأرض، ينتظر يوم الحساب. ثم افتتحت غيرترود المقهى حيث كانت صالة الاستقبال الفاخرة، اكتفت بتسميته المقهى، أما نحن فكنّا أحيانًا نطلق عليه أسماء مختلفة مثل الحانة أو الملجأ أو المدخل إلى الجحيم.

# ٦

يواصل الفتى النوم، ينام نومًا عميقًا، نومًا غير واعٍ. تحرّرنا الأحلام أحيانًا من الحياة. هي شعاع الشمس خلف العالم. نضطجع لننام في نهاية أمسية من أمسيات كانون الثاني، ترجّ الريح الشمالية البيت، تهتز ألواح النوافذ الهشّة، نغمض أعيننا وتشرق الشمس علينا. أولئك الذين يعيشون عند سفوح الجبال المتهاوية وجدّ قريبون من نهاية العالم مختصون بالأحلام. ينام الفتى. ثم يصحو، يصعد بتمهّل إلى السطح. ما زال الظلام مخيمًا عندما يصحو.

يشعر، على أي حال، أنّ الليل وراءه، وأنّ الشمس لن تلبث أن تشرق من أعماق البحر.

يفتح عينيه ببطء، يفتحهما بحذر، بتردّد، والأحلام التي ملأت الوجود تقطّعت وتحوّلت إلى لا شيء، أو على أبعد تقدير إلى أثر ضبابي يحطّ على الذاكرة بضع ثوان ثم ينقشع. يغمض عينيه ثانية، صاح وغير صاح تمامًا. حالة مريحة كثيراً ما حاول المحافظة عليها، خصوصًا في منتصفها، نوم من ناحية، وصحو من الناحية الأخرى، يحاول إبقاء اليقظة بعيدًا طالما هو قادر على ذلك. تخيّل أنّه كان يصحو في بيت يحتوي على بيانو، وعلى أرغن يدوي، وجدار تغطيه الكتب. وأهل هذا

البيت عميقو التفكير، يعرفون الكثير، وهناك أيضًا تفاحة على الطاولة. لكن الواقع لا يمعن أبدًا في دفع المرء بعيدًا عنه، ولا يُقدِّر لأحد أن يهرب منه إلا لحظة، والأحياء والأموات بين يديه. ولذا المسألة هنا مسألة سلامة عقلية وروحية، مسألة جنة وجحيم، مسألة جعل الواقع مكانًا أفضل. تتقهقر أحلام اليقظة، والتفاحة، والأشخاص المفكّرون والبيانو والكتب. فيحاول الفتى أن يتخيّل أنه في محطة الصيد، أنه يستيقظ، أنّ رحلة صيد السمك بانتظاره وباردور حيّ. يتنشق الهواء على أمل أن يشمّ رائحة قدمي صديقه المضمختين بالعرق إلا أنّ الهواء في الغرفة نقيّ جدًا، ليس خانقًا على نحو مميت كما هو الحال عند النوم في الغرفة العليا: سبعة أشخاص نيام، وليس ممكنًا فتح نافذة، سبعة أفراد يتنفّسون وتنبعث منهم الروائح.

يفتح عينيه. باردور ميت وكلّ ما يحيط به يجتاحه البرد.

يغمض عينيه ثانية.

الحياة يمكن أن تكون متهوّرة جدًا ولا تراعي أحدًا.

إنه مثقل بالكآبة، يشعر بها في قلبه. ومع ذلك هو بحاجة ماسّة إلى التبوّل إلى درجة أنّ كلّ شيء فيه يستسلم لتلك الحاجة. حاجة ملحّة تجعله لا يتجاسر على السعال، لا يتجاسر حتى على البكاء لأنّ أدنى مجهود يقوم به يمكن أن يضغط على مثانته المحتقنة ويؤدي إلى شيء من التسرّب. هذا يُظهر أيّ أبله أنا، يفكّر، ويكاد يفقد السيطرة على نفسه للحظة على حساب ازدراء الذات، إلا أنّ من يحتاج إلى التبوّل يحتاج بطبيعة الحال إلى ذلك، وإذا ماطل المرء طويلاً تصبح الحاجة قهّارة بما لا يقبل النقاش. ينشل نفسه ببطء من السرير، يكتشف أنه عار، من نزع عني ملابسي، يفكّر بقلق وهو راكع يبحث تحت السرير عن المبولة، يتنهّد حالما تصطدم يده بها. يتبوّل وهو جالس على ركبتيه حتى لا يتسرّب شيء خارج المبولة،

إنه لأمر حسن جدًا، أمر حسن جدًا أن يفرغ مثانته، يتنهّد راضيًا ويشعر أنه يخون حزنه للمرة الثالثة خلال فترة قصيرة، يا له من أحمق. يجلس على طرف السرير، ينظر أمامه مباشرة وأمل ضئيل يعتريه، ويشمّ رائحة البول الدافئ. الصمت يحيط به، حتى البحر لا يمكن سماعه. بدأت عيناه تعتادان على شحّ الضوء، يرى حدود نافذتين وراء ستارة سميكة، إنّ الجو يبدو هادئًا في الخارج، ما يعني أنهم سيجدّفون. لا ريب أنّ بيتور استغلّ النهار أمس ليعثر على صيادي سمك متجولين، وهما الآن يجلسان على مقعد التجديف الأوسط بدلاً منه ومن بارذور، أما أندريا فهي بلا شكّ قلقة عليه، عليّ أن أكتب لها، نعم طبعًا، ولكن لأخبرها بماذا؟ تستولي قشعريرة على جسده النحيل غير القوي ولكن الصلب نتيجة الكدح. يرفع الغطاء ويستر به كتفيه ثم يجيل النظر حوله. ما زال الكثير خافيًا عليه أو ضبابيًا في العتمة إلا أنه حقًا لم يسبق له أن نام وحده في مثل هذه الفسحة الكبيرة، ما عدا طبعًا عندما كان ينام في الخلاء تحت السماء المكشوفة، تحت السماء العارية. من حيث هو يميّز نهايات السرير العالية، وخزانة بستة أدراج، لا بل بسبعة أدراج، وأطر لوحات على الجدران. هناك مقعد يبدو الجلوس فيه مريحًا. يجيل الفتى نظره بحثًا عن ملابسه، ما زال حزينًا جدًا ومع ذلك يريد أن يجرّب المقعد، أيعقل أن يكون كلّ هذا غير حقيقي؟ ومن خلع عنه ملابسه؟ هيلغا طبعًا، وهذه ليست فكرة لطيفة جدًا. إذاً هي أول امرأة تراه عاريًا. كان يمكن أن تكون امرأة أخرى، أن تكون غودرون على سبيل المثال. يحاول التفكير فيها، يحاول أن يحنّ إليها، بيد أنه لا يشعر بشيء، كما لو أنها لا تعني له شيئًا. يقف، يذهب إلى إحدى النافذتين، يسحب الستارة السميكة بعيدًا فيسيل عليه ضوء نيسان الغائم، يكنس الظلمة ويميط اللثام عن الغرفة. يرى ملابسه على كرسي خشبي أزرق إلى جانب السرير. يرتديها ويتشمّمها مثل كلب. لم يسبق

لملابسه قطّ أن فاحت بمثل هذه الرائحة الطيبة، بعدئذ يقف أمام المقعد الوثير مدة طويلة، يمسّده، يتأمّل يدي المقعد العريضتين، يتمتم بشيء ما ثم يجلس بحذر. المقعد بالغ الطراوة ومن الرائع بصورة غير معقولة الجلوس فيه. تندّ عن الفتى ابتسامة رضا غريزية، وفي الوقت نفسه يعضّ شفته بقسوة.

ولّى الليل والخارج يعمّه السناء.

إنّ ليل نيسان ليس حالك الظلام طبعًا، وهو أيضًا يحفل بالأصوات الجميلة. يستطيع المرء أن يسمع خرير الماء الجاري، وأهازيج الطيور وطنين الذباب. يستطيع المرء أن يرى ديدان الأرض في التربة وتصبح الحياة أكثر بساطة. يأتينا نيسان ومعه عدّة الإسعافات الأولية ليداوي جراح الشتاء.

يجلس الفتى في أكثر المقاعد ليونة في العالم ويتحرّى المكان الذي يضمّه، ينظر خارج النافذة ويتأمّل غيوم نيسان ببياضها المائل إلى الزرقة، يحاول أن يفكّر في الله، بيد أنه يتوقّف عن ذلك بسرعة، ويلتفت إلى تفحّص مبولة الغرفة نصف الملآنة بالبول الفاتر. بيضاء وفي غاية النظافة كما لو أنها لم تستعمل من قبل قطّ. لا، بل حتى ما رأى في حياته أبدًا مثيلاً لمبولة المهجع هذه، ثم إنه لم يميّزها جيدًا عندما تبوّل، ولو فعل لما تجاسر على التبوّل في حوض رائع كذاك. هناك لوحتان على الجدار، كبيرتا الحجم نوعًا ما، يضيّق عينيه ليميّز رسومهما، في إحداهما رسم لمدينة، بلدان أجنبية، يغمغم. تخيّل هذا، نحن نعيش في بلد ليس فيه مدينة ولا سكة حديد ولا قصر، إلى جانب أننا نعيش بعيدًا جدًا عن العالم بحيث أنّ الكثير من الناس لا يعرفون شيئًا

عنا. إنما، أهناك ما يستحق أن يُعرف؟ كانت اللوحة الأخرى أقلّ وضوحًا، ويحتاج إلى الوقوف والاقتراب منها ليستكشف معالمها، وهذا أمر مستبعد الآن، فالجلوس في المقعد أفضل بكثير من التمعّن في الأشياء. لا ريب أنني قد نمت أربعًا وعشرين ساعة، يفكّر، يشعر بذلك في جسده الثقيل، شبه الخدر. يُصدر شيء ما يشبه الطقطقة قرب الفتى، فيجفل وللحظة مخادعة واحدة تنتابه الخشية من أن يكون بارذور واقفًا ينظر إليه في الزاوية شبه المعتمة. يتناهى إليه وقع خطوات خارج الباب وصوت ضحكات شخص. ضحكات رجل إنما ليس القبطان المسنّ بالتأكيد، تلك ضحكات فتية، عميقة ومرحة تقريبًا، هذا إلى جانب أنّ ذلك القبطان المسنّ لا يكاد يعرف الضحك، يكتفي ربما بالهرير. يستمتع الفتى بشعور الكراهية الذي يكنّه لكولبين وهو ينتشر في كافة أنحاء جسده. رجل نكد، يتمتم. يضحك الرجل ثانية ويسمع الفتى صوت امرأة. مدهش، مدهش أن يكون هناك أحياء يضحكون في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح. يقف الفتى، يزيح الستارة السميكة عن النافذة الأخرى. نافذتان كبيرتان نوعًا ما مثبتتان معًا بالمشابك، يفتحهما ويبتلع البرودة، يبتلع هواء الصباح الساكن، لم تثلج الدنيا منذ أن مشى أو ترنّح ميمّمًا هذا البيت، ينظر عاليًا إلى الجبل الشاهق المرتفع فوق البلدة. ضوء الصباح غير واضح كثيراً، يبدو كما لو أنه محمّل بالشوائب. أيمكن في يوم أن يغدو الضوء خالص النقاء تحت جبل كذاك؟ يتراجع الفتى بعيدًا عن النافذة بطريقة غريزية ويغلقها، إذ سرعان ما أصبح الجو في الغرفة باردًا، ما تمنى إلا أن يدبّ إلى السرير ثانية، ويكمر رأسه، إذ أي شيء ينتظره لاحقًا غير التنفّس والأكل والذهاب إلى المرحاض بانتظام

وقراءة الكتب والردّ عندما يوجّه إليه الحديث؟ لماذا إذاً يحيا المرء؟ يحاول أن يقول هذه الكلمات بصوت مسموع، كما لو أنه يطرح السؤال على الله أو ربما فقط على هذا المقعد الوثير، ولكن، بما أنّ لا الله ولا المقعد بدا أنهما يمكن أن يجيباه ينتقل إلى التفكير في كتب كولين. من المحتمل أنّ عددها يبلغ حوالي أربعمئة كتاب، وهو لم يسبق له في يوم أن شاهد أكثر من عشرين في مكان واحد، ما عدا طبعًا الكتب التي في الصيدلية، حيث عدّ اثنين وسبعين كتابًا عندما كان هناك مع باردور: إنها أربعمئة كتاب. يحملق في الفراغ حالِمًا. يضحك الرجل في الخارج من جديد، على مسافة أبعد هذه المرة، بحيث لا يكاد يلتقط الصوت، يُنهِض نفسه، يقف، يمضي بسرعة إلى الباب، يفتحه، وينظر بحذر. يظهر أمامه رواق طويل. لقد نام مدة طويلة بالتأكيد خلف الستارة الثقيلة، أما الآن فهو مستيقظ ويحتاج إلى أن يعرف لماذا هو حي، وأن يعرف ما إذا كان له حيّز ذو مغزى في هذه الحياة.

يتلكأ عند الباب. يعود ويجيل النظر في الغرفة الكبيرة، يودّعها، وأخيراً يغلق الباب خلفه بحذر ويمشي ببطء إلى نهاية الرواق الأخرى. يعدّ سبعة أبواب بمعزل عن الباب الذي أغلقه، ويعدّ أربعة مصابيح على الجدران، اثنان فقط مضاءان، ما يعني أنّ الرواق شبه معتم، يلقي نظرة على اللوحات الأقرب إلى المصباحين المتوهّجين. كلها بلدان أجنبية، يغمغم بعد تفحّصها، بحيرات غريبة، غابات وقصور ومدن. يمضي نازلاً الدرج بروية، يأتيه الصوتان من الأسفل، يتوقّف في منتصف الدرج، يغمض عينيه، يأخذ نفسًا عميقًا ويهيّئ نفسه. سهل أن يخدع المرء نفسه وهو مختلٍ بها، يمكنه تقريبًا أن يبتكر شخصية ما، يصبح حكيمًا، تأمّليًا، لديه جواب لكلّ

سؤال، بيد أنها حكاية أخرى في صحبة الآخرين، عندئذ يخضع للاختبار، في تلك الحالة لا يعود تأمّليًا، لا يكاد يعرف ما الحكمة، وأحيانًا يتحوّل إلى مجرّد أحمق لعين وينطق بشتى أنواع الأشياء الغبية. أنا متأكّد من أنني سأجعل من نفسي مجرّد أبله، يفكّر الفتى ويتابع نزوله، يعدّ ست عشرة خطوة. عندما يصبح في الأسفل يرى في الجهة اليمنى بابًا مغلقًا، وإلى اليسار رواقًا طويلاً نسبيًا يقود إلى الباب الرئيس نصف المفتوح. وهناك يقف رجل، وهو بلا شكّ مَن كان يضحك، يدلّ مظهره على القوة، وطويل إلى حدّ ما، عريض الكتفين ويرتدي سترة زرقاء بمجموعة من الأزرار الذهبية، قبطان أجنبي، يفكّر الفتى، في وسع المرء أن يرى هذا أيضًا من طريقة تصرّفه؛ مزيج من التصميم واللامبالاة. هذا الرجل لا يعتمد في معيشته على تمليح القدّ، ولم يضطر إلى البقاء تحت رحمة ظلام الجبال. يرى القبطان الفتى الذي ما زال متمسكًا بدرابزين الدرج لأننا غالبًا ما نتمسّك بشيء حتى لا نضلّ الطريق أو نهوي من على الحافة، يمكن أن يكون ما نتمسّك به درابزينًا، إنما نفضّل دائمًا يدًا أخرى. تتلاقى أعينهما، يغضن الأجنبي جبينه كما لو أنه يأخذ جانب الحيطة أو ربما ليرى بمزيد من الوضوح. تتقدّم هيلغا إلى المدخل وتقف إلى جانب الربّان، تنظر إلى الفتى وتقول نهارك سعيد، نمتَ جيدًا. يفلت الدرابزين ثم يعود إلى التمسّك به ثانية من غير أن يمانع هو أو الدرابزين ذلك، ثم يردّ تحيتها الصباحية بإيماءة من رأسه. في وسعنا أن نقول الكثير بإيماءة رأس، نحن ربما نفرط في تقدير الكلمات، ربما يجدر بنا التخلّص من معظمها، ونكتفي بهز رؤوسنا والصفير والهمهمة. تلتفت هيلغا إلى القبطان وتقول شيئًا بلغة أجنبية، تتكلّم ببطء ولكن بلا تعتعة، إنها توضح له من أنا، يفكّر الفتى. يعاينه الربّان الذي تخلّى عن حذره، وينضح وجهه بالعطف بل وبالشفقة. إنه يجوب البحار ويعرف الموت، يفكّر الفتى، كما لو أنه يبرّر لنفسه

سبب التيارات الدافئة التي تطلقها نظرة الرجل من داخله. ثم يحيّيه القبطان بإيماءة من رأسه، يرفع إحدى ذراعيه ويفتح يده تجاه الفتى، ينظر فجأة إلى الأعلى، ويبدو كما لو أنه يتردّد قليلاً، كما لو أنه ينتظر شيئًا، ثم لا يلبث أن يخرج ويُغلق الباب وراءه.

حسنًا، تقول هيلغا.

حسنًا، هي بالتأكيد أهمّ كلمة يمكن العثور عليها في أيسلندا. فهي قادرة على إنشاء صلة بين الغرباء بطرفة عين.

يمضي الفتى نحوها وتقول، تحتاج إلى أن تأكل، ويجيب، نعم.

# ٧

يستعصي على المرء فهم هيلغا مهما بذل جهده، هذا ما قاله باردور بينما كانا يغادران البلدة قبل ألف وثلاثة عشر سنة وهو يحمل على ظهره قصيدة ملحمية محفوفة بالمخاطر. فأنت تتأرجح بين الشكّ واليقين إذا تساءلت ما إذا كانت بكلّ بساطة تتساهل معك أو تستلطفك، ما إذا هي ضجرة من الحياة أو ليست كذلك، تبًّا، إنني أحيانًا أرغب في الانقضاض عليها وأنا أصيح لأفاجئها وأفقدها توازنها لأكتشف ما إذا كان في وسعنا أن نرى ومضة مما هي عليه حقًا، وما عدا ذلك لا يهمّ من هي فعلاً.

الآن، ليس في مقدور باردور الانقضاض على أحد وهو يصيح. وهذا في الواقع من حسن حظّ هيلغا، لأنه ميت، متجمّد حتى الموت، والحياة تلحف في الانحسار بعيدًا عنه مع كلّ دقيقة تمرّ، وبعد ثلاثين سنة لن يكون على الأغلب إلا بقايا ذكرى باهتة في هذا العالم، وآنذاك أكون أنا أيضًا قد نُسيت لحسن الحظّ. هكذا يفكّر الفتى، أو بالأحرى تومض فيه الأفكار وهو يتبع هيلغا محاولاً التملّص من قلقه وخجله. ما الداعي لأن أخجل منها؟ إنّ هيلغا ليست إلا امرأة، جسدها حساس ولا يمكنها أن تتحمّل الانهيارات الأرضية، لا يمكنها أن تتحمّل الزمن، تطرف عين

الزمن فتصبح عجوزاً متهالكة في زاوية ما، تلوك ذكريات لا طعم لها وأسماء لا أحد غيرها يتذكرها.

المسافة من الرواق إلى المطبخ لا تكاد تتجاوز عشر خطوات، ومع ذلك استطاعت كلّ تلك الأفكار أن تومض في رأسه. هناك اتساع عظيم جدًا في عقل المرء، فرص رائعة، بيد أنّ معظمها يُهمَل لأنّ وجودنا يتصلّب بسرعة في بوتقة ما هو شائع، والفرص تتقلّص مع كلّ سنة تمرّ، وبذلك يُفقد جزء كبير من الفكر أو يتحوّل إلى نفايات رملية.

طول هيلغا دون المتوسط تقريبًا، وتتميّز حركتها بالسرعة والدقّة، وهي على الأرجح لا تعرف الفعل "يتمهّل" إلا من شيوع صيته. شعرها الأشقر الفاتح معقوص بعقدة محكمة عند نقرتها، مضفيًا بذلك على وجهها مظهراً حادًّا، ومسلّطًا الضوء على شفتيها الرقيقتين نوعًا ما وأنفها بأرنبته المرتفعة. ترتدي ثوبًا فاتح الزرقة وفضفاضًا، ما يجعل الفتى غير قادر على استشفاف لياقتها البدنية، وليس لديه أيّ اهتمام بأن يعرف، وهي بلا شكّ في الثلاثين من العمر على أقلّ تقدير.

يدخلان المطبخ وحالما يفعلان تتهاوى جميع أفكار الفتى القلقة وتأمّلاته كأنها طيور أصابتها طلقات نارية، فهناك يجلس كولبين المسنّ. يمضغ قطعة خبز مدهونة بطبقة كبيرة من الزبدة ومعجون كبد الإوز، وعيناه الميتتان تخترقان الفتى مثل يدين باردتين. فجأة تستثار في ذاكرته لمحات من الأحداث التي جرت في المقهى، جُبنه، كلمة بالقدّية، "أومانيو"، وتبدأ فورًا في تبكيته. لقد استيقظَ، أعني الفتى، تقول هيلغا للقبطان الذي يجيبها بمأمأة فظّة مثل كبش عجوز، نادرًا ما يكون بشوشًا في الصباح، توضح هيلغا للفتى الذي لم يملك أي فكرة عما إذا كان متوقّعًا منه أن يبتسم أم لا. كولبين رجل نافذ البصيرة جدًا، تتابع، فقد أدرك منذ زمن بعيد أن لا فائدة من أن يكون المرء مبتهجًا بشكل عام. يفكّر الفتى في الجلوس ثم يغيّر رأيه.

يلازم مكانه واقفًا ورغبة جامحة تعتمل فيه لأن يقوم بحركات ساخرة بوجهه ليستهزئ بالقبطان المتجهّم إلا أنه لا يتجاسر، بدلاً من ذلك يراقب هيلغا وهي تقطع الخبز بحركات يدوية ماهرة، ثم يبدأ غلي القهوة. يرمق الفتى باهتمام كبير الموقد الذي يقف على أربعة أرجل حديدية هائلة، مع فرن وأربع صفائح تناسب قدوراً مختلفة الأحجام. لم يسبق له في يوم أن رأى مثل ذلك الفرن الكبير، يتفحّص بدقة تصميمه متشاغلاً به للحظة. اجلس، تقول هيلغا من غير أن تلتفت، فيفعل ما طلبته منه فوراً. مع ذلك كولبين بشوش بطبيعته، تقول، بل حتى كثيراً ما غنّى لي في الصباح. مرة أخرى يُمأمئ القبطان بفظاظة. تضع هيلغا الخبز والقهوة على الطاولة أمام الفتى الذي يشعر بدفء رائحة جسدها ويجازف بالابتسام ولكن بحذر. فوجه القبطان بلحيته الكثّة قبالته يذكره بسحاب ركامي قاتم، إنما هناك سكينة غريبة تحطّ على يدي الأعمى المُرهقتين من العمل واللتين تستريحان على الطاولة مثل كلب هاجع. يدان كبيرتان بالمقارنة مع جسمه. يشرب الفتى القهوة الساخنة، ويتناول لقمة من الخبز فيتفتح جوعه بضراوة تضطره إلى التركيز بشدّة حتى لا يحشر في حلقه كلّ ذلك الخبز الطري دفعة واحدة، يجبر نفسه على التأني في الأكل لأنّ البيئة التي هو فيها تستدعي منه مزيدًا من اللياقة والالتزام بآداب المائدة أكثر مما درج عليه. تأتيه هيلغا بالعصيدة في وعاء أزرق، فيرفع نظره تلقائيًا ويقول شكراً بصدق حقيقي يجعل هيلغا تبتسم ابتسامة مفاجئة تشعّ في عينيه وتمنحه الشجاعة ليسألها عن الرجل الذي كان في طريقه إلى المغادرة، أهو أجنبي؟ نعم، تجيب وهي تصبّ لنفسها القهوة في فنجان أزرق، وتجلس عند نهاية الطاولة. هو قبطان السفينة الأخرى التي في البحيرة، يبحرون لاحقًا. وهو إنجليزي، تضيف وهي ترشف قهوتها. أتتقنين الإنجليزية، يسألها بتحفّظ واحترام لأنّ مَن يعرف لغة أخرى لا بدّ من أنه أبعد أفقًا ولديه سعة اطّلاع أكثر من الآخرين. القليل منها، تجيب هيلغا، فقد عشت في أميركا ست سنوات،

إلا أنه لا يأتي إلى هنا ليزورني أو ليبدي إعجابه بإنجليزيتي. لماذا يأتي إذًا؟ يسأل الفتى ببراءة بالغة، ثم وفي أقّل من لحظة تنقشع لديه الرؤيا فورًا تقريبًا من خلال ستارة براءته أو بلاهته فيتورّد خجلاً. تزمّ هيلغا شفتيها إما استياءً أو لمنع نفسها من الابتسام. أما وجه كولبين فيبقى خاليًا من أي تعبير. يجرف الفتى العصيدة نحو فمه جرفًا ليمنع نفسه من وضع قدمه في ذلك الفم.

يُستحسن أن يستعدّ للرحيل.

لقد أعاد الكتاب والمهمة قد أُنجزت. شكرًا جزيلاً لكم، الخطوة التالية في برنامجه أن يقرّر ما إذا ينبغي أن يحيا أو يموت. من المريح بمكان أن تقتصر خيارات المرء على اثنين فقط، وكليهما حاسم جدًا. طبعًا يبقى خيار الموت أسهل بكثير، قرار واحد وبعد ذلك يصبح كلّ شيء في حكم المنتهي، يحصل على وصلة حبل، يربط به حجرًا، يقفز من قمة هاوية ولا يعود له أثر أبدًا، ولا يضطر أحد إلى التعثر بجثة منجرفة نحو الشاطئ.

أما بقاء المرء حيًّا فهو أكثر تعقيدًا بكلّ ما في الكلمة من معنى.

في هذه الحالة لن يفي الحصول على وصلة حبل بالغرض، حتى لو كانت الوصلة جيدة ومتينة، يحتاج المرء إلى أكثر من ذلك ليعيش، فالحياة عملية طويلة ومعقدة، وأن يحيا المرء يعني أن يتساءل أين، على سبيل المثال، أقضي الليلة التالية، الليالي التالية، بل العشرة آلاف ليلة التالية؟ ويحتاج إلى العثور على عمل، لن يذهب إلى البحر، اللعنة على ذاك، لا، ولن يقصد متجر ليو ليعمل فيه صيفًا، ليس بدون باردور، هذا غير وارد. ثم ماذا بعد، إنه يحتاج إلى أن يأكل، والأكل يكلّف مالاً. معقول جدًا أن يعقد صفقة مع ماغنوس أو تريجفي للحصول على حساب مدين متواضع، فالسفن تبحر قريبًا وعندئذ يكون هناك عمل كثير، والعمال المُجدّون سيلقون ترحيبًا كبيراً. نعم، نعم، لا مشكلة طبعًا في الحصول على الزاد بالدين على

مدى بضعة أيام، لا مشكلة في البقاء حيًّا، إنما العقدة الأكبر تكمن عمومًا في اكتشاف ما إذا له أو ليس له شأن في هذا العالم.

على ذلك النحو تجري أفكار الفتى الذي أنهى العصيدة، ولبث حاملاً ملعقته الفارغة وهو يحدق إلى لا شيء، لا تنمّ ملامح وجهه عن رثاء الذات، ولكن ربما بدأ يعتمل فيه الشعور بقلّة الحيلة، إذ كيف يفترض به الحصول على حبل ما؟ المرء لا يجد مثل هذه الأشياء في الطريق، والحياة لن تكفّ عن وضع العراقيل في دربنا، لا شيء هناك سهل جدًا. لم يواجه باردور قطّ أي مشكلة في أي شيء، إلا أنه قد مات ولن تُسمع أبدًا من جديد ضحكته المُعدية.

يجفل الفتى، هيلغا تقول شيئًا. ماذا؟ يسألها فتهزّ رأسها مستنكرة وتتمتم، تُركت إذًا وحدي مع رجل أعمى وآخر أصمّ. يلقي الفتى نظرة سريعة على كولبين ولكن لا كولبين هناك، فقد غادر الرجل. أنا... أنا فقط، يقول الفتى، ثم يغرق في الصمت باحثًا عن مزيد من الكلمات ولا يعثر على شيء منها، يكتشف أنه فقدها كلها.

تفقد سمعك، تستعيده ثم تفقد صوتك، حضورك مثير للاهتمام فعلاً، تقول هيلغا، وبطبيعة الحال لا يملك أدنى فكرة ما إذا قالت ما قالته بقصد السخرية أو المداعبة. مرة أخرى ينتابه الاضطراب وتعتريه الخشية من هذه المرأة، فيكتفي بهزّ رأسه ويوافق بصمت على مرافقتها إلى متجر تريجفي. نحتاج إلى حليب وجعة وعصيدة وخبز، وأنا أريد عتّالاً قويًّا، أصم أو أبكم لا يهمّ، جلّ ما آمله هو أن لا تتبخّر القوة من ذراعيك فجأة كما تبخّر سمعك وصوتك.

# ٨

ما عادت السماء تخيّم قارسة البرد على العالم، والثلج في الطرقات بدأ يلين. إنه شهر نيسان وفي هذه الأجواء يمشي.

لحسن الحظّ لا تقول هيلغا شيئًا، كما لو أنها تركت كلّ ما لديها من كلمات في البيت. تريد غيرترود أن تتحدّث معك لاحقًا، كان آخر ما قالته له بينما هما يرتديان معطفيهما. لاحقًا؟ سألها، كأنّ هذه الكلمة "لاحقًا" كانت جدّ مبهمة. هي لا تحب النهوض باكرًا، كانت هيلغا قد قالت، وتجاهلت نظرة الفتى الفضولية. لماذا تريد التحدّث معي، يفكّر وهما في الطريق، ربما لتلومني لأنني لم أنقذ باردور من الصقيع؟ تسير هيلغا بسرعة بالغة تضطره إلى استخدام جلّ عزمه ليواكبها، وتجعل حبل أفكاره ينقطع باستمرار. يُدعى هذا الشارع شارع القمر، يفكّر. نمضي حتى نهايته ثم يبدأ شارع البحر الذي يمتدّ وصولاً إلى الرأس حيث باحة الكنيسة، أيجدر بي يا ترى أن أصفّر داعيًا الأموات للخروج في نزهة؟ ثمة من أزال الثلج وهيّأ مسارًا ممهّدًا على طول الطريق. المسار في شارع القمر أحسن تمهيدًا، كما أنّ الثلج هناك مركوم بعناية ولا مشكلة أبدًا في المشي عليه. تبدو السماء سَنيّة على الرغم من

الغيوم الثقيلة المحتقنة. الساعة تقارب السابعة صباحًا، البحر أزرق وقليل الاضطراب عند الزقاق البحري، ومن المرجح أنه أقرب إلى التجمّد. يسري الدفء في الفتى أثناء مشيهما، ومهما يحاول جاهدًا ليوسّع خطواته، يبقى دائمًا متخلّفًا عن هيلغا بنصف خطوة على الأقل. يتصاعد الدخان من مداخن البيوت القائمة إلى جانب بقعة ماغنوس لتجفيف الجلود، وهناك ثلاثة رجال يدخنون الغليون خارجها، هم في الغالب صيادو سمك أجانب. ساريتا السفينتين تخترقان الفضاء عند رصيف الميناء المنخفض في الأسفل ناحية رأس الزقاق البحري، أما السفينتان فتواريهما الأبنية. تُدعى إحدى السفينتين سانت لوفيستا، تأتي من إنجلترا وعلى متنها القبطان ج. أندرسن الذي ما زال جسده دافئًا بعد لياليه وأيامه مع غيرترود. يتصاعد دخان غلايين الرجال الثلاثة إلى السماء، أزرق في البداية ثم لا يلبث أن ينقشع ويتحوّل إلى لا شيء. يتأمّل الفتى ساريتي السفينتين اللتين تعلوان على الأبنية في نسيم الصباح. يجب أن أذهب إلى أميركا، تومض الفكرة في رأسه، طبعًا، هذا هو الجواب، أو كندا، تلك البلاد الفسيحة جدًا. حينئذ أكون قد قطعت مسافة شاسعة قادمًا من البحر، من عند السمك، أتعلم الإنجليزية، ويصبح في وسعي أن أقرأ كتبًا قيّمة. يريد أن يسترسل أكثر في هذا، لكن أفكاره تتبدّد في الهواء كالدخان. يتفرّع الطريق أمامهما، يمتدّ شارع البحر على طول الشاطئ، أما الشارع الرئيس فينعطف عند زاوية دكان ماغنوس ويواصل تقدمه بين صفّ مكتظّ من البيوت. الشوارع هنا أُجليت جيدًا من الثلج، والدرب شبه خال منه باستثناء الأكوام المكدّسة على جانبيه. هناك ثمانية، لا بل تسعة بيوت متفاوتة الفخامة على طرفي الشارع الرئيس، وأمام واحد من البيوت الأكثر فخامة تنبثق شجرتا تنوب صغيرتان من بين الثلج،

خضرتهما الغضّة والمذهلة ترغم الفتى على التسمّر في أرضه فجأة. يشعر بالشوق يتحرّق فيه لأن يتسلّق الثلج المكوّم ويلمس ذلك اللون الأخضر ويستنشق أريجه. يرفع رأسه ويرى امرأة من نافذة فوق الشجرتين، امرأة شابّة منهمكة في تلميع شيء ما، يتراءى له أنه شمعدان. تنظر هي أيضًا إليه، ثمّ تمنحه ابتسامة جدّ ساحرة، فيشعر على بغتة منه بالسعادة على الرغم من أنّ باردور قد تجمّد حتى الموت إلى جانبه قبل ثمان وأربعين ساعة. مربكًا ينتزع نفسه من النافذة والابتسامات والعينين المفعمتين بالحياة ويجري وراء هيلغا. هيلغا التي تختفي عند المنعطف. يجري ويجري، يجري بسرعة، بأسرع ما يمكنه كما لو أنه يحاول اللحاق بنفسه، يبدو أشبه بأحمق طبعًا، وذلك مناسب لأنّ هذا ما هو عليه بالضبط.

يؤدي الشارع الرئيس إلى وسط القرية، إلى الساحة المركزية التي نطلق عليها اسم الميدان عندما نحلم بحياة خالية من القدّ المملح، نحلم بميدان فيه أشجار ومقاعد وتماثيل، إنما تماثيل مَن؟ هذا هو السؤال، إذ مَن ذاك الذي كان مخلصًا جدًا للحياة ليستحق تمثالاً؟

تتسربل الساحة المركزية بثلوج نيسان، وستبقى مكسوة به بلا ريب على مدى أيام عديدة تالية، فتلك الغيوم حبلى بمزيد من الثلج، ولن تكشف الشمس عن نفسها اليوم إلا بصعوبة. لا أحد يجول في الخارج إلا قلّة من الناس، في الحقيقة لا أحد غيرهما. انتهى الفتى إلى جانب هيلغا، لم ينجح في الهروب من نفسه. تهتزّ ستائر نافذة البيت الذي أمامهما، يتحرّاهما وجه. في بعض الأحيان لا تجري إلا أحداث قليلة هنا، ويهرع الناس إلى النافذة إذا آنسوا حركة ما، فمجرّد استيقاظ

المرء من النوم وتفكيره في اليوم الذي ينتظره يصيبه بالخمول. تتجه هيلغا إلى متجر تريجفي، دار كبيرة مُعَنْونة بعناية بلافتة كبيرة، نوافذها عالية الارتفاع وتكتظّ إلى نهايتها بالبضائع في الصيف والخريف، لكن البضائع الآن قليلة ومتناثرة. يخرج رجل متأبّطًا كيس أرز صغيراً، يرمق هيلغا من غير أن يحيّيها، تتظاهر بأنها لا تراه وتفتح الباب، وحالما يدخلان المتجر يقرع الجرس.

## ٩

يطرف الفتى بعينيه ليعوّدهما على اختلاف الضوء. فالمتجر يبدو شبه مظلم بعد سناء الثلج في الخارج. هناك في الداخل حفنة من الناس ما بين الموظفين والزبائن، وحالما تدخل هيلغا والفتى يصمت الجميع، عيون لا يمكن عدّها تنظر أولاً إليها ثم إليه، عيون فضولية مستقصية، بل حتى بعضها مشحون بالعدائية، وليس من اللطيف أبدًا التعرّض إلى الحملقة الوقحة بتلك الطريقة. ألا ليتك تنشقي وتبلعيني أيتها الأرضية الطيبة، يفكّر الفتى والشكّ يساوره، لأنّ الأرضيات لم يسبق لها أن ابتلعت أحدًا. الأرضيات في الحقيقة لا تعرف إلا أن تكون منبسطة وأنها تستخدم للمشي عليها. وما دام الأمر كذلك حري به إذًا أن يُجيل النظر حوله، يتفحّص مجموعات البضائع المختارة في أكبر متجر قرية تقع عليه العين في هذا الجزء من البلاد. يحتاج المرء إلى الذهاب جنوبًا، إلى ريكيافيك، ليدخل متجرًا أهمّ من هذا، أو حتى قطع الطريق كلها إلى كوبنهاغن، عبر البحر العريض، البحر ذي الأعماق الخطيرة التي تعجّ بالسفن الغارقة، بالناس الغرقى، وبالأحلام المهشّمة. سبق له أن جاء إلى هنا طبعًا، ثلاث مرات خلال سنتين. آنذاك بدا كلّ شيء مختلفًا، لأن

أناسًا معينين كانوا ما زالوا أحياءً. يسيل ضوء نيسان من النوافذ، غير كثيف وليس باهرًا جدًا. هناك عدة مصابيح بارافين مضاءة، إلا أنّ المتجر كبير، والخزائن الأربعة العالية والعريضة تُحزّئ المساحة، تخلق ظلالاً، وتجعل الأمر صعبًا على الضوء لينساب بحرية. منضدة البيع طويلة، يبلغ طولها عدة أمتار تقريبًا، وخلفها رفوف تعرض سلعًا مختلفة، بعض الرفوف فارغة لأننا ننتظر المزيد من سفن الربيع. أما السفينتان اللتان في الرصيف الأدنى فلم تجلبا إلا الفحم والملح وقبطانًا لغيرترود. كان الفتى قد عدّ تسعة أشخاص عندما ظهر العاشر عند نهاية إحدى الخزائن؛ رجل طويل القامة متين البنية كان مستغرقًا في تفحّص شيء، ثم أقبل لرغبته في التحقّق من هوية القادمين الجدد، ولا يلبث أن يقف ممعنًا النظر إلى الفتى مدّة طويلة. هذا برينيولفر، قبطان السفينة التي تخصّ متجر سنوري. لحيته سوداء يخالطها الشيب، يتحاشى الفتى العينين القاتمتين المائلتين إلى السواد ويلقي نظرة عبر الباب المفتوح على غرفة المشروب الكحولي. لقد سبق له أن دخل إلى هناك مع باردور قبل خمسين ألف سنة، عندما جاب الماموث الأرض. يومذاك كانت الرفوف خالية تقريبًا. الكونياك نافد، الويسكي نافد، الشيري نافد، خمس قنانٍ متبقية من خمرة البورت، عشر من البرينيفين، قنينتا سفينسك برانكو وتسع قناني نبيذ أحمر، كانت إمكانيات الحياة قد تضاءلت على هذا النحو. من ناحية أخرى كانت بعض الرفوف عامرة بصفوف كثيرة من أنواع الجعة المختلفة، وأكثر مما تستدعي الحاجة إليها في المخزن، وفق ما قال عامل المتجر الذي عاين باردور والفتى باستعلاء، راجعًا بظهره إلى الوراء إمعانًا في تأكيد الاختلاف الطبقي بينه وبينهما، بينما أسفرت شفتاه عن ابتسامة تحت شارب لم ير الفتى قطّ مثيلاً له في تشذيبه المتقن، ابتسامة ليست خالية مطلقًا من العجرفة. يومها طلب باردور برينيفين. ها، ماذا؟ ألا تريد نبيذًا أحمر؟ سأله الموظف بنبرة توحي أنه قد تفاجأ. أضاف باردور ثمن المشتريات إلى حسابه، وتلك عملية

تميّزت بالسهولة لأنّ حالة الحساب كانت جيدة، وبناء على ذلك قال ذاك الشنب بعد أن تفحّص باردور، نعم لا بأس. فتقلّصت المسافة بينهما قليلاً، من سبعمئة كيلومتر إلى مئتين. شعر الفتى بفخر عظيم، نصب قامته بينما مدّ باردور ذراعه المتينة قائلاً، آخذها هكذا، ثم خرجا وعنق الزجاجة في قبضة باردور، عبّ منها حتى عنقها وهما في طريقهما إلى محطّة الصيد، لكن باردور كفّ عن شرب المزيد من الخمر في هذه الحياة. الآن ذلك اللعين إينار، يفكّر الفتى، يفغر فمه على القنينة وهو يعاينها بشراهة مثل نورس يتضوّر جوعًا.

التفكير في إينار، في جشعه ولا مبالاته بموت باردور يجعل الفتى يحتدم غضبًا إلى درجة أنّ حياءه يتخلّى عنه للحظات، فيمضي إلى منضدة البيع حيث هيلغا تطلب المشتريات، تتكلّم بنبرة هادئة وحازمة في الوقت نفسه، ليس فيها أي تعتعة، وليس هناك أي خنوع في أسلوبها وهي تفعل ذلك.

يا للعجب من هذا العالم الذي لا يوزَّع فيه أيّ شيء بالتساوي.

يمكن أن يقف بعض الناس مثل هيلغا أمام منضدة البيع ويطلبون ما يريدون بدون لعثمة، أريد هذا وأريد ذاك، فيهرع الموظفون صاغرين إلى حيث يشير الزبون، بينما يضطر بقيتنا إلى الالتماس، والسؤال ما إذا من الممكن إضافة هذا وذاك، ونقول، مستعينين بالله، إنه من الجيد حصولنا على حفنة زبيب، طبعًا بمعزل عن التطرّق إلى ذكر الحلوى الدانمركية. ثمّ نبتسم ابتسامة واهية في وجه الموظفة الواقفة أمام منضدة البيع، ونحن ننتظر على أحرّ من الجمر لنرى إن كانت تنوي إخراج الكتاب الأسود الضخم بظهره الأحمر حيث تُسجَّل ديوننا كلها، ديوننا تجاه المجتمع والناس، تلك الديون المسجلة بأرقام راسخة يستحيل علينا مناقشة صحتها أو بطلانها، فلا يبقى أمامنا إلا الإذعان. معظمنا تثقله ديون أبدية للمتاجر الكبيرة، وطبعًا تثقله ديون للحياة نفسها. بيد أنّ ديون الحياة تسدّد بالموت. وعندما

يتعلّق الأمر بمتجر تريجفي ليست القضية بسيطة مطلقًا، ففيه تُمرر ديون الآباء إلى الأحفاد، إذ على الرغم من أنّ الموت مكّار عظيم، لا تطال سلطته دفاتر الحسابات؛ إذا مات الرجل تدفع الدين زوجته، والأبناء، والآباء. لا علاقة لكلّ هذا بالقسوة بل بالعمل، إنه الواقع لا أكثر ولا أقلّ، وهذا هو ما عليه الواقع. متجر تريجفي ومتجر ليو ضخمان جدًا إلى درجة أنّ القرية ترقى وتتدهور معهما، إدارتهما المنضبطة والشاملة تبقي كلّ شيء في حالة جريان، تساندنا وتؤازرنا، وأيّ إهمال في الإدارة أو تقاعس يقضي علينا، وتسقط القرية وأهلها في هوة الفاقة. هذا ما قاله فريدريك عدّة مرات، ونحن نفضّل ألا نعارضه، إلا من تحت أنفاسنا، كما نفعل عندما نتلو صلواتنا. معظم المجلس البلدي تحت سيطرته، أو ربما هو في ظلّه، ونادرة هي القرارات التي تُتخذ من غير استشارته بطريقة أو بأخرى. هيلغا على أي حال لا تحتاج إلى التصرّف بأدب أو إلى تكلّف الابتسام بعصبية. هي لا تحتاج إلا إلى دسّ يدها في جيبها لتدفع نقدًا. ومنذ أن دخلت المتجر تريّث جميع مَن فيه يترقّبون هذه اللحظة، لحظة ظهور المال، الدفع نقدًا؛ بعضهم جاء بغية شراء الأشياء، وغيرهم لمجرّد التسكّع وتقطيع الوقت، وكلهم يرون في تلك اللحظة نوعًا من الحلاوة الغامضة. أضيفي صندوقي جعة، تقول هيلغا لعاملة المتجر التي تلتفت بدورها إلى زميلها في العمل؛ الشارب المشذّب بنفسه، الذي ينحني بتواضع ويقول طبعًا، علينا فقط أن نجلبها من المخزن وبعد ذلك نحضرها إلى المقهى. يرنو أولاً إلى المساعدة التي تدعى راغينهيلد وهي في الواقع ابنة فريدريك لا أكثر ولا أقلّ، ثم يلتفت إلى هيلغا ويبتسم بأدب. اِذهب إذًا وأحضر الصندوقين، تقول هيلغا بنبرة أقرب إلى البرود، من غير أن تلقي نظرة واحدة على الشارب المنمّق الذي تتلاشى الابتسامة من على وجهه. يقول، حالاً بالتأكيد، ويلقي نظرة سريعة على المساعديْن الآخرين الواقفين إلى جانبه واللذين يتابعان الإجراءات، فيقفزان من فورهما ويتجهان إلى المخزن.

يرنّ الجرس ثانية فوق الباب وتدخل امرأة طويلة ونحيلة. عيناها بُنّيّتان مثل عيني الرجل الذي تجمّد حتى الموت بسبب بيوت من الشّعر. مرحبًا تورون، تقول هيلغا للمرأة وتبتسم. فتبتسم تورون بدورها وهي تتقدّم نحو هيلغا، وتتعانق المرأتان. يدهش الفتى من رؤية الابتهاج العظيم الذي آلت إليه حال هيلغا، بيد أنه يشعر من جديد بعدم الأمان والضياع لأنّ المرأتين؛ هيلغا وتورون، تمضيان نحو إحدى النوافذ لتتبادلا الحديث، وتخلّفانه وحده أمام منضدة البيع. تحدجه عينا راغينهيلد وعينا الشارب المشذّب الذي يدعى صاحبه غونار، ثم تستدير راغينهيلد وتتناول كوب ماء. يراقبها هو وغونار فيما ترفع الكوب إلى شفتيها وتفرغه في جوفها.

تتأنّى في شرب الماء. وبينما تفعل تختلج حنجرتها الصغيرة مثل حيوان صغير ناعس راقد في جيدها الأبيض.

يتناهى إليهم وقع رنين جرس كليل من ناحية غرفة المشروبات الكحولية، يلهج لسان غونار بسباب خافت، يفتح فمه ويهمّ بقول شيء لراغينهيلد ثم يقرّر ألا يفعل، أو ربما لا يجرؤ على ذلك. أما هي فلا تُقصي عينيها عن الفتى، كما لو أنها تشعر بالفضول، كما لو أنها غير قادرة على زحزحة عينيها عنه. يلقي عليه غونار نظرة حادّة فجأة، وعلى وجهه تعبير ثقيل وعدواني، ثم يذهب إلى غرفة المشروبات الكحولية متفقّدًا الجرس.

كان ذاك القبطان برينيولفر الذي استغلّ فرصة انصراف انتباه الجميع إلى هيلغا وتورون ودخل غرفة الكحوليات، دقّ الجرس بحذر بالغ، وها هو الآن يجرجر قدميه بقلق بعدما رأى تعبير وجه غونار المتجهّم. تصرّ الأرضية تحت وطء قدمي القبطان الضخمتين. نقول أحيانًا إنّ الإطاحة ببرينيولفر تحتاج إلى قوة إلهية، لأنه انتصر دائمًا على أعتى أنواء البحر، عندما تبدو السماء كأنها تكاد تتمزق إربًا، والأمواج تعلو عشرات الأمتار فوق السفينة، والهواء محمّل بعويل باعث على الجنون، وكلّ

ما هو غير مثبّت بإحكام يتلاشى من على سطح السفينة، والرجال عند السلوقية المغمورة بالماء يُقذفون جيئة وذهابًا، والبلل يغشى كلّ شيء، نرى برينيولفر يقف ثابتًا كصخرة على قدميه العملاقتين، مُحكمًا يديه على الدّفة، مبتسمًا، بل ضاحكًا في وجه الرعب، وهو يصيح غبطةً. وثمة من زعم إنه في تلك اللحظات يصيح بسعادة وحشية. في مثل ذلك الجو الشبيه بيوم القيامة والمرء لا يستطيع أن يسمع شيئًا سوى عويل العاصفة المثير للجنون، يصحبه هدير الأمواج المتلاطمة التي تتكسّر على السفينة وتجعلها ترتجّ من مقدمتها إلى نهايتها، وأمهر صيادي السمك ينهارون مع الأمواج، ويبكون من الرعب والعجز في المخزن، يبقى برينيولفر أمام الدّفة وعلى وجهه تلك التكشيرة المنذرة بالسوء. وأولئك الذين يسترقون النظر إلى الأعلى من المخزن ويرونه يظهر للحظة من بين الرذاذ يزعمون أنّ وجهه يشعّ حبورًا، يشعّ بتعبير وثّني جذل، هذا ما رواه مرة صياد سمك هرم. إنما التصدّي بجسارة لتهديدات عناصر الطبيعة شيء، والتشوّق إلى الجعة شيء آخر، التشوّق الحارق الذي يكاد يسبّب الألم، إلى جانب كون المرء مدينًا للمتجر بمبالغ كبيرة، وبالتالي اضطراره إلى الخضوع لأهواء غونار. هذا الـ غونار العويص. من أجل ذلك يقرّر برينيولفر أن يتصرّف بتواضع: لن يضرّ في شيء يا عزيزي غونار أن أحصل منك على أربع أو خمس قناني جعة، يقول وعلى وجهه تعبير رقيق بل حتى متضرّع كي يتحايل على الصوت الذي ليس في طبيعته أي مساحة للتواضع.

ما حاجتك إلى الجعة؟ يسأل غونار بنبرة فظّة ونظراته الساخرة تعاين القبطان. يضحك برينيولفر ضحكة متقطّعة كما لو أنه يحمل قنبلة هشّة، هذا سؤال وجيه، يقول، ويحاول قدر الإمكان أن يكون دمثًا، نعم، ماذا يفعل المرء بالجعة!

ماذا يفعل المرء بالجعة؛ فقط لو أنّ العالم يدور حول شرب الجعة أو عدم شربها، فقط لو أنّ الأمر كان بهذه البساطة.

تطالع راغينهيلد الفتى بنظرة معنّفة صريحة، كما لو أنها تخزه بعينيها، فيقف محتارًا ولا فكرة لديه عما يمكن أن يفعل بنفسه.

ماذا، على سبيل المثال، ينبغي عليه أن يفعل بهاتين اليدين؛ طويلتين جدًا وقبيحتين وتعترضان طريقه باستمرار؟

ماذا يفترض به أن يفعل بهاتين العينين المعتوهتين؟

أو هاتين القدمين المتنافرتين؟

ومن تكون أنت؟ تسأله راغينهيلد بعد أن تركته يعاني عدة ثوانٍ، كلّ ثانية تعادل مئة سنة تقريبًا. لعلّ هناك شيئًا من الفضول في صوتها، لكن هناك أيضًا الكثير من الغطرسة. يحتاج الفتى إلى استجماع شجاعته ليتطلّع إلى وجه راغينهيلد، وهذا ما يفعله، يستجمع الشجاعة وينظر. تتدلّى خصلتان كستنائيتان على صدغيها. عيناها رماديتان يشبه لونهما لون أسطح الصخور في بعض المناطق الجبلية، يصعب النظر فيهما ويصعب جدًا تجاهلهما. هي جميلة، يفكّر الفتى مأخوذًا بالمفاجأة.

وهو محقّ كلّ الحقّ.

عملت راغينهيلد في المتجر على مدى ثلاث سنوات، في البداية قلنا، نعم، ابنة فريدريك، تفاحة عينه، ابنة الإمبراطور. إلا أنّ هذا سرعان ما توقّف عندما أدركنا أنها بمعنى ما لم تكن ابنة أحد غير نفسها، ولطالما اتخذت قرارات من غير أن تستشير أباها. وبعض الناس يخشونها أكثر مما يخشون فريدريك. رفضت التعامل بالدَّيْن مع الناس في صميم البرد، والصقيع قد اخترق البيوت وكلّ شيء، وكلّ ما هو قابل للتجمّد تجمّد؛ السوائل والأمل، ونفدت مؤن الطعام تقريبًا. كانت راغينهيلد تشير ببساطة إلى مستوى الدَيْن العالي وإلى القروض المتراكمة التي لا تتوقّف؛ سكاكر وتبغ، وتبغ أيضًا، ومشروب برينيفين وتين، تُجمّد الشخص موضوع السؤال حتى العظام بعينيها. صوتها يمكن أن يصبح حادًا ويمكن أن يشطر رجالاً ناضجين

إلى نصفين، رجالاً صلّبهم البحر من أكتافهم إلى أقدامهم. مع ذلك هي لا تتجاوز من العمر الحادية والعشرين، والحياة أحيانًا ترتعش داخلها.

من المؤكّد أنها جعلت الفتى يعاني من شعور بارد وقاسٍ، إلا أنّ هذا يسحره بطريقة سخيفة ومبهمة. ملكة البحر القطبي، يفكّر، ويتيه تمامًا في عينيها، ينسى كلّ شيء ما عدا العينين الرماديتين كأسطح الحجارة في وجهها المنمنم المحاط بشعرها الكستنائي. تميل راغينهيلد إلى الأمام قليلاً وتقول بهدوء، لعلك أخرس؟ أتريد غيرترود الحصول على أخرس بما أنّ لديها آخر أعمى؟ يشعر الفتى بالحمرة تكتسح وجنتيه، قل شيئًا، قل شيئًا أيها الأحمق، يأمر نفسه، ليس من الضروري أن يبيّن لها أنه أبله بكلّ ما في الكلمة من معنى، حتى وإنْ صحّ هذا. ينأى بنظره وقد استفحل تورّد وجنتيه وتحوّل إلى حمرة الشمندر. ثم تستقرّ عيناه على صحيفة إرادة الشعب، صحيفتنا نحن المستقرةُ مطويةً على منضدة البيع. ما زالت محاطة بالجليد في البحر البلطيقي، يقول العنوان الرئيس في الصفحة الأولى، ما زالت السفينة لورا محاصرة بالجليد مع بضائع ورزم لأيسلندا. محاصرة بالجليد وتحمل رسائل طلاب في كوبنهاغن إلى ذويهم، بعضها متأجّج بالحنين إلى الوطن، وبعضها مشحون باعترافات الحبّ التي يكفي حتمًا أن تتدلّى من جؤجؤ السفينة لتذيب الجليد وتقشع الماء. شيء ما يختلج في قلب الفتى، ينظر ثانية إلى العينين الرماديتين كوجوه الحجارة ويقول بصوت خافت جدًا اضطر راغينهيلد إلى الانحناء نحوه أكثر لتسمعه، أنا لا أعرف من أنا. لا أعرف ما أنا. ولست بأي حال واثقًا تمامًا من أنني سأُمنح الوقت الكافي لأكتشف هذا.

لماذا بحقّ الجحيم قلتُ ما قلته؟ يفكّر مشوّش الذهن ويحاول ألا يديم النظر إلى النهدين البضّين اللذين يُكشفان قليلاً عندما تمعن في الانحناء. تعتدل راغينهيلد في وقفتها، وثمة أثر حيرة يكتنف وجهها، إلا أنّ طرف لسانها يظهر بطريقة غير متوقّعة

من بين شفتيها، أحمر ولامعًا بالرضاب.

أيّ طرف لسان يظهر بهذه الطريقة يبدو أنه يحمل معه رسالة من الداخل، من داخل ظلمة الجسد.

الشيطان، يفكّر الفتى.

تمسح عينا راغينهيلد الرماديتان كلون الحجارة ببطء، ببطء بالغ، جسده. العيون هي أيدٍ خفية تربّت وتتحسّس وتلمس وتستكشف. ثم تبتسم. ابتسامة مدروسة ومتغطرسة، ومع ذلك يبدو كأنها ترتعش رعشة صغيرة شبه خفية عندما تقول، يجب عليك الحصول على بعض الملابس اللائقة. وعليك أيضًا أن تنصب قامتك قليلاً، عندئذٍ أتكلم معك بنبرة أفضل. إنما حذار أن تحاول إلقاء التحية عليّ في الطريق!

فجأة، لا يبقى هناك ما يفصل بينهما إلا منضدة البيع.

كان الفتى من غير أن يدرك ما يفعله قد اقترب، راغبًا في استكشاف رائحتها، عبيرها، فنحن نكون أكثر شجاعة عندما لا نفكّر في شيء، التردّد والهلع يأتيان مع التفكير. هو الآن مثل حيوان، ويدنو منها بحيث يصبح في وسعه أن يسمع تعاقب أنفاسها. يظهر طرف لسانها مرة أخرى، للحظة، حاملاً له رسالة من الظلام، ثم تتراجع خطوة إلى الوراء، تغدو عيناها باردتين ومتغطرستين ويرتفع بينهما جبل جليدي عملاق.

# ١٠

تورون إنسانة جيدة، رفيقة لا تقدّر بثمن لغيرترود ولي، تقول هيلغا بينما يخرجان من المتجر، هي تحمل كيسًا واحدًا، وهو يرزح تحت ثقل أحمال، وفي الوقت نفسه يشعر بالامتنان للوزن الثقيل، فذاك الذي يحمل أثقالاً يمكن أن ينسيه الإجهاد نفسه، فيريح فكره، ولا يمزقه عدم اليقين إربًا في هذه الأثناء. عدم اليقين بما يتعلّق بالحياة، بما هو آتٍ، بما يتعلّق به، والآن بما يتعلّق براغينهيلد أيضًا؛ هذه الفتاة ذات العينين الرماديتين كلون أسطح الحجارة، طرف لسانها، نهداها، ساحرة بغطرستها وبرودها بطريقة تستعصي على الفهم، برود كأنه كتل ثلج طائشة على صفحة الماء، لماذا كان لزامًا عليّ أن أعجب بجبل جليدي؟ امرأة جيدة وصحبة لا تُثمّن، تقول هيلغا عن تورون، ويبدر عنها ما يوحي أنها تريد أن تضيف المزيد، ربما لتخبر الفتى شيئًا عن تورون، والفتى مذهول ذهولاً كاملاً كيف أصبحت هيلغا منفتحة وكثيرة الكلام. إلا أنهما يسمعان وقع خطوات ثقيلة تقترب. من الجيد أن يحمل المرء شيئًا ثقيلاً، يقول صوت قاتم رنّان، ويخطو برينيولفر مارًّا بالفتى وهو يخبط كتفه بقوة. يحمل القبطان في جيبيه ثلاث قناني جعة، ما يعني أنّ الحياة في غاية الروعة.

كان يفضّل كثيراً لو أنها أربع أو خمس قناني، لكن غونار كان نكدًا وفظًّا بحيث بدا طلب المزيد فكرة سيئة. يحيّي برينيولفر هيلغا بمرح ويهمّ بتجاوزها، بيد أنها ترفع يدها مستوقفة العملاق. يبدو أنه يشعر بالبلبلة، فيمدّ يده إلى جيبه بطريقة غريزية طلبًا للجعة، يفتح القنينة ويعبّ جرعة. ألا يفترض أن تكون في سفينتك منذ مدّة، تقوم بالاستعدادات اللازمة لتبحر، تقول هيلغا أكثر مما تسأل، القباطنة الآخرون منهمكون في التحضير للإبحار، أما سفينتك فما زالت راسية هناك عند الشاطئ بينما أنت تتسكّع في المتاجر وتشرب الجعة، ليس في هذا أي مراعاة لشعور سنوري. يرفع برينيولفر إحدى ذراعيه، ذراع مدجّجة بطاقة مميّزة، بقوة هائلة، لكن يمكن أيضًا رفعها بلطف، وعندئذ تكون راحته المفتوحة مثل ابتسامة معتذرة. تنخر هيلغا، ويقول برينيولفر بشيء من الحماسة، أبدأ اليوم يا عزيزتي، أبدأ اليوم! إذًا أتمنى أن تلتزم بكلمتك، تقول ببساطة وتمضي مبتعدة والفتى خلفها. يغمز برينيولفر الفتى بعينه، يأخذ جرعة أخرى من القنينة، يمضي أولاً في الاتجاه المعاكس لهما، ثم ينعطف نزولاً إلى شارع آخر، يكمل الفتى وهيلغا طريقهما في الاتجاه المؤدي إلى بيت غيرترود. هو شاكر لأنه يحمل مثل ذلك الوزن، ويحاول جاهدًا التفكير في ما هو أكثر من راغينهيلد والنهدين اللذين يظهران أمامه عندما تنحني إلى الأمام، وطرف لسانها اللامع بالريق، والعينين الرماديتين باردتين وبغيضتين وفي الوقت نفسه جدّ ساحرتين. هي جبل جليدي هائل فيه دببة قطبية تمزقني إلى أشلاء وتلتهمني. ثم عندما ينجح أخيراً في طردها من أفكاره، تهاجمه تساؤلاته عن الحياة، عمّا إذا ينبغي أو لا ينبغي أن يحيا، ولماذا، وما إذا كان يستحق أن يحيا.

أوه، إنّ عدم اليقين طائر يحوم فوق رأسه زاعقًا.

الآن نترك الفتى يمضي في حال سبيله بكلّ بساطة، نتركه للحظة فقط، وربما

للحظة أخرى أيضًا، نفسح له المجال ليتصالح مع أعبائه، نتركه بسلام، وبدلاً من ذلك نتبع هذا القبطان برينيولفر وهو يسير الهوينى في الاتجاه المؤدّي إلى متجر سنوري، مستمتعًا بوقت حلو.

الشخص الذي يحمل ثلاث قناني جعة ليس في حاجة كبيرة إلى الاستعجال في هذا العالم.

# ١١

إذا لم يتسكّع المرء وسلك من المربع المركزي أقصر طريق يؤدي إلى متجر سنوري، يستغرق منه الوصول حوالي خمس دقائق. إلا أنّ هذا يعتبر اختصاراً للوقت غير ضروري الآن طبعًا، إذ من الرائع التمتع بشرب الجعة، رائع روعة بالغة على نحو لا يقبل النقاش، وكلّ ما كان قبل فترة قصيرة مُغمًّا ولا يُقهر يصبح مدعاة سخرية. لن ألبث أن أبدأ في تجهيز السفينة، يقول برينيولفر لنفسه، يقولها بصوت عالٍ، ينبئ العالم بقراره، يخبط بيده على صدره، خبطة هائلة، يفعل هذا ليستجمع عزيمته وليحثّ نفسه. يذهب أولا إلى سنوري، يرتّب معه الأمور، يعدّان الخطط، ويستمتعان بالوقت معًا، وربما يقترحان نخبًا من مشروب قوي، بعد ذلك يأخذ فانوسًا ويسلك دربه نزولاً إلى السفينة، ينشلها من سباتها الشتوي الثقيل، يناجيها قليلاً، وفي الصباح يوقظ الطاقم. نعم! يخبط برينيولفر صدره مرة أخرى، يفعل ذلك بسعادة وانتصار. إنه القبطان الوحيد الذي لم يبدأ بعد في تهيئة سفينته استعدادًا لموسم صيد السمك. وفي حين أنّ الآخرين سبقوه بمراحل وسرعان ما يبحرون، ما زالت سفينة برينيولفر والتاجر سنوري نائمة عند الشاطئ، مستلقية هناك بطريقة

خرقاء، مثل طائر لا يطير. لم يحاول برينيولفر النظر في اتجاهها ولا حتى مرة واحدة، على الرغم من أن سنوري حضّه مرتين على أن يفعل بطريقته المعتذرة والملجلجة، طريقة لا فائدة منها مطلقًا في إقناع الناس، وهذا ليس جيدًا لأنّ متجره يقف على أرض مهزوزة، والديون غير المحسومة تفوق الأصول. أولئك الذين يدينون له بالمال أغلبهم عمّال من العامّة يعيشون في الحي القديم الذي يقيم فيه صيادو سمك ومستأجرون ومُزارع أو اثنان. بعضهم يعاني من صعوبة تسديد ديونه، وغيرهم ربما لا يبذلون جهدًا كبيراً في العمل، وبالتالي يستغلّون عن وعي أو عن غير وعي طيبة سنوري وتردّده، مع أنه يحاول كثيراً، بلا جدوى، التخلّص من هذه الصفات. إنّ طيبة شخص ما يمكن أن تستثير العفن الكامن في الآخرين. يحظى سنوري بأفضل لحظاته وهو يعزف على أرغن قديم ومستهلك، ويشعر بالارتياح أيضًا عندما ينشد في الكنيسة عشية رأس السنة، وأحد الفصح، ومنتصف الصيف حينما يشيد بالضوء، كما يُشير الموقّر ثورفالدر. وأولئك الذين يدينون بالمال لسنوري، ديون بعضهم ترجع إلى العديد من السنوات، يشعرون بشيء من الخجل، بيد أنّ هذا شعور موجع سرعان ما تساعد الحياة اليومية العادية على التعافي منه. في الحقيقة ما يعتمد عليه سنوري هو ما تصيده السفينة، وبرينيولفر يعرف ذلك جيدًا، ولعله خبط صدره مرة ثالثة من أجل هذا بينما هو ينعطف نزولاً نحو شارع المدرسة، مدركًا أنه كان عليه قطع مرحلة كبيرة في تهيئة سفينته التي تدعى الأمل؛ اسم جميل وبرّاق، سفينة عمرها خمسة عشر سنة اشتراها سنوري جديدة من النرويج. كانت في البداية تدعى ين سيغردسن، تيمّنًا ببطل الاستقلال الأيسلندي المِقدام، بيد أنّ سنوري طلب أن تُسحب إلى الشاطئ، وجعل بياربي الدّهان يخط اسم الأمل على مقدمتها باللون الأحمر. قبل ذلك بأيام قلائل رحلت زوجة سنوري جنوبًا على متن

سفينة ثايرا إلى ريكيافيك، كانت مريضة جدًا بحيث حُملت حملاً إلى السفينة. رافقها سنوري بالتأكيد، إنما اضطر إلى العودة إلى الغرب هنا في المركب التالي ليحافظ على سلاسة عمل متجره.

مرّت شهور.

في تلك الآونة عُيّن ينز ساعي بريد بري، وكان يأتيه برسائل منها، إلا أنّ تلك الرسائل بدأت تصبح أقصر فأقصر بينما مضى الصيف، وبدأت الكتابة اليدوية تصبح أضعف وأقلّ وضوحًا. كان سنوري يديم النظر إلى الكلمات المعوجة والمشوّهة، مدركًا أنّ تلك الكتابة اليدوية المهزوزة تشهد على تضاؤل حيوية زوجته. أوه، ازدادت صعوبة الحال الآن قليلاً عن السابق، كتبت في رسالة في مطلع شهر آب، وتلك كانت أول كلمات الشكوى التي تصدر عنها. أصحو أحيانًا وأنا أشعر بيدين باردتين داخلي. هما أبرد من الثلج، وهما تمعنان في الاقتراب من قلبي يوميًا. يا عزيزي سنوري، السيّئ بمضي إلى ما هو أسوأ، إذا استدعاني الله إليه عليك أن تكون قويًا. لا ينبغي أن تتحطم. تذكّر ولدينا، أنا على ثقة من أنك ستدخلهما المدرسة، كما خططنا دائمًا... ما عدت قادرة على كتابة المزيد... يا زوجي الغالي. أو ربما تراءى له أنه شاهد تلك الكلمات في نهاية الرسالة؛ يا زوجي الغالي، على الرغم من أنها بلا أيّ شك تخالف طباعها مخالفة تامة، فهي لا تعبّر عما يدور في نفسها بمثل هذا الوضوح، لا تُظهر مودّتها بمثل تلك الكلمات السافرة. يومها أغلق سنوري الباب على نفسه في مكتبه ليبكي من غير أن يجازف بأن يراه أحد. كان المركب الساحلي يحتاج إلى أسبوعين حتى يتوقّف هنا قبل أن يتابع طريقه جنوبًا، ولم يستطع سنوري أن ينتظر مدة أطول، فالحياة ليست طويلة، أقرضه الرجال الطيبون حصانين فمضى يشقّ الطريق إلى رأس الزقاق البحري مباشرة ومنه إلى وادي تانجودالور؛

الحصانان قويان ومفعمان بالحيوية وهو مثل صرخة يأس على ظهر أحدهما.

إذا استدعاني الله إليه.

عاد سنوري بعد شهر. كان ذلك في أيلول. وقع في قبضة جو الشتاء عند مروج الخلنج، لكنه انحدر إلى الوادي في كنف أشعة الشمس وأهازيج الطيور، سكينة مثالية وحرارة تبلغ ١٥ درجة مئوية، أعاد الحصانين بعد أن لفّ ذراعيه حول جيديهما وشكرهما، وحفّ الحصانان برأسيهما الكبيرين التاجرَ. ثمّ ذهب إلى البيت ليرعى الولدين ويهتمّ بإدارة المتجر. لمدة ليست بالقصيرة لم يتجاسر أحد على التحدّث معه بأيّ شيء ما عدا ما هو معلومات عامة، وما يمكن أن تتعامل معه اللغة بيسر، عن السمك على سبيل المثال، وعن المتجر وحالة الطقس. من استطاع الاقتراب منه كان أولئك الذين يهتمّون بالموسيقى والذين يمكن أن يتواصلوا مع سنوري من خلال تلك الروابط، إلا أنّ ذلك لم يكن مما يُعوّل عليه كثيراً. بدا واضحًا أنّ ينز عرف شيئًا لكنه شعر أنّ نشر الخبر لا يعود بالنفع على أحد، وأدرك الناس بسرعة أنّ الضغط عليه قد لا يكون محمود العواقب، إذ سرعان ما يتجهّم وجهه وتتكوّر قبضتاه فيسارع الناس إلى تغيير الموضوع. ولذلك لسنا في أي حال متأكدين من بعض التفاصيل الصغيرة؛ كلّ ما نعرفه أن الله استدعاها لخدمته فعلاً. بعضنا يمتلك آذانًا قادرة على سماع صوته، بينما نحن الذين نتجوّل هنا، نحن الأموات الذين ما زلنا أحياء، نصغي ونصغي ولا نسمع شيئًا على الإطلاق. أما هي فقد خاطبها الله. ثم وضع يده على بطنها حيث الوجع على أشّده، وحيث اليدان أبرد ما يكون. وعندما وصل سنوري إلى ريكيافيك، منهكًا ومحرومًا من النوم ومعه حصانان متعبان، استقبلته زوجته آلديس بصحة كاملة، وقد زالت آلامها ومن وجهها يشعّ نور بديع. كان سنوري في الحقيقة شبه حذر في التعامل معها، إذ أدرك أن شيئًا لا يُقهر قد فصل بينهما، شيئًا لم يسبق له أن واجه ما يشبهه من قبل.

بذل سنوري كلّ ما في وسعه ليعيدها إلى البيت، ولكن ما قيمة ما يقوله المرء عندما يتكلّم الله؟ بعد ثلاثة أسابيع امتطى أحد الحصانين وعاد، بينما أبحرت آلديس إلى كوبنهاغن وباشرت القيام بالعمل الذي ألزمها الله به.

يأتي ينز برسالتين في السنة من آلديس. هذه الرسائل لا تصل إلى يد الدكتور سيغورد لأنّ ينز يسلمها لسنوري سرًّا وله شخصيًا، وهذه الرسائل الخطية الخالية من العاطفة تنضح بنور إلهي يضيء وجه التاجر ولحيته التي خالطها كثير من الشيب. لكن جميع الأنوار تخلّف ظلالاً، هكذا هو الحال. وسنوري يحيا في ظلّ نور الله، لأنه بدلاً من أن يبتهج ويحتفل، يفتقد آلديس. يشعر بالمرارة لأنّ الله أخذها منه. ويتوقّع أن يكون جحوده ساحقًا ووخيمًا. سأحترق في الجحيم بسبب هذا، يفكّر أحيانًا والندم يعتصره. يعزف سنوري على الأرغن يوميًا تقريبًا، باخ وشوبان وموزارت، وأيضًا بعض الألحان المتعرّجة النابعة من الندم والشعور بالذنب. تختلف الموسيقى عن جميع الأشياء الأخرى. هي المطر الذي يروي عطش الصحراء، شعاع الشمس الذي يضيء القلوب، والليل الذي يشيع الراحة. تربط الموسيقى الناس معًا، ولذلك لا يبقى سنوري وحده دائمًا عندما يعزف على الأرغن، عندما يداعب بقوسه أوتار كمان قديم، وأعلى نوتة فيه حادّة ورقيقة بحيث يمكن أن تمزّق القلوب. أحيانًا يكون بينديكت معه، تتذكّرونه بلا ريب، الربّان الذي ينفخ بوقه معطيًا إشارة انطلاق المراكب، والقيّمة تنتظر عند الشاطئ وحولها ثلاثمئة صياد سمك. هناك المزيد ممّن يأتون إلى سنوري من أجل الموسيقى؛ نساء ورجال. بيد أنّ المرء يمكن أن يكون محاطًا بكثير من الناس ويبقى مع ذلك وحيدًا؛ يحيا سنوري من أجل ابنيه في المقام الأول وقبل أيّ شيء آخر. هما الأمل الذي يبقيه طافيًا، كلاهما في المدرسة العليا، أحدهما يكاد ينتهي وهو عازم على أن يصبح قسيسًا، والآخر يتمنى متابعة تحصيل العلم والذهاب إلى كوبنهاغن للتخصص بحقل البيطرة.

يقيمان مع أبيهما في الصيف، فيعاود عندئذ اكتشاف السعادة، وبسببهما يكدح في المتجر، يناضل نضالاً مستميتًا ليبقيه قائمًا. تعليم الأبناء يكلّف الكثير، تكلفة البنات أرخص وفرص تعليمهن محدودة، وفرصهن الأخرى قليلة عمومًا، وما إن يتزوجن يفقدن حريتهن.

ينتفض برينيولفر قليلاً. ليس، على أي حال، بسبب البنات وفرصهن المحدودة، إنما بسبب المسؤولية التي تقع على عاتقه، وبسبب تأنيب ضميره؛ طائران يقبعان على كتفيه ويغرزان مخالبهما عميقًا في لحمه. إلا أنّ كلّ شيء الآن في طريقه إلى التحسّن، بالتأكيد! بعد ثلاث أو أربع ساعات يكون قد وصل حاملاً فانوسه إلى الأمل، ويكون قد بدأ في مناجاة السفينة والقيام بما يلزم لتهيئتها. وغدًا يوقظ الطاقم الذي سئم من طول الانتظار، وبعد ذلك لن يكون هناك مجال للتقاعس! برينيولفر مسرور، يشرع في شرب قنينة الجعة الثانية ويتحسّس الثالثة في جيبه اليمنى، سرعان ما أشربها يفكّر مبتسمًا وهو يمضي متجاوزًا المدرسة التي قام الأخوان النجاران يون ونيكولاس الذي يدعى نولي اختصاراً ببنائها في أوقات فراغهما، بناء طويل وضيق نوعًا ما بثلاث نوافذ في واجهة الطابق العلوي؛ نوافذ كبيرة جدًا توحي أن البناء يفتح إلى الأبد عيونًا مفعمة بالدهشة. كان قد تقرّر أن تتألّف المدرسة من طابق واحد، بيد أننا لسنا بارعين كثيراً في التمسّك بقراراتنا، ثم إن يون ونولي وجدا أنه من الممتع كثيراً بناء مدرسة، فهما لطالما حلما بارتياد المدرسة في حداثتهما، وغالبًا ما قال أحدهما للآخر، إننا نبني الآن للأطفال، إننا نبني الآن للمستقبل، يجب أن يكون عالمهم أفضل من عالمنا. ولذلك أضافا طابقًا آخر، وهو أضيق قليلاً، وبدا على نحو ما كما لو أنّ البناء لم يفتح عينيه على وسعهما فقط، بل أيضًا قد أخذ نفسًا عميقًا. لم يوافق المجلس البلدي على أفكارهما بدون قيود أو شروط، واتخذ من

قلّة المال عذرًا، بيد أنّ الأخوين كانا يدّخران المال الذي كسباه من بناء بيت البرج لإيلايس النرويجي، بناء هائل الضخامة يقع في المربع المركزي، كانت تلك أول مرة يحصلان فيها أجرهما نقدًا، وقد احتفظا بالمال في البيت، ولم يرغب أي منهما في صرفه ولا وجدا سببًا مناسبًا بما يكفي ليفعلا ذلك. وأخيرًا أقدما على بناء المدرسة، رأيا فيها مشروعًا جديرًا بالتنفيذ. هذا إلى جانب أننا وُفقّنا بضربة حظّ ميمونة لا تقدّر بثمن: ارتطمت بالشاطئ سفينة محمّلة بخشب نرويجي ممتاز على مقربة من هنا وهي في طريقها إلى أكوريري. كانت قد سعت إلى ملجأ من عاصفة، غامرت ولجأت إلى الأزقة البحرية؛ تلك الفكوك الهائلة التي تفغر أفواهها في وجه البحر القطبي، ولم يتيسّر لها مطلقًا الخروج والنجاة. غرق فردان من طاقمها، لم يعثر على جسديهما قطّ، وهكذا أضيفا إلى مجموعة صيادي السمك الكبيرة التي تهيم على وجهها في قاع البحر، حيث الغرقى يثرثرون في ما بينهم عن خبب فرس الزمن الوئيد، وينتظرون النداء الأخير الذي وعدهم به أحد ما في سالف الأيام، ينتظرون أن ينشلهم الله، أن يصطادهم بشبكته المحبوكة من النجوم، يجففهم بأنفاسه الدافئة، يسمح لهم بالمشي بأقدام جافة في الجنة، حيث لا يأكل المرء السمك أبدًا، يقول الغرقى، بتفاؤل أبدي ويتشاغلون بالتفرّج على المراكب، يعبّرون عن دهشتهم من معدّات الصيد الحديثة، يلعنون القمامة التي يخلفها الناس وراءهم في البحر، وأحيانًا يبكون تأسيًا على الحياة، يبكون كما يبكي الغرقى، وهذا هو سبب ملوحة البحر.

كان من المؤسف طبعًا أن يغرق البحّاران وتتحطّم تلك السفينة، إلا أنّ الخشب الذي تحمله جاء أشبه بلُقية عظيمة أتاحت في الواقع بناء طابق المدرسة الابتدائية العلوي.

نولي مات فجأة وهو يدق آخر مسمار، مات في تلك اللحظة بالذات، بووم! تردّدت في الأرجاء وهو يدقّ المسمار، تردّدت في قلبه، ثم لم يُسمع أيّ شيء آخر

من نولي. انهار ببطء إلى الأمام، لامست جبهته طرف البناء قرب المسمار الذي بقي نصف ناتئ، وما زال كذلك، تخليدًا لذكرى نجار جيد، زميل نبيل. مسمار عال جدًا بحيث لا يمكن أن نعلّق عليه شيئًا باستثناء قطرات المطر وبيوت العناكب. ليس ممكنًا قول الكثير عن حياة نولي، فقد مرّت بدون أحداث كبيرة، لم يكن هناك أقاصيص مميّزة تروى عنه، ولم يكن من السهل بأيّ حال كتابة نعيه. مع ذلك بقينا مدة طويلة نشعر بالفراغ الذي خلّفه بعد رحيله. كان من الطبيعي أن يكسر موته خاطِر شقيقه، كانا عازبين ومتفاهمين وعاشا معًا وحدهما منذ أن مات والديهما. كنّا أحيانًا نجد يون يبكي وحده في العراء، أو وهو عاكف على مشروع ما ومطرقته بيده. وقد أثّر بنا هذا كثيراً وأربكنا. لبثنا نراقبه يذوي ويتحوّل إلى مخلوق بائس من الحزن والأسى والوحدة. وليس من المغالاة القول إنّ إحدى قدميه كانت تهمّ بوطء الطبقات السفلى عندما جاءته غونهيلد؛ الخادمة التي أنجبت طفلاً من القسّ ثورفالدر، تتذكّرون طبعًا ليلتهما معًا عندما لم يخلع ثوب الكهنوت، جاءت تزور يون في شقة الأخوين التي استحالت إلى حاوية قمامة.

حسنًا يا يون العزيز، من المؤكد أنني أنا وأنت يتيمان في هذا العالم، أنا أكدح بجدّ من أجل الطفل الذي رفض صاحب ثوب الكهنوت المنحوس الاعتراف به، وليس لدي من يعيلني، ولا أحد مطلقًا أبادله الحديث في الأمسيات، ناهيك عن أي أمر آخر. وها أنت هنا وحدك مع قلبك الطيب. في وسعك أن تكون عاملاً مجدًّا بما يفوق الوصف، لكن ما أنت عليه الآن شنيع. أعتقد أنك تضمحل من الوحدة والأسى. طبعًا هذا ليس معيبًا، إلا أنه أيضًا غير ضروري على الإطلاق. انظر يا يون، في وسع كلّ منّا أن يواصل الكدح وحده، ومن المؤكد أنني سأحيا، ليس بطريقة رائعة إنما بما يكفي لأتدبّر أموري من غير أن أجعل طفلي يشعر بالخجل، هذا لن يكون سهلاً ولن يكون لطيفًا. من الناحية الأخرى، أنت، يا يون

العزيز لن تنجح في الاستمرار وحدك طويلاً، فهذه طبيعتك. أنت عامل مجدّ ورجل كالجوهرة ولكن مرهف الإحساس إلى حدّ بعيد. منحك الله قلبًا طيبًا وجميلاً إلا أنه أغفل تقسيته. إنك تفقد كلّ شيء، وقريباً تفقد بيتك، قريبًا تفقد استقلالك، وفي النهاية تفقد الحياة بنفسها. ما الداعي لأن نسمح لهذا بالحصول، وإني لأتساءل، ما الهدف من ذلك؟ ما قولك يا يون العزيز في أن أنتقل إلى هنا... نظرت غونهيلد حولها، كان يون جالسًا على كرسيّ مهلهل ولم يستطع رفع عينيه عن وجهها، ولا عن نمشها المنتشر بأعداد هائلة... ما رأيك في أن أنتقل إلى جحرك هذا، ومعًا يمكننا العمل على جعله بيتًا عامرًا؟ أما ما يتعلّق بالحب فمن الطبيعي أنه ليس هناك ما يقال، بما أنّ أحدنا لا يكاد يعرف الآخر، بيد أنني على ثقة تامة من أن الولع سينشأ بيننا في المستقبل، وذاك، كما تعلم، ليس بالأمر البسيط. لدي شعور قوي بأنني يمكن أن أولع بك بسهولة، فأنت طيب جدًا، وزرقة عينيك هذه، يمكنني القول إنني قد أنسى نفسي تمامًا وأنا أتأمّلها! أنا من ناحية أخرى لست أضاهيك طيبة، بل أنا في الحقيقة كتلة من العيوب، إنما ربما لست سيئة كليًا، وأنا عاملة مجدّة بما لا يقبل النقاش وصادقة. ما رأيك في هذا يا يون العزيز؟ أنا يمكن أن أصبح الغلاف الصلب حول قلبك. طفلي غير معمّد، وثوب الكهنوت الجلف ذاك لا يسعى ورائي لأفعل، وهذا عجيب جدًا، بيد أنّ فكرة ما تراودني الساعة، وذلك بأن اسم نيكولاس سيكون اسمًا رائعًا للطفل، وبعده اسم يونسون إذا كان الأمر يهمّك. بالمناسبة، أليس لديك قهوة هنا، يمكنني أن أعدّها، أنت تعرف كم هو جيد أن يفكّر المرء وفي يده قدح قهوة طيب المذاق. على فكرة، ليس من طبعي الإسهاب في الكلام، أعتقد أنني منفعلة قليلاً، نعم، إنني أرى القهوة، ها هي هناك.

بعد ذلك بقليل فاحت رائحة القهوة في البيت. وأقدم يون النجار على تقبيلها في فمها، انهمكت فورًا في الترتيب ثم ذهبت لجلب الطفل من عند صديقتها. أأنت

عاجز عن النوم؟ سألته غونهيلد في تلك الليلة بعد أن كانت قد استيقظت على بكاء الطفل الذي هدّأته وهدهدته ليعود إلى النوم، ثم لاحظت أنّ يون صاح تمامًا، مستلق هناك بعينين مفتوحتين، لا يكاد يجرؤ على أن يطرفهما. ألا تستطيع النوم؟ سألته. لا، في الحقيقة لا، أجاب بنبرة معتذرة. أهو بسبب الطفل أتريدنا أن ننام في الردهة، يمكن أن أنتقل إلى هناك حالاً! نحّت الغطاء بسرعة، وكانت في نصف طريقها إلى مغادرة السرير عندما وضع يده الثقيلة المتمرّسة بالنجارة على كتفها بلطف، وقال بحياء، لا، لا تذهبي.

*

يرتعش برينيولفر. كان قد شرد عن نفسه، اتكأ على عمود الإنارة، اجتلت عيناه المدرسة وترك ذهنه يحلّق، كان الهواء مائلاً إلى البرودة، ووقوفه هناك فترة طويلة بلا حراك جعله يشعر بالبرد. كان مصباح الإنارة مطفأ أيضًا. يهتم باردور الحارس الليلي بمصابيح الشوارع ليلاً ويطفئها عندما لا تعود هناك حاجة لضوئها. لا تنتشر مصابيح الشارع بكثرة في أنحاء البلدة، وثمة مسافات طويلة بينها؛ إنها في الحقيقة مثل الحياة: عدّة لحظات وامضة تفصل بينها أيام قاتمة. يرتعش برينيولفر، يتنحنح، يبصق ثم يتابع طريقه. يسعل طفل في بيت مجاور سعالاً حادًا ومتواصلاً، ارأف الآن يا ربّ واحرس هذه الحياة، يصلي برينيولفر، ثم يحيّي مبتسمًا مدبرتي المنزل اللتين تتجهان نحوه ومعهما دلاء ماء في طريقهما إلى البئر، وكلهما ثقة من أنّ باردور الحارس الليلي قد قام بواجبه وكسر الجليد المتراكم على غطاء البئر خلال الليل. يشعر برينيولفر بسعادة لا يمكن استيعابها من مرأى المرأتين إلى درجة أنه يتوقّف، يفتح ذراعيه على مداهما، ثم يضمّهما بما يشبه عناقًا يتسع للمرأتين معًا، لو لم أكن

متزوجًا، يقول، لقبّلتكما الآن وتزوجتكما! تبتسم المرأتان من كلامه ومن مشهد عنق القنينة البارز من جيب القبطان. أفيكَ من الرجولة ما يرضي امرأتين؟ تقول إحداهما، إنها بريندس التي اختطف منها البحر زوجين والتي تربّي ثلاثة أطفال. ليتكِ تدرين فقط، يجيب برينيولفر ثم يضحك ويضع يده بين ساقيه. نعم، تقول بريندس، ليست العبرة بالحجم وحده، فتضحك المرأة الأخرى ثم تتجاوزانه وتتابعان طريقهما.

يستدير برينيولفر ليتأمّلهما وهما تبتعدان. بريندس أطول من رفيقتها بشبر تقريبًا، مشيتها مزيج من النبل والرقّة والتوتر، أُحبّها، يفكّر برينيولفر بذهول، ويضع يديه الاثنتين بحزم عند الناحية اليسرى من صدره، كما لو أنه يبغي منع قلبه من التمزّق والانفلات خارج تجويف صدره ليجري وراء بريندس، القلب الذي دقّ مرة من أجل زوجته أولافيا فقط التي عاش معها سنوات طوال لا تحصى، ولا رغبة لبرنيلفر في التفكير في هذا الآن. بدلاً من ذلك يراقب بريندس وهي تركع وتنحّي غطاء البئر. ليس هناك ما هو أحلى من تأمّل هذه المرأة، وربما هذا أفضل شيء في الحياة. إلا أنها تنهي ملء الدلاء بالماء، تبتسم في وجه برينيولفر ولا تلبث أن تختفي، فتصبح اللحظة من الماضي.

ينزع برينيولفر سدادة القنينة التالية، ينعطف من شارع المدرسة نحو الزقاق العتيق، داخلاً بذلك إلى الحي القديم. تقع مجموعات كبيرة من بيوت القرية الأقدم في هذه المنطقة، مساكن خشبية مختلفة الأحجام تعود إلى الحقبة الأخيرة من القرن الثامن عشر. أغلب سكّان الحيّ من صيادي السمك أو العمال البسطاء، بعضهم لديه دجاج مزعج في باحات بيوتهم الخلفية، وفي بعض الأماكن تكتظّ البيوت وتتجاور كثيراً بحيث تكاد تتلاصق. أولئك الذين أبحروا إلى بلدان أخرى، ورأوا عوالم مختلفة واستيقظوا تحت سماء غريبة عنهم حيث تحيط بهم لغات غير لغتهم، يقولون إنّ الحيّ القديم في أفضل حالاته يشبه الأزقة المتعرّجة والمحصورة التي

تفوق العدّ في المدن الكبيرة. لكن الناس من الطبقات العليا هنا يفضلون تحاشيه. وعندما وظّف ناظر المدرسة غيسلي ماله لشراء بيت هناك وانتقل إليه، أصاب الناس بذهول عظيم إنْ لم يكن قد تسبّب في فضيحة، فهو شقيق فريدريك الوكيل التجاري والقسّ ثورفالدر، وذلك الحيّ القديم لا يُعتبر مكانًا يليق بناظر مدرسة، علاوة على كونه من عائلة مهمة. لكن غيسلي قرأ الشِّعر الفرنسي، وبعض الشعراء الفرنسيين مصابون بلوثة من الجنون، ويوصون بكلّ أنواع الأشياء المريبة، ويحتمل أنّ هذا ما يجعل غيسلي لا يتبع الدروب السليمة المطروقة. وقد درج في بعض الأحيان على معاقرة الخمر هو وبرينيولفر، وانتهى بهما المطاف مرةً في بيفروست؛ المقهى الذي يدعوه الجميع سدوم، المُدار من قبل مارتا وأوغست والذي يقع في أطراف الحيّ القديم، حيث يؤدّي الطريق المنحدر هناك إلى الشاطئ. جيّد أن نكون هنا، فظيع أن نأتي إلى هنا، كان غيسلي يهذر بعد أن أمضى هو وبرينيولفر الليلة بحالها يشربان في المقهى، ولمّا تسرّب ضوء الصباح الضعيف من النافذة الصغيرة، كانت مارتا المخمورة حتى الثمالة بين ذراعي ناظر المدرسة.

يشرب برينيولفر جعته، يعتصره التوق إلى أن يفرغها كلها في جوفه دفعة واحدة، إلا أنه يرغم نفسه على التريّث، الانضباط جيّد، يغمغم لنفسه ثم ينصرف إلى التفكير في بريندس. أتراني أحبها؟ تدهشه الفكرة وتثيره. إنها جدّ حازمة وجدّ قوية، لا أحد يستوعب كيف تنجو من مصاعب الحياة وحدها مع ثلاثة أطفال. خطّط القاضي لارس مرة لتفريق العائلة، لكنّها بطريقة غامضة نجحت في درء ذلك التهديد. أحياناً يبدو كما لو أنّ هناك شيئًا غير دنيوي في بريندس، شيئًا يجذب اهتمام الآخرين، شيئًا حيّر رجالاً كثرًا ممّن لا يمكن أن يخطروا على البال.

زوج بريندس الثاني كان على متن "سيكسرين" مع أخيها وأبيها الذي يعرفه برينيولفر معرفة جيدة، فقد كانوا رفاق طفولة، والآن هو ميت. استعادة ذكراه

جعلت برينيولفر يتسمّر في أرضه، رفاق الطفولة لا يمكن استبدالهم، ولهذا وجد برينيولفر نفسه مضطرًا إلى الإتيان على ما تبقى من قنينته. هناك في أغلب الأحيان براءة وضوء وشيء أشبه بسماء صافية فوق رفاق الطفولة. يتنهّد برينيولفر حسرة على ذكرياته، وحسرة على مشروبه الذي قضى عليه. كان يتكئ على سياج بيت خشبيّ صغير مع ملحقه المتواضع الذي يمكن أن يكون أيّ شيء؛ مخزنًا أو سقيفة أدوات أو مشغلاً. هو يعرف الأشخاص الذين يسكنون هناك، صياد سمك تابع لإحدى السفن وزوجته وخمسة أطفال، والزوجان يتجادلان بلا نهاية ويتبادلان الشتائم والسباب، ولا أحد يفهم ما يبقيهما معًا، إنما نحن على ما يبدو لن نستوعب أبدًا كنه هذا الصمغ الذي يلصق مخلوقين متنافرين معًا طوال حياتهما. صمغ قوي جدًا إلى درجة أنه لا شيء يستطيع فصلهما ولا حتى الكراهية. يتأمّل برينيولفر قنينته، ماركة غاميل كارلسبيرج، وهي فارغة بطريقة تثير الشفقة، والزمن الطويل الذي مرّ منذ أن كان طفلاً يثير الشفقة أيضًا. ينظر برينيولفر إلى قدميه ويغمغم، هيا الآن امضيا قُدمًا. تلبيانه ببلادة، فيمشي متثاقلاً وهو يفكّر في صديقه ويفكّر في ابنته بريندس التي فقدتهم كلهم أجمعين في لحظة واحدة: الزوج والأب والأخ. كان أبوها ربّان المركب، ولم يكن جو البحر المذرور بالرياح بالغ السوء. وعندما شوهد المركب آخر مرة كان شراعه مرفوعًا والأب يجهّز خيوط الصيد، ويبدو أن عاصفة فجائية انتزعت الشراع وقلبت المركب في طرفة عين. عاصفة ما هبّت إلا لتغرق ستة صيادين، كانوا قد جهّزوا خيوط الصيد، كلّ واحد فيهم غارق مع أفكاره، يجمعهم أمل مشترك بصيد وافر، يعلو المركب ويهبط بروية، ثم فجأة هم في البحر ولا أحد منهم يحسن السباحة، تحتشد ذكرياتهم بينما يضربون الماء المحيط بهم كما لو أنهم يسعون إلى التمسّك بشيء، إذ على الرغم من أنّ الذكريات ثمينة، هي لا تبقينا عائمين ونحن في البحر، لا تنقذنا من الغرق. لكن مَن ينبغي أن

يحاول الربّان إنقاذه، ابنه أو زوج ابنته أو ربما نفسه؟ يتردّد، وفي غمار تردّده يغرق.

يمضي برينيولفر بتكاسل قاطعًا طرقات الحيّ القديم المكتظّة. يفكّر مليًا في القيام بزيارة مفاجئة لغيسلي، فقد سمع أنّ ناظر المدرسة غارق في إحدى نوبات السكر، إلا أنه يغيّر رأيه عندما يقترب من بيت غيسلي ويتابع تسكّعه. يشعر بالرغبة في البقاء وحده فيمضي قدمًا وهو يخوض الثلج بصعوبة، لم يبدأ لولي وأودور بعد في جرف الثلج هنا، فهذا الحيّ هو آخر الأحياء التي يتولّيان أمرها. أولئك الذين لا يملكون الكثير من النفوذ يُدرجون عادةً في نهاية القائمة. ثمة ضوء كامد فوق البيوت وحول برينيولفر، كما لو أنّ الهواء أكثف قليلاً أو ربما هو قذر نوعًا ما، ويستغرق برينيولفر في التفكير في حياته.

من يستوعب ماهية الوجود؟

في وقت ما كانت الأشياء أسهل بكثير، أما الآن فالأمور كلها مغرقة في الثقل ولم يعد وجود المرء في الحياة ممتعًا كالسابق. من ناحية أخرى كانت الأحوال هنا أصعب في الماضي، آنذاك لم يملك هو وأولافيا مالاً كافيًا، وكان أطفالهما الثلاثة غالبًا ما يقعون فريسة المرض، ولطالما جلس هناك ليلة تلو ليلة وهذا الطفل أو ذاك بين ذراعيه، يستمع والقلق ينهشه إلى أنفاس الطفل المتقطّعة، ويحاول يائسًا طرد الموت بعيدًا عن الأجسام الصغيرة الهشّة. وقد نجح في ذلك بطريقة ما، وعاشوا كلهم، البنتان، والصبي جيسون الذي خلّف حسرة في قلب أبيه برفضه العمل في البحر. كانت المرة الوحيدة التي ركب فيها جيسون البحر عندما غادر مع شقيقته الصغرى وصديقها إلى أميركا قبل عشر سنوات، يجب أن تنتقلوا إلى أميركا، يقولون في كلّ رسالة لعينة تقريبًا، الأحوال عندنا أفضل بكثير مما هي هنا عندكم، ومن المفيد حتمًا أن تدفئ الشمس عظامكما الكليلة الهرمة. عظامي ليست كليلة مطلقًا، يغمغم برينيولفر بينه وبين نفسه، اذهبي أنت، يقول بحقد مخاطبًا أولافيا في

ذهنه، سيكون التخلّص منك جيدًا! في اللحظة نفسها يعضّ لسانه. لماذا ما عاد النظر إليها ممتعًا؟ مرة كانت الحياة هي الاستيقاظ إلى جانبها، تحسّس جسدها المكتنز، إراحة ذراعه حول نهديها الضخمين، ثم ربما الاكتفاء بضمّها وهو يقول شيئًا ما، أي شيء يخطر له، فتقول هي أيضًا شيئًا مماثلاً. كان ذلك في غاية الروعة. أين اختفت المسرّة إذًا؟

برينـدس، يهمس برقة، يحاول ترديد الاسم بصوت مسموع، كما لو أنه يستكشف مفعوله، يستكشف مذاقه. أوه، كم من الممتع أن يقع المرء في الحبّ ثانية، حينها يكون كلّ شيء في قمّة التألّق. برينـدس، مريح قول هذا الاسم، يكرّره، ويطلقه في الفضاء فيرتعش الهواء قليلاً.

لا، ليس ممكنًا استيعاب ماهية الحب. ونحن لا نسبر أبدا أغواره. نعيش مع أحدهم ونكون سعداء، هناك أطفال وأمسيات هادئة وأحداث كثيرة عادية تقريبًا لكن جيدة، ومغامرات صغيرة في بعض الأحيان، ثم نفكّر: هكذا ينبغي أن تكون الحياة، ثمّ نجتمع بشخص آخر، وربما لا يحصل ما هو أكثر من أن تغمز بعينها وتقول شيئًا عاديًا، ومع ذلك يُقضى علينا، نغدو بلا حول ولا قوة، يقصف القلب، يتورّم، يتهاوى كلّ شيء ما عداها، ثم بعد عدة أشهر أو بضع سنوات، نعيش معًا، ومع انهيار العالم القديم يظهر عالم جديد آخر؛ أحيانًا ينبغي أن يفنى عالم ما ليفسح المجال لولادة عالم آخر.

تخبو ابتسامة برينيولفر قليلاً عندما يفكّر في أولافيا. تطالعه في بعض الأوقات بعينيها الواسعتين اللتين تذكرانه بعيني حصان حزين، إذا أقمت علاقة مع برينـدس سأقضي عليها قضاءً مبرمًا. يعاود الحزن برينيولفر، يتابع تسكعه، يمشي متثاقلاً في أنحاء الحيّ القديم، يعتصره الحزن على حياته، على توقّفه عن الشعور بالبهجة

وهو يلامس أولافيا، ذاك ليس لأنّ نهديها المكتنزين قد فقدا صلابتهما، ليس لأنّ جسدها يبدو أكثر ذبولاً، لا، هذا شيء مختلف كلّ الاختلاف، هو ببساطة لا يعرف ما الحكاية، وهناك طاقة مدمّرة في عدم التأكّد. أحيانًا يعتريه غضب عارم عندما تلاحقه عينا الحصان الحزينتان في الشقة الصغيرة، ولذلك عاجل إلى الخروج باكرًا هذا اليوم، شرب قهوته الصباحية بسرعة كبيرة جعلته يحرق لسانه وما زال يشعر بالألم، تمتم قائلاً شيئًا عن اضطراره إلى الاهتمام ببعض الأمور، وكان لا بدّ أن ينطلق خارجًا قبل أن يندلع الغضب ويظهر على السطح متجسّدًا بكلمات بشعة ومؤذية. انطلق خارجًا وليس في ذهنه أي فكرة عما عليه فعله ما عدا التسكّع في متجر تريجفي، حيث يثرثر في أمور تافهة، يتفحّص سلعًا لا تعنيه ومع ذلك يعرف كلّ شيء عنها، وليس هناك ما يتشاغل به إلا قراءة نسخة من صحيفة إرادة الشعب أعاره إياها غونار. قرأ الصحيفة بعناية على الرغم من أنّ شيئًا لم يأسر انتباهه إلا إعلان يقول: فُقدت في الشوارع هنا محفظة عملةٍ معدنية فيها ٢٠ كرونر من الذهب، وعدة بنسات من الفضة والنحاس وخاتم ذهب، نلتمس من يعثر عليها إيداعها في دكان الطباعة مقابل جائزة مُرضية. وفكّر برينيولفر ساعتها، يا للجحيم اللعين، إنه من الرائع العثور على المحفظة والاحتفاظ بالمال، عندئذٍ في وسعي ان أشتري الجعة والويسكي بقدر ما أشاء من غير أن أضطر إلى تسجيل أي دين، لكن لا، أنا لا أملك القدرة على مثل ذلك النوع من الاحتيال، أنا لا أعدو كوني شخصًا واهنًا ملعونًا، ثم إنّ الناس لن يلبثوا أن يتساءلوا من أين حصلت على هذا المال؟ وماذا يكون جوابي؟ يخوض برينيولفر الثلج على طول طرقات الحيّ القديم الضيقة، يخوضها وهو حزين. ربما يجب أن يضع هذا الإعلان في الصحيفة:

فُقد هنا في شوارع البلدة هدف الحياة، ونعمة
النوم، والبهجة بيني وبين زوجتي، وابتسامتي،
والأمل المتلهّف. نلتمس من يعثر عليها إيداعها
في دكان الطباعة مقابل جائزة مُرضية.

فجأة يجد نفسه واقفًا أمام متجر سنوري.
تبًّا.

لم يكن من المفترض أن يحدث ذلك بهذه السرعة. ما زالت هناك دروب لم يطأها في الحيّ القديم، وما زالت لديه أشياء مختلفة للتأمّل. كان ينبغي أن أذهب وأزور غيسلي، لو فعلت لكنت الآن قابعًا هناك ثَمِلا وسعيدًا، يفكّر برينيولفر، وينظر مقطّبًا إلى المبنى ذي السقف الواطئ والطويل نوعًا ما، وعلى جانبه لوحة تقول: متجر سنوري، مكتوبة بحروف ذهبية على لوح بني، ألوان مخدّرة، حياة مخدّرة. يمتدّ المبنى طوليًا إلى حقل هانسون، وفات الأوان على برينيولفر ليستدير ويرحل بعد أن رآه عاملا المتجر ولوّحا له بحبور، الأب والابن؛ بيورن وبيارني. ونحن نعاني دائمًا من مشكلة تذكّر أيهما هذا وأيهما ذاك، وكثيراً ما نضطر إلى التخمين ونحن نخاطبهما، وتهذيبهما وحياؤهما لا يساعدان في شيء، فهما بدلاً من أن يحاولا التصحيح يردّان بكلّ بساطة على أيّ اسم نخاطبهما به. لدى برينيولفر ذاكرة ممتازة، وبطبيعة الحال هناك تفاعل كبير بينه وبينهما ولا تعترض الأسماء طريقه، إلا عندما ينتشي بعد معاقرة الخمر، عندئذ تختلط أشياء كثيرة في ذاكرته، وكذلك تختلط الأشياء في حياته نفسها. وتلك القناني الثلاث جعلته منتشيًا. ولذلك يدخل ويقول ببساطة، تحياتي إلى الأب والابن.

لا تضاهي المساحة بين الجدران هنا تلك التي في متجر تريجفي، لا، هذا يشبه

مقارنة هضبة بجبل. تصرّ الأرضية تحت وزن القبطان الذي يصل إلى منضدة البيع ببضع خطوات فقط. يرتدي كلّ من الأب والابن سترة داكنة، كان سنوري قد فصّل السترتين لهما في تلك الأيام عندما كان العالم مكانًا مشرقًا. المتجر مقفر بعد الشتاء، ومعظم ما أُخذ منه من غير ضرورة ملحّة لن يُدفع ثمنه أبدًا. أغلب الزبائن من الحيّ القديم، وبعضهم يلجأون أول ما يلجأون إلى سنوري عندما يتفاقم حجم ديونهم في المتاجر الكبيرة. والقوم هناك لا يلومون الآخرين إذا اشتروا بعض سلعهم من متجر سنوري، فالتجار يعرفون كيف تسير الأمور، إذ عندما يُقبِل الصيف مع السمك والعمل الوافر، يعمد الناس إلى تسديد ما عليهم من مستحقات للمتاجر الكبرى ويهملون سنوري. أين سنوري، ينوي برينيولفر أن يسأل حالما يقف أمام منضدة البيع ويكون الصّرير قد همد وكفّت الأرضية عن الشكوى، إلا أنه يسمع أنغام أرغن رقيقة تأتي من شقة سنوري في الطرف الآخر من البيت. يجلس سنوري أمام الأرغن، وكتاب النوتات الموسيقية مفتوح على مقطوعة موزارت المرحة المعنية ببعث الحياة في الصباح، المعنية بدغدغة التفاؤل، أو بالأحرى نشله من الأعماق. بيد أنّ التاجر تدبّر أمر عزف المقطوعة إلى نهاية الصفحة الأولى فقط ولم يستطع المضيّ أكثر، ليس اليوم، اليوم هو أبعد ما يكون عن موزارت، بينهما المحيط ونصف أوروبا. ولذا أغمض سنوري عينيه وترك أصابعه تسرح وحدها، فلاحقت نوتة الموسيقى التي في صدره، وتدفّقت الظلمة من الأرغن مخترقة الجدران الخشبية. هذا على أيّ حال لم يؤثر كثيراً على الأب والابن، وبقيا ينظران إلى القبطان وهما يبتسمان بحبور، أو بالأحرى ينظران ويبتسمان نحو الأعلى، لأنهما لا يصلان إلا إلى ما تحت ذقنه، وهو في الغالب ينظر إلى يافوخيهما. شعرُ الابن قليل عند قمّة رأسه، وهناك بقعة صلعاء عند قمّة رأس الأب الذي عمل في المتجر منذ البداية، والاثنان مخلصان جدًا ولا يزعجهما الأجر المتقلّب. لا بدّ من أنّ الابن يقترب من

الثلاثين وما زال يقيم مع والديه. يرجع الأب والابن خطوة إلى الوراء في أغلب الأحيان عندما يأتي أحدهم، من باب المجاملة الفطرية. تورفيلد؛ الزوجة والأم تجلس عادة معهما وراء منضدة البيع، تمدّ يد المساعدة في حال الحاجة إليها، وإلا فتنهمك في بعض الأشغال اليدوية، تحيك سترة وجوارب وقفازات لرجليها ولسنوري كذلك. يكون الثلاثة في أفضل أحوالهم وهم مجتمعون؛ تورفيلد والأب والابن، ولا يحتاجون إلى تبادل الكثير من الكلام، يبقون هادئين، لأنّ التقارب كفيل بقول كلّ ما تستدعي الحاجة إلى قوله. تنادي تورفيلد القبطان دائمًا بعبارة فتاي المحبوب، على الرغم من عدم وجود اختلاف كبير في السنّ بينهما، وتحيّيه بتربيت خدّه بيدها الخشنة ولكن الدافئة، وتحتاج إلى الوقوف على رؤوس أصابع قدميها لتصل إليه. إلا أنها الآن ليست في أيّ مكان هنا، وهذا يشعر برينيولفر، لسوء الحظّ، بالارتياح، ويشعره أيضًا بالخزي، فيسأل، كأنه يطمح بذلك إلى التخفيف عن نفسه، أين تخفيان تورفيلد أيها الشيطانان الصغيران، لا يمكن أن تكونا شرّيرين جدًا بحيث تتركانها وحدها في البيت؟! يتصنّع برينيولفر المرح، ويبتسم ابتسامة عريضة، لكنه يشعر بوخز في صدره عندما يتكدّر وجها الأب والابن فجأة، ثم يبتسمان معًا، إنها تشعر بوعكة خفيفة، يجيب الأب بيورن أو ربما بيورني.

الابن: تعاني من كحّة شديدة سيئة.

الأب: كان نومها مقلقلاً كثيراً.

الابن: أو ليس مستقرًا بما فيه الكفاية.

الأب: لا. وحرارتها عالية.

الابن: إنما ليس كثيراً.

الأب: لا، لا، إنه لا شيء.

الابن: غدًا تتحسّن وتعود إلى طبيعتها.

الأب: نعم، إنه لا شيء يُذكر.

الابن: لا، لا شيء على الإطلاق، ليس الأمر كذلك.

الأب: لا، لا شيء على الإطلاق.

يقفان متلاصقين، راحاتهما على منضدة البيع، أربع أيدٍ أنيقة ودقيقة مصطفة جنبًا إلى جنب، وصاحبا تلك الأيدي ينظران إلى برينيولفر بلهفة غير متوقّعة، كما لو أنهما يحاولان إقناعه، وأنه من المهمّ أن يوافقهما. وبالتالي يبتسمان ابتسامات عرفان عندما يغمغم قائلاً، لا، طبعًا إنه لا شيء. من ناحية أخرى يشعر أنه أسوأ خائن ويقول في معمعة الحرج الذي انتابه؛ اليوم أبدأ في إعداد السفينة وتجهيزها. نعم بالضبط، ما مررت إلى هنا إلا من أجل هذا، أيمكن أن تخبرا سنوري، ليس لديّ وقت لأدردش معه الآن، السفينة تنادي يا فتيان، وعلى القبطان أن يلبّي النداء! يستدير على عقبيه فجأة حتى لا يرى الفرح والامتنان اللذين يضيئان وجهيهما، يخطو نحو الباب، يتبعه الأب راكضًا وفي جعبته ما يريد قوله، بيد أنّ برينيولفر يضيّع عليه الفرصة، يفتح الباب وينطلق مسرعًا تاركًا بينه وبين المتجر مسافة مُعتبرة. يصيح الأب بكلمات الوداع والشكر من ورائه؛ خناجر صغيرة حادّة تستقرّ في ظهره. قبل أن يحول بينه وبينهما بيت آخر، يلتفت برينيولفر وينظر، يرى الأب والابن عند مدخل الباب، ويشرعان في التلويح له حالما يريان وجهه، تهتز ذراع برينيولفر اليمنى ولكنها لا ترتفع، ثم يحجب عنه البيت المشهد، وبدلاً من المضيّ في الاتجاه نفسه، والانحدار نزولاً نحو اللسان الأدنى حيث ترسو الأمل عند رأس الشاطئ، ينعطف نحو الدرب التالي ويمضي في الاتجاه المعاكس تقريبًا.

# ١٢

عندما يعود الفتى وهيلغا من البلدة يجدان غيرترود في الخارج. يعودان مرهقين على الرغم من أن الفتى هو في الأساس من ينوء بمعظم الأحمال، والدم يغطيه من عدم اليقين الذي يحوم فوقه مثل طائر خرشنة زاعق ينهش رأسه. يرى غرابين يقفزان بطريقة خرقاء على مسافة قريبة من غيرترود التي تنثر بعض الطعام على الثلج أمام البيت، وهناك غرابان آخران يحطّان على السطح وينتظران، كأنهما قصاصات سوداء مقتطعة من الليل. تتوقّف هيلغا في وسط الطريق، يبدو أنها تفعل ذلك لئلا تفزع هذه الطيور السوداء، لم يسبق أن رأى الفتى في يوم غرابًا يدنو مقتربًا كثيراً من أيّ إنسان. في وسع غيرترود أن تمدّ يدها وتلمس الغراب الأقرب منها. كانت تنحّي الثلج جانبًا، تشكّل بقعة أرض كبيرة خالية منه، وتنثر شيئًا عليها. ما نثرته يبدو لعيني الفتى أنه مثل قطع لحم، يلقي نظرة على هيلغا ويلاحظ أنها غير متفاجئة على الإطلاق. يقول مصدر من المصادر إنّ الغراب يأتي من الجحيم، وإنه قد طار خارجًا من بين فكيّ الشيطان مجللاً بسواد كالفحم، وقد أعاره الشيطان صوته ومكره. ونحن نطلق على غيرترود أحيانًا لقب أمّ الغربان. بدأت تطعم الغربان بعد

فترة قصيرة من قدومها إلى هنا، ولم يكترث أهل القرية بهذا، مثل أيّ شيء آخر بدأت تقوم به. إنّ الغراب طائر مميّز، كان غوديون قد قال عندما تذمّر صديقه الموقّر ثورفالدر لأنّ غيرترود تجذب الغربان إلى البيوت، ولأنه ليس من المفرح أبدًا أن يستيقظ المرء على نعيقها المشؤوم. يجب أن تدرك هذا يا غوديون! قال له. عندئذ نظر غوديون إلى الفضاء وأجاب بعد تفكير عميق، قرأت في كتاب ما أنّ صوت الغراب في غابر الزمان كان مختلفًا وأكثر رقة، بيد أنّ الله، لغاية في نفسه، أخذه منه وأعطاه بدلاً من ذلك صوتًا يُفترض أن يذكّرنا بخطايانا، طبعًا هذا مجرّد هراء لعين، ومع ذلك يمكن أن يكون الهراء مسليًا، أو ماذا تعتقد يا صديقي؟ ما قاله ثورفالدر بعد ذلك قليل، كان آنذاك يعاقر الخمر، وكان مؤخّرًا قد أساء التصرف كثيرًا، وانتهى إلى سدوم ومات هناك، وبالتالي فضّل ألا يبدي أيّ اهتمام بمناقشة الخطايا والضمير وكفّ عن المجيء على ذكر الغربان. لم يلمّح لا من قريب ولا من بعيد إلى أنها في معظم الأوقات تحطّ بأعداد زوجية على حافة سقف الكنيسة عندما يجرجر نفسه إلى هناك في الصباح الباكر، وأنها ما فتئت تفعل ذلك منذ أن بدأت غيرترود تطعمها. أمّ الغربان. لقب يلائمها. كان شعرها أسود مثل جناح غراب، وكانت عيناها مظلمتين، قطع فحم هجعت ألف سنة في باطن الأرض من غير أن تبصر أيّ ضوء أبدًا. تقول أكبر إشاعة عنها إنّ هناك نعيق غراب كامن في صدرها، إنما لا يجدر بالمرء أن يصدق كلّ ما يقوله الناس. يختطف الغربان قطع اللحم، يطير ثلاثة منهم إلى السطح ليتدبّروا أمر أكلها، ويحطّ رابع على سقف بيت ثورفالدر وينعق مرتين، ربما بغية ترويع شخص ما في الداخل.

تنتظر غيرترود عند البوابة. تعاين الفتى فتصطك ركبتاه قليلاً، يقتربان كثيرًا منها هو وهيلغا فيرى نمشها الباهت، وفي الحال يشعر أنّ وجهها مدين بالعرفان لذلك النمش، إذ بدونه، يصبح ذلك الوجه بعينيه المغرقتين في السواد وبعظمتي الفكّين

العاليتين باردًا ومنفّرًا. تمّد يدها، يضع المشتريات أرضًا، وللحظة تطوّق راحتها الباردة راحته. مرحبًا تقول، وفي صوتها بعض الخشونة والقتامة، فيلتفت إلى الغربان ملقيًا عليها نظرة خاطفة.

ثم يدخلون صالة الاستقبال.

تجلس غيرترود على مقعد ثقيل أخضر، ويجلس هو على أريكة ذات وسائد كبيرة وغطاء مذهل في نعومته حتى إنه ربّته غريزيًا كما قد يربّت كلبًا، يتأمّل باهتمام بالغ منضدة مكتب فيها أدراج صغيرة كثيرة العدد، تلاحق غيرترود عينيه وتقول، أيعجبك المكتب؟ إنه كبير، يجيب، وفيه أدراج كثيرة. نعم، تقول، ينبغي أن يمتلك المرء صندوقًا صغيرًا لا يكون الوصول إليه إلا بمتناول قلّة من الناس، والأفضل أن يقتصر هذا على مالكه فقط. خشونة صوتها ليست واضحة جدًا في الداخل، فهناك صوتها أرقّ وأكثر تراخيًا. تستقرّ عيناها السوداوان على الفتى، أمّ الغربان، تطلق هذه العبارة نيرانها على ذهنه من غير أن يكون قادرًا على فعل شيء حيالها، فهو لا يملك سيطرة كثيرة على ما يهاجم تفكيره. إنّ الإنسان مخلوق غريب الأطوار. فقد سخّر لنفسه طاقات الطبيعة، قهر المصاعب التي يكاد يكون قهرها مستحيلاً، هو سيد الأرض بلا منازع، ومع ذلك سلطته على أفكاره وعلى الأعماق الراسخة تحتها قليلة جدًا، أيّ شيء يسكن هذه الأعماق، وكيف يظهر ويخرج إلى حيّز الوجود؟ ومن حيث يأتي، أيأتي ويخضع للقوانين أم أنّ الإنسان يسافر في رحلة الحياة وفي داخله تعتمل فوضى خطيرة؟ يحاول الفتى دفع كلّ ما هو غير ضروري بعيدًا عن ذهنه، نعيق غراب في صدرها، روايات عن غيرترود وقبطان بحر أجنبي. هي ترتدي قميصًا أبيض وتنورة سوداء طويلة، أتدعى تلك تنورة حقًا، إنه ليس متأكّدًا من هذا، الشَّعر الأسود المسترسل على كتفيها وعلى المقعد الأخضر منفوش أو ربما أشعث، كما لو أنها لم تكترث بتسريحه، تجلس في المقعد بالعرض تقريبًا،

ترتّب الوسائد بحيث تجعلها عند الجزء المستدقّ من ظهرها، تدلّي ساقها فوق إحدى ذراعيها، مثل بنت صغيرة أو طفلة رضيعة، إنما من المؤكّد أنها في الخامسة والثلاثين من العمر. على النقيض من ذلك، يجلس الفتى منتصب القامة في هذه الأريكة الفاخرة ويشعر بالخجل من بنطلونه الصوفي المبقّع. إنه من المزري أن يشعر بالخجل من مثل هذه الأشياء في حين أنّ صديقه مات مؤخّرًا، تجمّد حتى الموت أمام عينيه. من المزري أن يشعر بالخجل عندما تبدو الحياة خالية من أيّ هدف، من أيّ معنى، بل وهو يخطط لأن يجعل البحر يأخذه الليلة، وأنا على الأرجح سأبقى سخيفًا إلى اللحظة الأخيرة، يفكّر بحزن. تمرّر غيرترود بنصر يدها اليمنى على شفتيها، ببطء بالغ، ثم تعضّ أسنانُها البيضاء البنصرَ بلطف، والسنّ القاطعة التي يراها قبالته حادّة كأنها تعود لوحش مفترس. تأتي هيلغا بالقهوة والبسكويت أو الكيك على صينية، صعب عليه هو الذي عاش جميع لحظات حياته في بيت عادي في الريف وفي محطّة صيد سمك أن يميّز بين البسكويت الفاخر والكيك. الصينية مصنوعة من الفضة على الأغلب، الفناجين بيضاء مزخرفة برسوم أوراق الشجر، أف، يقول في ذهنه الذي لم يعتمل فيه شيء آخر غير هذا التعبير.

أف.

ويخلو رأسه من كلّ شيء تمامًا.

عقار فارغ أخلي على وجه السرعة.

يحدّق في الفراغ والدمّ يدوي في أذنيه مثل هدير أمواج متصاعد في صخبه. تبدو هيلغا كأنها تقول شيئًا. فهي في أدنى الأحوال تحرّك شفتيها، فيسأل، ماذا؟ تنظر إليه غيرترود التي تحتاج إلى أن تدير رأسها خمسًا وأربعين درجة لتفعل ذلك، يتناثر شعرها الأسود كالجناح على نصف وجهها، وعلى شفتيها يلوح شبح ابتسامة. أنا في رواية! تخطر له هذه الفكرة وتهبّ لنجدته، تنقذه، لقد قرأ في مكان ما عن هذا

كلّه: أريكة ومقاعد وفناجين كتلك، وهذه المأكولات التي تُسمّى بسكويت أو كيك وامرأتان لا يفهمهما. هذه رواية، يفكّر بسعادة، بل حتى يصبح في وسعه الابتسام، نعم أنا في رواية. تصمت دندنة الدمّ في أذنيه، إنه عرضة لفقد سمعه، تخبر هيلغا غيرترود، وصوته أيضًا. لا أعرف ما إذا كنت قادرًا على شرب القهوة من هذه الفناجين الفاخرة، يقول عندئذ كأنه يعتذر، ويضيف، ما صادفت مثلها إلا في الروايات، وقد قصد من جملته الأخيرة التوضيح، بيد أنّ وقعها يبدو طبعًا مغرقًا في السخف. تتبادل المرأتان النظر. تجلس هيلغا على كرسي عالي الظهر، تبتسم، ولكن ابتسامة واهنة بالتأكيد، مع ذلك لا يداخله الشكّ في أنّ هذا التبدّل الطفيف في عضلات وجهها هو ابتسامة ومن المحتمل أنها في صالحه.

لا ينبغي أن تسمح لنفسك بالانزعاج من مرأى الفناجين الفاخرة، تقول غيرترود بصوت رقيق متراخٍ، لكن مع شيء من الخشونة الكامنة فيه. نعيق الغراب الذي تبقي وثاقه مُحكمًا، يفكّر الفتى عاجزًا بكلّ بساطة عن ضبط خياله، ولا قليلاً. لا يستلزم الشرب من فناجين فاخرة أو الأكل بأدوات مائدة ثمينة موهبة خاصة، مع أنّ هذا قد يكون بالتأكيد سوء فهم واسع الانتشار. الإنسان مخلوق، ربما هو مخلوق نبيل في أحسن الأحوال، ويحتاج طبعًا إلى أن يأكل، أواني الفضة والخزف لا تغيّر تلك الحقيقة، بيد أنّ الفضة كثيراً ما تغيّر الإنسان، ونادراً ما يكون هذا إلى الأفضل. أترغب في تدخين سيجارة، تضيف، وبحركة سريعة تتناول علبة فضية اللون، تظهرها كأنها تعرض نوعًا من السحر، وتسحب منها سيجارة نحيلة. يقول الفتى لا شكرًا، بينما تقبل هيلغا واحدة، تنحني إلى الأمام نحو غيرترود لتشعلها، وتستنشق المرأتان الدخان. تحبس غيرترود الدخان في صدرها مدة طويلة، وتنفثه ببطء، ثم تنظر إلى الفتى بعينيها المظلمتين والدخان يتفرّق ويختفي، وتقول، يحزنني جدًا ما آل إليه مصير باردور، كان واحدًا من القلّة الذين أحببتهم فعلاً، إنّ

مصابك عظيم. يعبّ الفتى جرعة كبيرة من القهوة الساخنة تجعل الدموع تترقرق في عينيه، يكحّ مرتين، والتوق إلى باردور يكاد يشقّ صدره، ومع ذلك يقول، مثل أبله حقيقي، هذه قهوة طيبة المذاق جدًا. وطبعًا يندم على ما قاله. الوقت مناسب الآن، يفكّر، إذا جاء أحدهم وأصابه بطلقة رصاص في رأسه.

تنتظر غيرترود إلى أن يتمالك نفسه بعد نوبة السعال، وبعد أن يتسنى له، من غير أن يعرّض نفسه للإحراج، تناول رشفة أخرى من القهوة، ثم تقول، إن كنت تشعر أنك على ما يرام، نودّ أن نسمع منك كيف حصل ذلك.

لسببٍ ما لا يدهشه الطلب، ولا يجعله ينسحب منطويًا على نفسه، بل على العكس من ذلك يريد أن يطلعهما على كافة التفاصيل واللهفة البالغة تضطرم فيه، كما لو أنه من المهم أن يجلس مع هاتين المرأتين ويحكي عن تلك اللحظة التي فتح فيها عينيه ورأى رأس بيتور الأسود ينبثق من الأرضية، إلى أن انطلق من محطّة الصيد للقاء الليل. يروي الحكاية التي تمتدّ من الحياة إلى الموت. لكنه كان قد بدأ فقط في إخبارهما كيف رُفع باب الطابق العلوي القلاّب وظهر رأس بيتور من الأرضية كالشيطان بعينه وقال نجدّف اليوم، عندما قرع شخص ما الباب، باب المقهى على الأغلب لأنّ القرع بدا خفيفًا. توقّف الفتى عن الكلام، الجعة من متجر تريجفي تقول هيلغا وتقف، تسوي ثوبها بيديها، تعاجل الفتى بنظرة سريعة وتضيف، انتظرني لتكمل قصتك، فيهزّ رأسه المطيع، ويستمع إلى وقع خطواتها تزداد ابتعادًا. حدّثني عن نفسك في هذه الأثناء، تقول غيرترود، وهي لا تكاد تنظر إليه، فلا يُتاح له إلا التقاط لمحة من عينيها السوداوين كالليل وهي تدير رأسها إلى الجانب.

نحن لا نسأل أبدًا عن مثل هذه الأمور.

نسأل فقط عن أشياء سهلة الأجوبة، ولا نسمح لأحد بالاقتراب منّا. يسأل المرء عن السمك، عن العلف والخِراف، لا عن الحياة.

تجلس غيرترود أمامه مثل طفلة سيّئة التربية والليل في عينيها، وتسأله عما هو موغل في العمق، ويبدأ، كما لو أنّه ليس هناك ما هو عادي أكثر من ذلك، بل حتى لا يقول هه، لا يوجد الكثير مما يستحقّ أن يُقال، وهذا ربما كان وفّر عليه تكبّد مشقة كلّ شيء وجعله أيضًا يظهر احترامه للقوى العليا بالتزام جانب التواضع، لا، بل يقول مباشرة، غرق أبي وأنا في السادسة من العمر، منطلقًا في روايته من الجوهر نفسه.

غرق أبي وأنا في السادسة من العمر، فباتت أمي وحيدة معنا نحن الثلاثة، وكلّنا صغار، وأختي ما زالت رضيعة، تشتتنا بلمح البصر وقُذف كلّ منا في ناحية مختلفة. لا أعتقد أنّ هذا العالم الذي نعيش فيه عالم جيد بما يكفي. أتذكّر أبي على نحو ضبابي، وما أتذكره فعلاً جاء من أمي، فقد كتبت لي رسائل كثيرة تصفه فيها بالتفصيل. وصفته بطريقة حيّة التصقت بذاكرتي، ولا يكاد يمرّ يوم لا أفكر فيه، وأحيانًا أشعر أنه يرعاني ويبقي عينه علي حتى لا يغرقني الشعور بالوحشة. تلاحقني عيناه إلى قاع البحر.

يتوقّف عن الكلام، خائفًا تقريبًا وغاضبًا تقريبًا من نفسه لأنه انتزع قلبه بلا تردّد وعرضه أمام امرأة غريبة عنه، وها هو لابدّ في يده الممدودة مثل هُريرة عمياء تئن. منحته قعقعة القناني والأصوات الآتية من بعيد وقتًا لاستعادة رباطة جأشه. تكفّ غيرترود عن النظر إليه، كانت قد أدارت رأسها جانبًا لحظة بدأ في قصّ حكايته، وتشاغلت بتمسيد جناح الغراب المتهدّل على وجهها. أما الآن فتنظر إليه متفحّصة، بينما هو يحملق إلى الأرض كئيبًا ومفعمًا بازدراء الذات، يحملق إلى الغطاء الناعم المائل إلى الحمرة ورسوم الأزهار التي تتخلّله. كلّ شيء مغرق في الغرابة الآن. تمدّ غيرترود يدها لتأخذ سيجارتها نصف المحترقة، يسمع الصوت الخفيف الناجم عنها وهي تمجّها، يزداد توهّج جذوة السيجارة التي يحترق ما تبقّى منها.

الحياة جذوات متوهّجة تحمّي الأرض وتجعلها صالحة للسكن. يمكنك أن تخبرني بقية قصتك لاحقًا، تقول عندما بدأ الصمت ينيخ على الفتى وبدأ يضيّق الخناق عليه. بدا له أنّ هناك وميضًا من الدفء في صوتها، إنما لا ريب أنّ هذا من تلفيق خياله، يفكّر، ومع ذلك يشعر أنه أفضل قليلاً، أو أفضل بما يكفي ليرفع نظره ويتأمّل ما حوله، يتفحّص الصالة المقسّمة جيدًا، بل حتى يتكئ على أحد جانبيه ليتأمّل الأشياء بمزيد من الوضوح. النافذة في الصالة الخارجية أوسع وأكبر بكثير، ثمة طاولة ضخمة ومتينة تحتها، وفي السقف ثريا ضخمة جدًا. في وسعه أن يرى زاوية البيانو، أو بالأحرى هذا هو ما يُسمّى البيانو. وعندما يميل نحو الجهة الأخرى يرى لوحة كبيرة، ليست أصغر من مترين مربعين، وفيها مشهد شارع يعجّ بالحياة في مدينة كبيرة كما لو أنّ كلّ شيء في حالة حركة، في الحقيقة هذا يجعل الفتى يشعر بالدوار فيعود ويعتدل في جلسته. يدرك أنه بدا غريب الشكل وهو مائل جانبًا فاغرًا فمه مثل بقرة غبية. بيد أنّ غيرترود تتصرّف كأن لا شيء خارج المألوف، وتستغرق في التفكير وهي تدخّن سيجارتها. في تلك اللحظة يلمح حركة من زاوية عينه، يلمح شخصًا يقف عند مدخل الباب. يرنو بطرف عينه فتطالعه عينا باردور الميتتان في وجهه الأبيض ويسمع صوت صديقه الغالي في رأسه:

وها أنا قابع هناك، أفكّر في أنك لن تلبث أن توافيني.

# ١٣

بمعزل عن اضطلاعه بمهمة حصان شغل ومرافقته هيلغا إلى المتجر لحمل المشتريات، كان عمله الأول هنا في القرية فتح قناني الجعة لبرينيولفر والتأكّد من أنّ لدى كولبين قهوة كافية في القدح الكبير الذي اشترته له غيرترود عندما ذهبت إلى لندن قبل سنتين. كلّف القدح شلنًا، إذ يفترض أنه يعود إلى الشاعر المشهور ويليام وردزورث، الشاعر الذي نظم للعالم العديد من القصائد؛ بعضها ما زال يشرق فوق الجنس البشري المعذب والمُكابر.

نذكر هذا عن القدح ومالكه السابق لأنّ هناك شيئين يهمّان القبطان كولبين: الشِّعر والبحر. الشِّعر كالبحر، والبحر مظلم ولَجيّ وكذلك أزرق وبديع الجمال، تسبح فيه أسماك عديدة، وتقطنه مختلف أنواع المخلوقات، إنما ليست كلّها خيّرة. الجميع هنا يستوعب سبب اهتمام كولبين بالبحر، بيد أنّ بعضنا بطبيعة الحال يجد صعوبة في فهم سبب اهتمامه بالشِّعر. هناك مَن يميل إلى قراءة الملاحم الأيسلندية، إذ فيها شيء يتعلّق بالأمة، وهي في بعض الأحيان مثيرة للاهتمام، صاخبة إلى حدّ كبير، وتزخر بأبطال يمكن أن يقارن المرء نفسه بهم، وهناك من يميل إلى قراءة

القصص الشعبية أيضًا، حكايات عن الحياة العادية وأعمال تتطلّب الشجاعة، أجزاء ومقاطع من قصائد، خصوصًا قصائد شعراء يكتبون عن أُمّتهم ويعرفون الكثير عن الحصاد وعن رعي الماشية، لكن أن يولع قبطان بحر بالشِّعر كولعه بالسمك، نعم، أيّ نوع من القباطنة ذاك في الحقيقة؟ في نهاية المطاف لم يجد كولبين لنفسه زوجة قطّ ثم فقد بصره. هجره ضوء النهار ورزح فوقه ثقل الظلام. قبطان بحر نشيط، لا يفتقر لشيء، صلب كالصخر وقادر على نشل السمك من الأعماق، هو بالتأكيد ليس بتلك الرفقة الممتعة، وعندما يتكلّم يلوح في حديثه شيء من السخرية، إنما لا تنقصه الوسامة، وهو من أكثر الرجال الواعدين. مع ذلك لم يتزوج مطلقًا وعاش مع والديه، ثم عاشا معه عندما جعلتهما السنين غير قادرين على الاهتمام بأمورهما. الأبوين الغاليين. كانا من الأخيار الطيبين ولا تكاد تلوّثهما لطخة. مات الأب أولاً، في ذلك الوقت كان اهتمام كولبين الأصولي بالكلمات والشِّعر في مراحل يقظته الأولى، وبسبب هذا لم تواتِ الفرصة الشيخ ليغضب من حقيقة أنّ ابنه الوحيد، لحمه ودمه، هدر مالاً كثيراً على الكتب. لكن أمه كانت مفتونة بهذا المجال نفسه، وماتت تحت رواية ألمانية بترجمة دانمركية، اضطجعت تقرأ في السرير عندما هاجمها الموت بسرعة ولكن بلطف، واستقرّ الكتاب على وجهها. ظنّ كولبين أنها ترتاح، حدث هذا في منتصف النهار، كانت عجوزاً والراحة جيدة لعظامها الواهنة، التزم الهدوء قدر ما أمكنه ولم يكزها إلا بعد ساعتين أو ثلاث ساعات، طبعًا ليست هناك فائدة كثيرة تُرجى من وكز الأموات.

عندما فقد كولبين بصره كان يمتلك حوالي أربعمئة كتاب أو أقلّ بقليل. بعضها ضخمة وغالية الثمن جاءت على متن سفن من كوبنهاغن، مثل الكتاب الذي أودى بحياة باردور. بطبيعة الحال ذهبت مبالغ كبيرة من ماله على مشترياته، والنساء اللاتي حلمن بحياة مع هذا القبطان البحري الحيوي ولكن صاحب الطباع

الحادّة والمزاج الغريب أحيانًا، شكرن الله لأنّ أحلامهن لم تتحقق، وشكرنه أكثر عندما فقد كولبين بصره وأصبح مجرّد بائس عاجز. نحن لا نعرف متى بدأ بصره يخذله، فقد حرص على إخفاء الأمر جيدًا، كيّف نفسه مع الضوء المتضائل، بسّط أعماله. بالتأكيد لاحظ أفراد طاقمه تغيّر سلوكه، إلا أنهم عزوا ذلك إلى تزايد غرابة أطواره وإلى ولعه بالكتب؛ وطالما أنه يواصل الصيد، فأيّ شيء آخر يعنيه وحده. وذاك بالضبط ما فعله. كان على أي حال قد كفّ منذ عهد بعيد عن تحرّي موقعه من الجبال، كان ذلك لا يختلف في شيء عن قدرته على شمّ رائحة السمك في أعماق البحر. ثم خذله بصره خذلانًا كاملاً. أوى إلى الفراش وهو قادر بعد على القراءة بإلصاق وجهه تقريبًا بصفحات الكتاب، وكان في وسعه أن يرى يديه بوضوح، وأن يميّز معالم البيوت، أما النجوم في السماء فأصبحت بمنأى عن مجال بصره منذ وقت طويل، ثم إذا به يستيقظ في الصباح التالي في ظلام مطلق.

في البداية استلقى بهدوء تام وانتظر عودة بصره، أو ما تبقّى منه. استلقى هناك بقدر ما أسعفه الصبر. ثم بدأ يحرّك رأسه. نظر بسرعة من جهة إلى أخرى، فتح عينيه على وسعهما، فركهما ولم يحدث شيء، كانتا ميتتين والظلام انقضّ عليه بلا هوادة بحيث ما عاد قادرًا على التنفّس بحرية. اعتدل جالسًا بسرعة ليستدرّ أنفاسه، ضرب رأسه، بلطف في البداية ثم بعنف، ضربه بالحائط مرات ومرات بعنف متصاعد، ربما على أمل أن أيًّا ما كان ذاك الذي تبدّد وتشتّت يمكن أن يعود ويلتئم، إلا أنّ الظلمة تصدّت له ثابتة، لم تعتقه. أمسكت بتلابيبه، ولن تخفّف قبضتها بعد ذلك أبدًا. ترنّح خارجًا ووصل بخير وسلامة إلى مقعده المخصّص للقراءة تحت النافذة، جلس هناك مستقيم الظهر مدمّى الوجه، وانتظر وصول مدير دفّة سفينته، فكّر في هذه الأثناء قليلاً بالسكين التي يمكن بسهولة أن تقطع شريانًا

نصفين. إنما عليه أولاً أن يناقش أموراً مع مدير الدفّة، ثم يحاول لاحقًا خربشة شيء على الورق، كيفما تأتى له. كانت حصته من السفينة تربو على النصف، إضافة إلى كلّ هذه الكتب والبيت، ولن يرضيه أن يموت قبل أن يبتّ بطريقة ما في هذه الأمور المعلّقة، وإلا فالأوغاد وسمك القرش مثل فريدريك ولارس يسيطرون على كلّ شيء ويتخلّصون مما لا يهمّهم. أخيرًا جاء المدير ليتفقّد كولبين الذي كان دائمًا أول من يصل إلى السفينة، بيد أنّ أفراد الطاقم كانوا قد تجمّعوا كلهم هناك في ذلك اليوم، ووقفوا يحكّون رؤوسهم دهشةً. لعلّك مريض، سأله مدير الدفّة بتردّد وشعر ببرودة غريبة تتسلّل إليه، بمزيج من الخوف والصقيع، عندما نظر إلى وجه كولبين ورأى الدم المتخثر والعينين المخيفتين بفراغهما. التفت وجه كولبين المرعب نحو مصدر الصوت وقال بهدوء، أنت قطعًا مَن يقود السفينة اليوم، أنا أعمى. اذهب، أتحدّث معك لاحقًا. وهكذا انسحب مدير الدفّة فزعًا من العين العمياء، فزعًا، كالعادة، من ذلك الرجل اللعين، انسحب ومضى إلى السفينة. ما قاله هناك كان قليلاً، ولم يفصح عن شيء إلا بعدما أصبحوا في عرض البحر، وخمسة أيام من صيد السمك أمامهم. تلمّس كولبين طريقه في البيت بحثًا عن قلم وورقة، تعثّر مرتين بالأثاث، في المرة الثانية تعثّر برفّ الكتب ولبث حيث هو فترة طويلة يمرّر أصابعه على طول ظهور الكتب. مَن يدري لعل الجحيم مكتبة وأنت أعمى، تمتم لنفسه وحاول أن يبتسم، بيد أنّ هذا لم يخدمه كثيرًا، ونفرت من عينيه أربع أو خمس قطرات من الدمع، عساها لا تكون أكثر، فكّر مرهق الأعصاب لأنه عجز عن تحمّل هذه المصيبة من غير ذرف الدموع؛ تلك الأسماك الشفافة.

قريحة الإنسان إذًا ليست أكثر من ذلك؛ عندما تواجهه الضغوط الشديدة الحقّة يتهشّم كقطعة خشب عفنة تستحق الرثاء، قال لغيرترود التي جاءته وهو قابع

على الأرض عند رفّ الكتب. أأنت أعمى يا كولبين؟ سألته، ليس بنبرة قلقة أو عطوفة، إنما كما لو أنها تستفسر ما إذا كانت أصابعه تؤلمه. وماذا يبدو لكِ؟ ردّ بمرارة، ثم طلب منها أن تأتيه بقلم وورقة، وهذا ما فعلته من غير أن تنبس ببنت شفة ووضعتهما في حجره. تلمّست يده القلم، وتناول كتابًا من الرفّ ليسند عليه الورقة، ثم جلس ولم يفعل شيئًا. مرّ الوقت وغيرترود التي جاءته لتعيد كتابًا وتقترض غيره، اكتفت بالجلوس وانتظرت إلى أن قال، لا أستطيع أن أكتب.

ماذا تريد أن تكتب؟

هذا ليس من شأنك.

كلامك صحيح بلا شكّ، ومع ذلك ما زال يمكنني أن أكتب عنك.

خذي إذن هذه النفايات اللعينة، قال وقذف القلم والورقة نحو الظلام من حيث أتى صوتها.

ماذا يجب أن أكتب؟

أمتلك أكثر من نصف السفينة وهذه الكتب وهذا البيت، ولا أريد أن يقوم بعض اللقطاء بالاستيلاء عليها.

ما يجعلك تعتقد أنهم قد يستولون على ما يخصّك؟

لأنني شخص بائس ولن ألبث أن أموت.

بقدر ما يمكن أن... بدأت، صمتت قليلاً ثم تابعت، حسنًا أرى الآن أنك حي وتتنفّس. وعندما لم يجب أضافت، أو على الأقل هذا ما يبدو لي.

جفل كولبين قليلاً، وما عدا ذلك تصرّف كأن كلّ شيء على ما يرام وقال، أنت لا تتوقعين مني أن أستمرّ على هذا النحو، بائسًا وأعمى، عديم الفائدة للجميع، عاجزًا وعالة على غيري؟

أتنوي قتل نفسك إذًا؟

وأي شيء آخر يمكنني فعله، أن أرقص ربما؟

في وسعك أن تعيش معي أنا وهيلغا، نحن أحيانًا نحتاج إلى الرفقة.

أتسمينني رفقة؟

يمكنك الحصول على غرفة ممتازة تستوعب جميع كتبك. تبيع بيتك هذا وآخذ حصتك من السفينة وندعو ذلك تسوية.

عندما يكون هناك خيار بين الموت والحياة، يختار معظمنا الحياة.

اجتازت غيرترود البلدة إلى بيتها مصطحبة كولبين معها، مثل كلب شقي عجوز كان يمكن أن يكون وضع حدّ لحياته عملاً رحيمًا. حدث هذا قبل أربع سنوات. مُنذ ذلك الحين لم تطأ قدما كولبين ما هو أبعد من بوابة الحديقة. يجلس في الحديقة عندما يكون الجو معتدلاً والشمس تشيع الدفء في الهواء، ما عدا ذلك يشعر بأفضل حال في المقهى، يبتلع القهوة وهو يستمع إلى الضيوف إذا حضر أحد. تتناوب هيلغا وغيرترود القراءة له، غالبًا بعد الظهر أو في المساء عندما تُليّن الظلمة العالم وتحلّق بعيدًا ملاحقةً النجوم، عندئذ يجلسون معًا في الصالة، هذا الثالوث الدنيوي الغريب. لم نفهم في يوم لماذا أخذت ذئب البحر الهرم تحت جناحها، الرجل المزاجي إلى أبعد الحدود وغير الاجتماعي. قليل ما عرفه كلّ منهما عن الآخر من قبل، وبين حين وآخر كانت تقترض منه الكتب، لكن ربما هما متوافقان بطريقة ممتازة؛ فكلاهما أعمى، هو أعمى جسديًا وهي أخلاقيًا.

ما عاد الثالوث الآن ثالوثًا لأنّ الفتى انضمّ إلى المجموعة. يصبّ القهوة في القدح الذي امتلكه في يوم شاعر انجليزي، يقول، ها أنتَ، كلما فعل ذلك. وكولبين يتصرّف كما لو أن لا وجود له. كما لو أنه لا يراني، يغمغم الفتى في سرّه، مروّحًا عن نفسه قليلاً على الرغم من كلّ شيء.

كان قد أخبر الثالوث عن قصة الحياة التي تحولّت إلى موت.

عادت هيلغا وأحضرت معها كولبين وأخبرهم الفتى عن الرحلة البحرية.

كيف نسي باردور معطفه الواقي، كيف جدّفوا مسافة طويلة وأوغلوا في البحر على نحو غير مألوف. أخبرهم كيف ساء الطقس، ثم أصبح البرد لاسعًا، كيف هبّت عاصفة، وكيف بدأت الأمواج تلاطم المركب وتهاجمه. كيف غمر الماء باردور فوراً وقرصه الصقيع، كيف تبلل من رأسه إلى أخمص قدميه ونهشه القرّ بحيث ما عاد ينفعه شيء حتى لو أقرضه أحدهم معطفه، وبالتالي ربما ضحّى بحياته، أو ربما بحياة الجميع. ذاك الذي يقطر ماء وهو موغل في البحر المفتوح، في قلب الصقيع والرياح العاصفة، محكوم عليه بالموت. لعلّ الفتى لم يدرك هذا تمامًا في حينه، أو لم يرغب في أن يفعل، ويبدو أنه الآن وللمرة الأولى يخطر له أنّ الأمل الوحيد بالنسبة إلى باردور كان إعادته بسرعة إلى اليابسة، أن يُزال الثلج وطبقة الجليد من على الشراع، من على المركب نفسه للحصول على سرعة مناسبة. لكن حتى لو حدث ذلك لم يكن هناك أمل، بل فقط المزيد من السراب. المزيد من الوهم.

ثم روى لهم الفتى كيف عبر الوادي، حكى لهم عن الليلة المظلمة وهو يحمل الكتاب الذي قتل رفيقه، وعن لا شيء حلو في نظري بدونك.

استمعت غيرترود بعينين نصف مطبقتين. جفناها الأبيضان يجلّلان ليل العينين، حدقت هيلغا إلى الغطاء الأحمر لأنّ العيون ينبغي أن تحطّ على شيء ما، فهي ليست كالأيدي التي يمكن أن تنام، ولا الأقدام التي يغفل الناس عن ملاحظتها أمدًا طويلاً. العيون مختلفة اختلافًا كبيراً، فهي تستكين خلف الجفون فقط، وهي ستارة الأحلام. ينبغي أن تُعامَل العيون بعناية. ينبغي علينا أن نفكّر أين نوجّهها ومتى. حياتنا بأكملها تتدفّق من عيوننا، وبالتالي يمكن أن تكون العيون مدافع وموسيقى

وتغريد طيور وصيحات حرب. يمكنها أن تبوح بخفايانا. يمكنها أن تنقذ المرء أو تحطمه. رأيت عينيك وحياتي انقلبت. تخيفني عيناها. تحذّرني عيناه. انظر إليّ فقط وكلّ شيء سيكون على ما يرام، وربما أستطيع بعدها أن أنام. حكايات قديمة، ربما بقدم الإنسانية، تخبرنا أن لا مخلوق يطيق التطلع إلى عيني الله لأنّ فيهما ينبوع الحياة وزنزانة الموت.

وصف الفتى عيني باردور. كان لا بدّ أن يصفهما، أن يعيدهما إلى الحياة، أن يجعلهما تشرقان من جديد مرة أخيرة. عينان بُنّيّتان خلّفهما صياد سمك أجنبي ومجهول على الشاطئ منذ سنين بعيدة. لم تنظر غيرترود وهيلغا إلى الفتى وهو يروي حكايته إلا لِمامًا، ربما نظرت غيرترود مرة، والأخرى أكثر من مرة بقليل على الأغلب، أما عينا القبطان الأعمى فحطّتا على الفتى ولم تندّ عنهما رعشة، نافذتان باردتان ومعتمتان وبلا حياة، لا شيء يمكن أن يخرج منهما ولا شيء يمكن أن يدخلهما. طالت الحكاية أكثر مما توقّع. نسي نفسه. ارتحل عن الوجود وتلاشى في القصة، لمس رفيقه الميت هناك وأعاد إحياءه. لعلّ هدفه من القصة كان بعث باردور، اقتحام مملكة الموت وهو متسلّح بالكلمات. الكلمات قد تكون مشحونة بقوة العمالقة ولديها القدرة على قتل إله. الكلمات تملك القدرة على إنقاذ الحياة والقدرة على تحطيمها.

الكلمات سهام، رصاص، طيور أسطورية تصطاد الآلهة، الكلمات سمك عمره آلاف عديدة من السنين اكتشف شيئًا مروّعًا في أعماق البحر، الكلمات شباك واسعة تستطيع أن تحصر في طياتها العالم والسماء أيضًا، لكن أحيانًا تكون الكلمات لا شيء، مجرّد ثياب ممزقة يخترقها الصقيع، سور متداع في وسع الموت وسوء الطالع أن يتخطياه بخفّة. لكن هذا الفتى لا يملك شيئًا سوى الكلمات. بمعزل عن رسائل أمه، وبنطلونه الصوفي الخشن، وثيابه الصوفية، وثلاثة كتب أو كراريس

هزيلة جلبها معه من الكوخ، مع جزمة بحر وحذاء بال. الكلمات هي المرافِق والمؤتمن الذي يوليه ثقته، إلا أنه اكتشف أنها ما زالت عديمة الجدوى عندما وضعها قيد الاختبار: عجز عن إحياء باردور. وباردور عرف هذا طوال الوقت. لهذا وقف في المدخل سابقًا وقال، وها أنا قابع هناك، أفكّر في أنك لن تلبث أن توافيني، لكن ما لم يُقل، وما استنبطه الفتى لاحقًا هو: لأني لا أستطيع القدوم إليك.

كان هناك صمت بعد أن أنهى الفتى حكايته، صمت بدّده بنفسه وهو يغمغم، كما لو أنه شارد الذهن، أحتاج أن أكتب لأندريا وأعلمها أنني على قيد الحياة.

الصمت بعد سرد طويل يدلّ إما على أهمية ما قيل، أو أنّ ما قيل قد قيل هباء، يبيّن ما إذا كان السرد قد تغلغل في النفس ولامس شيئًا، أو أنه قد اختزل الوقت ولا شيء أكثر.

لا أحد منهم تحرّك إلى أن حرّرهم خبط قوي. أحد ما كان يطرق باب البيت من الخارج. تقف هيلغا. تقف ببطء، ثم تجلب ورقة وقلمًا، وتعطيهما للفتى وتقول، يجب أن نهتمّ بأولئك الأخيار الطيبين الذين نكترث لأمرهم، ويُستحسن ألا تؤجّل هذا، الحياة أقصر من أن نؤجل شيئًا وأحيانًا تنتهي فجأة، كما تعلم جيدًا من خلال ما مررت به. ثم تغادر لترى لمن تعود تلك القبضات المسؤولة عن الخبط.

يجب أن نهتمّ بأولئك الأخيار الطيبين الذين نكترث لأمرهم.

لا بدّ أنّ هذا أحد قوانين الحياة، والشيطان كفيل بركل مؤخرات الذين لا يبالون بهذا القانون.

يحفّ ثوب هيلغا عندما تغادر الصالة، تخلّف وراءها عطرًا وتخلّف كذلك الدفء الذي يلازم وجنتي الفتى بعد أن داعبت خدّه بسرعة بأربعة أصابع. يقف كولبين، يتمتم بشيء ما بهدوء وإبهام، يستخدم عصاه ليتحسّس طريقه قدمًا

ولكن بلا مبالاة إذ إنه يعرفه حقّ المعرفة، يجتاز الصالة بسرعة، يلحق عطر هيلغا وحفيف ثوبها. بذهابهما يبقى الاثنان هناك وحدهما؛ هو وهذه المرأة ذات العينين السوداوين مثل ليل كانون الثاني. عينان تنظران مباشرة إلى الفتى وهو يمسك القلم، وحياتها الباطنية تتدفق من عينيها وربما أصابها لونهما بالعدوى. كلّنا أحببنا باردور كثيراً، تقول بروية، في الواقع تقول ذلك برقّة وصدق، ولن نكفّ عن افتقاده، كلّ واحد منا بطريقته الخاصة، وهذا يسري على كولبين أيضًا، حتى على الرغم من أنه قد يبدو أنه يشعر بأيّ شيء آخر ما عدا الأسف. إنما في وسعك أن تحسب بسهولة على أصابع اليد الواحدة عدد الأشخاص الذين يقرضهم كولبين كتبه، وهذا الكتاب ليس من ضمنها.

سمعا وقع خطوات هيلغا تقترب بسرعة وخفّة، بعض الناس يمشون بطريقة معينة توحي أن لا شيء يمكن أن يفقدهم توازنهم، كما لو أنهم لم يواجهوا أيّ صعوبة في أيّ درب. وهنالك آخرون هم لا شيء سوى التقاعس. وهكذا في وسع المرء أن يلاحظ أنّ وقع الخطوات يقول الكثير عن الآخرين: سِرّ نحوي وعندئذٍ ربما أعرف ما إذا كنت أحبك.

إنه برينيولفر، تقول هيلغا من مدخل الباب، وتهيّأ للفتى أنه يلمح ابتسامة واهية على وجه غيرترود، وهو متعطّش للجعة، تضيف هيلغا. أنت لست مسرورة من هذا، تقول غيرترود والابتسامة الواهية ما زالت ترفرف على محياها. تهزّ هيلغا رأسها، ينبغي بكل بساطة أن يكون قد بدأ في تجهيز السفينة، تقول. فتردّ غيرترود، لا شيء بهذه البساطة، ولعلّه من الأفضل له أن يشرب هنا بدلاً من الذهاب إلى مارتا وأوغست. تتجاهل غيرترود شخرة هيلغا وتتصرّف كأنها لم تسمعها، إذ تلتفت إلى الفتى وتقول بلا مواربة وبدون سابق إنذار، كما لو أنهما قد سبق واتفقا على شيء

ما، هذا أول عمل لك في البيت هنا. أن تقدّم الجعة لقبطان وأن تحرص على تزويد القبطان الآخر بالقهوة كلما فرغ قدحه. عليك أيضًا أن تشتري لنفسك بعض الملابس اللائقة، فهناك أشياء تناسب البحر وأخرى تناسب اليابسة. ترافقك هيلغا بعد ظهر اليوم وتساعدك على ابتياع ثياب محترمة لنفسك على نفقتي. أنا أفترض أنك ستقيم معنا، أضافت، ربما بسبب التعبير الذي لاح على وجه الفتى، تعبير شخص لا يعرف أهو مرتاح أم هو محرج من شيء ما أو أنه سعيد.

ما جئت إلا لأعيد الكتاب، أسعفه الكلام أخيرًا، بعد أن التزم الصمت مدة طويلة وتحمّل نظرات المرأتين.

تضغط غيرترود شفتها بأصبع طويل ونحيل للحظة ثم تقول، لا نعرف دائمًا ما نريد على وجه التأكيد، أو قد نختار قمع رغباتنا؛ ما الوجهة الأخرى التي كنت تفكّر فيها؟ أجد صعوبة في تخيّلك تعود إلى البحر، أنت لست صياد سمك فعلاً، وثمة خسارة في اشتغالك بتمليح القدّ. أفضّل أن أعتقد أن لا فكرة لديك عما تستطيع القيام به، أو مَن أنت حقًّا، ولديّ أنا وهيلغا شكوكنا حول ذلك ولسنا على تلك الدرجة من الغباء عندما نقرّر أن نبذل جهدًا ما. ولهذا السبب يُستحسن أن نقرّر عنك، في البداية على الأقلّ. وبطبيعة الحال تحتاج إلى العمل لتؤمّن السكن والطعام والملبس، وفي وسعك أن تبدأ العمل بالاهتمام بهذين القبطانين المسكينين.

لكني لا أعرف كيف أقوم بأيّ شيء، أفصح الفتى عن مكنونه من غير تفكير. هذا غريب جدًا.

تميل الكلمات إلى القفز على ذلك النحو خارجه، ولذلك غالبًا ما يقول أشياء ليست إلا مجرّد هراء يوقعه في المشاكل، أو يجذب انتباهًا لشخصه هو في غنى عنه. وهذا لا يكاد يختلف في شيء عن الوقوع في المشاكل. أحيانا يحاول التعويض عن

الهراء بقول شيء آخر فوراً، إلا أنه كثيراً ما يزيد الأمور سوءًا، وهنا أضاف، أنا في الحقيقة حصلت على عمل في متجر ليو خلال هذا الصيف. عقدت أنا وباردور اتفاقًا مع يون، أو بالأحرى كان باردور من فعل هذا، هو من أمّن لنا هذا العمل. وما حصلت على هذا العمل إلا بفضله وهو ميت الآن، ولا أعرف ماذا يمكن أن يحدث. ماذا كنتُ أقول بحقّ الجحيم، يفكّر ويلعن نفسه حالما يُدلي بتصريحه المشوّش المختصر ذاك. لا تسمح غيرترود لهذا أن يزعجها وتقول ببساطة، من لا يُحسن القيام بأيّ عمل لا شأن له بمتجر ليو. ستجعلك توفّه تشتغل بتقطيع الطعوم بعد أسبوعك الأول، أيحتمل أن يكون هذا ما تريده؟ لكنّنا هنا، نحن الثالوث، تبتسم ابتسامة واضحة وتتابع، نعرف أفضل من توفّه كيف نقدّر أناسًا مثلك. أنت تتقن القراءة، وأعتقد أنّ خطّك جيد، أليس كذلك؟ يفكّر الفتى في ما قالته بما يكفي لأن يهزّ رأسه موافقًا، لا يجرؤ على فتح فمه لئلا يفسح المجال لمجموعة من الهراء للانزلاق منه. حسنًا، القليل الذي يمكنك القيام به يناسبنا، مَن يحسنون القراءة في هذه البلدة قليلون، فأن تكون قادراً على القراءة شيء، وأن تعرف كيف تقرأ شيء آخر، ثمة فجوة هائلة بين هذين الاثنين. أتوقّع أنك ستبقى هنا معنا، تبقى أسبوعين أو عشرين سنة، هذا خيارك، يمكنك الرحيل حينما تشاء. ستحصل على الغرفة التي نمت فيها، ويمكنك أن تعقد اتفاقًا مع كولبين لتستعمل كتبه، إلا أنه عليك التريّث قليلاً، اجعله يعتادك، يجدر بك أن تقرأ له في المساء ولن يلبث أن يلين شيئًا فشيئًا. من ناحية أخرى لدينا مجموعة كتب هنا في الصالة الخارجية، خذ الكتب التي تريدها. هناك أمر آخر فقط: توقّع أن يسقط عليك البراز إذا قرّرت أن تبقى هنا معنا؛ هذا خطأي، وعليك في جميع الأحوال أن تكون قادراً على التحمّل.

لطالما أحببت الغربان، يقول الفتى، من غير تفكير أيضًا. الكلمات تندفع

خارجة منه من غير أن يعوّقها شيء. من ذاك الذي يجلس هناك داخلنا ويتحكّم بالكلمات؟

ما أدهشه ومنحه ارتياحًا رائعًا رؤيتهما تبتسمان. تسنّى له أن يرى أسنان غيرترود كلها، ناصعة البياض مع نابين حادّين، لكن الأسنان الأمامية في الفكّ السفلي معوجة، وهذا حسن، فما هو أبيض ومستقيم بلا اعوجاج يصبح بعد زمن مضجراً. بدون خطيئة لن تكون هناك حياة.

# ١٤

هو يجلس هنا الآن. بالقرب من ربّانين وبيده ريشة كتابة. ما الكلمة التي يجدر به أن يكتبها، الغالية أندريا أو أندريا الأغلى؟ يجلس كولبين وبرينيولفر إلى يمينه عند طرف الطاولة، أطلعته هيلغا على ما ينبغي أن يفعله، أن يقدّم القهوة والجعة، وعلّمته كيف يسجّل الحساب. اسْتدْعني إذا استعصى عليك الأمر، ثم غادرت وبقي وحده مع الشيخين. يحدق إليه برينيولفر بين حين وآخر، أشعث الشعر واللحية، أحضر لي جعة أيها الهُرير اللعين، يجأر بصوت ما زال مدويًا على الرغم من أنه قضى على قنينته الأولى. إنه مثل عجل مصاب بالإسهال، يوضح برينيولفر لكولبين. بيد أنّ الفتى لا يكاد يهتمّ بتسميته هُريرًا لعينًا أو عجلاً مصابًا بالإسهال، هذه مجرّد كلمات خالية من أيّ فعالية، وإذا لم يعرها المرء انتباهًا تمضي في حال سبيلها ولا تلامس شيئًا. ناهيك عن أنّ اهتمام برينلفر بالجعة أعظم وأعمق من الاهتمام به، ومزاجه سرعان ما يعتدل ما إن يفرط في الشرب. قنينتان فقط ويكفّ العالم عن أن يكون شريرًا ومثقلاً بمختلف أنواع الهراء التي تثير استياء الرجل الصادق. لأننا صادقان، أنا وأنت يقول برينيولفر لكولبين الذي يجيب بصوته الأجش المزعج

تقريبًا: إن الصدق ترف للملائكة المتخاذلة. لا أفهمك يقول برينيولفر، بصوته الجهوري العميق الذي يجعل السمك في البحر يرتعد فرقًا عندما يقف على سطح السفينة ويزأر بصوت هادر. لا أعتقد أنك تفعل، يزمجر الآخر. أوضح لي ما ترمي إليه إذًا وليلتهم الشيطان ذاك الجرو هناك، فأنا في الحقيقة أعتقد أنه بائس متخاذل. في هذه الحالة لا يكترث الشيطان لأمره يقول كولبين، فالمتخاذلون غالبًا ما ينمّون أجنحة ملائكة. أنت غريب الأطوار، يجأر العملاق، ولطالما أحببتك كثيراً لهذا السبب. بعدئذ ينغمس كلبا البحر في الحديث عن السمك والمحيط ويتوقّف الفتى عن الاستماع إلى ثرثرتهما، إلا بأذن واحدة ربما وبالكاد يفعل، أو بما يكفي ليلاحظ متى يطلبان المزيد من الجعة أو القهوة، فالتصرّف فوراً وبكفاءة أكثر أمانًا له، وعندما يحصل برينيولفر على جعته يمكنه البقاء وحده مع أفكاره، الآخر يلتهم التهامًا تلك القهوة التي يماثل سوادها السواد المحدق به. هما في العمر نفسه، بيد أنّ وجه كولبين يبدو أكبر، أكبر بحوالي مئة سنة تقريبًا. يتحدّثان عن البحر وعن الفِسق، يتحدثان بعاطفة جياشة عن السمك، القدّ يسبح في عروقهما، سمك القرش يغوص عميقًا في كبديهما، هناك عواصف وصقيع لاسع وبحار حالكة الظلمة، يتمايل برينيولفر ويحكم تمسّكه بالطاولة لئلا يقع من على سطح سفينته، ولسان كولبين الخشن يلعق الملح من على شفتيه. جلب الفتى إلى الآن ثماني قناني جعة لبرينيولفر، وصبّ القهوة مراراً في قدح الشاعر الإنجليزي، يقول كولبين الشاعرُ ظمآن ويرفع القدح، يحضر الفتى القهوة حالما يسمعه يقول ذلك، في البداية لا يعرف شيئًا عن هذا الـ وردزورث وأنّ القدح يعود له، ويدهش من إطلاق كولبين على نفسه لقب الشاعر، بل وتعتريه حيرة بالغة إلى أن يسأل برينيولفر أخيراً: أي شاعر لعين؟ وذلك عندما يطلب كولبين القهوة للمرة الرابعة وينظر حوله كما لو أنه يريد أن يلكم شيئًا، والفتى

لا يكاد يجرؤ على التنفّس. أنت أحمق، يزمجر كولبين، كان هذا القدح ملكًا لشاعر إنجليزي، يتفاخر ساخرًا وعيناه عديمتا الفائدة تحملقان في برينيولفر والضراوة تكتسح وجهه، فيشعر برينيولفر فجأة بنفور عظيم. يتلاشى ابتهاجه بمشروبه وينكّس رأسه المثلّم، ما الداعي لأن تكون بهذه القسوة، يغمغم، لكن كولبين لا يجيب، إذ ماذا يفترض به أن يقول. ولفترة لا يُسمع شيء هناك سوى ارتشاف الأعمى قهوته، وبرينيولفر يحدّق إلى قنينته محاولاً العثور على حبوره من جديد. يكتب الفتى، الغالية أندريا، ويتوق بشدة لأن يضع تحت كلمة الغالية عدّة خطوط، لأنّ عاطفته تجاه أندريا تنتشر فجأة في كيانه كله. الآن هي وحدها في الدكان، وغودرون وحدها أيضًا في الدكان الآخر، لماذا ما عدت أفكّر في غودرون؟ قلبه ما عاد يقفز ولا حتى مرة واحدة عندما يفكّر في اسمها، وأين باردور الآن، أين جثمانه، هذا الغمد المتيبّس عديم الجدوى الذي خلّفه وراءه عندما ارتحل، أين يحفظونه بانتظار قدوم أحد من أجله؟ أتراني أخطأت بالرحيل فجأة، أكان هروبًا؟ أليس هذا خيانة؟ ولماذا بحقّ الجحيم أجدني مندفعًا بتصميم إلى تذكّر راغينهيلد الآن، ولماذا أرتني رأس لسانها اللعين ذاك؟ يحدق إلى الورقة أمامه ولا يسمع برينيولفر فورًا. فوجد الأخير أنّ لديه سببًا مقنعًا ليرفع صوته ويوبّخ القمامة التي يمثّلها الفتى، بيد أنه ما عاد هناك ثقل في كلماته، إذ رجع إليه مرحه، اكتشف أنّ كولبين زميل محترم. أنت أعمى فقط، يقول كما لو أنّ الأمر يستدعي الإشارة إلى ذلك بوجه خاص. فيجيب كولبين ببساطة، أنت مراقب نافذ البصيرة. وهكذا يعودان مجدّدًا إلى الحديث عن البحر. وسرعان ما يوغلان في لجاجه المصطخب. يحرّرها الماضي لفترة من الحاضر، من الكآبة والقلق والظلام. يمسك الفتى قلمه وينظر بطرف عينه إلى كولبين، يحاول استكشافه ويعجز عن استشفاف شيء بطبيعة الحال. يشعر تجاهه بالاحترام،

بنوع من الخشية، وبالعصبية لأنّ عليه أن يقرأ له، عليه أن يكون قريبًا منه، ولكنه يأمل في أنّ المرأتين ستستمعان كذلك، هذا يحسّن الأمور، أينبغي أن أقرأ له الليلة؟ ذئب البحر، يفكّر، أيبقى مزاج ذئب البحر معكّرًا دائمًا، أم أنه يبدو هكذا فقط؟ يهزّ رأسه، هناك القليل جدًا مما يستوعبه. كتب في الورقة، الغالية أندريا، وها هو يضيف، أنا على قيد الحياة، نجحت في بلوغ وجهتي، ثم يضع القلم من يده. لماذا بحقّ الجحيم يتوجّب علي أن أحيا؟ أنا لست مهتمًا بأيّ شيء، وراغينهيلد تأتي في أسفل القائمة، برودها البالغ يقبض قلبي، لا أريد شيئًا ولا أرغب في شيء. يحدّق بارتباك في ريشة الكتابة. لا يريد حتمًا أن يموت. إرادة الحياة تكمن في عظامه، تجري في دمه، ما أنت أيتها الحياة؟ يسأل بصمت لكنه بعيد جدًا جدًا عن الجواب، وهذا طبعًا ليس مستغربًا، فنحن لا نملك أجوبة جاهزة، ومع ذلك عشنا ومتنا، وعبرنا الحدود التي لا يراها أحد، وما زالت على الرغم من ذلك الشيء الوحيد الذي يهمّ. ما أنت أيتها الحياة؟ لعل الجواب يكمن في السؤال نفسه، في التساؤل الذي يتضمّنه. أيخفتُ ضوء الحياة ويستحيل بعد ذلك إلى ظلام بالتزامن مع توقّفنا عن التساؤل، مع توقّفنا عن طرح السؤال وتقبّلنا للحياة كما نتقبّل أيّ شيء آخر عادي؟

يستغرق الفتى في التفكير في مكتبة القبطان التي ما فتئ يتخيّلها منذ أن أخبره باردور عنها، أربعمئة كتاب، لا ريب أنّ المرء لا يحتاج إلى شيء آخر في الحياة، ما عدا البصر طبعًا، يفكّر على نحو وضيع، ويجفل عندما يمرّ به الأعمى ويمضي إلى البيت، يغلق الباب بحزم خلفه. مزيد من الجعة أيها المخنّث، يقول برينيولفر بصوت عالٍ، ويجلب له الفتى القنينة التاسعة. تختفي الجعة في جوف العملاق، يتلقّفها جسمه بلا عوائق. لأني بالغ الضخامة يوضح العملاق للفتى، اجلس هنا إلى

جانبي، وإلا أضربك، صعب جدًا أن أجلس وحدي، المرء في الواقع يشعر بوحشة كبيرة عندما يجلس وحده، كن طيبًا الآن ولا تترك الشيخ وحيدًا.

والفتى طيب، والفتى لا يغادر الطاولة. ولا يستطيع الإفلات لو حاول، فقد أحكم برينيولفر قبضته العظيمة حول ذراع الفتى اليمنى. يجلس الفتى إلى جانب الجبّار الخرافي الذي يشرب الجعة، الذي يفعل ذلك باستمتاع، ثم يشرع في الحديث عن زميل ملاح قديم، أُولّه النرويجي، أبحرا معًا على مدى خمس عشرة سنة، بقيا حيّين خلال أعتى وأفظع العواصف والبحار المتلاطمة، ثم غرق أُولّه في وسط هدوء مطلق وسفينته راسية عند الرصيف. كان أُولّه مخموراً حتى الثمالة، وتعثّر ليسقط على رأسه الأصلع، كسر مرآة البحيرة واختفى. لم تواته الفرصة لأن ينهي القنينة التي ابتاعها من متجر تريجفي، قنينة الكونياك الفرنسي التي بقي أُولّه يدّخر ثمنها مدة طويلة. دفع البحر الجثة إلى الأعلى وتبيّن أنّ القنينة ما زالت نصف ملآنة ومربوطة بعناية إلى حزامه. اللعنة، يقول برينلفر في خضم قصته عن النرويجي، يضيّق عينيه ويرفع أصابعه أمامهما، ما عدت قادراً على الرؤية بوضوح! يصيح تقريبًا من شدة الخوف: أنا أفقد بصري، ذاك اللعين اللقيط ابتلاني! أنا أفقد بصري! يغمض برينيولفر عينيه ثم يفتحهما ثانية عندما يوضح له الفتى أنه بعد تسع قناني جعة يفقد الناس القدرة على رؤية الأشياء بوضوح. يشعر القبطان بامتنان كبير من هذا التفسير إلى درجة أنه يعتق ذراع الفتى من أسر قبضته، فيسارع الأخير إلى فرك ذراعه الخدرة تحت الطاولة.

يتجاوز الوقت الظهر، ولا ريب في أنّ الشمس كانت ستسطع من خلال نافذة المقهى لو تسنّى لها أن تعبر إلى الأرض من بين الغيوم، إلا أنها لم ترتفع بعد إلى

مستوى عالٍ لترسل أشعتها على اللسان البحري وجزء المستوطنة الرئيس اللذين يطوّقان المربع المركزي، هذا إضافة إلى أنّ قمة جبل إيرارفيال الشامخة نحو السماء تواري البيوت في ظلّها. لكن في حال كانت هناك شمس في السماء فإنها سترسل أشعتها عبر نوافذ بيت غير بعيد عن الحي القديم، حيث تجلس امرأة تحدق إلى اللاشيء. عيناها واسعتان، تذكّران المرء بحصان وقف طيلة حياته في الخارج تحت وابل المطر الغزير. تجلس هامدة بلا حراك، كما لا يفعل إلا مَن تخلّت عنه بهجة الحياة. مرة، منذ زمن بعيد، كانت تضحك كثيراً، وحينها كانت عيناها تغدوان شموسًا تشرق على الحياة، وكانت تحيل رقاقات الثلج الباردة والصلبة العالقة بالبيوت إلى قطرات ماء منعش، فأين ذهب الآن سرور هاتين العينين؟ تجلس المرأة بلا حراك، تمعن النظر في الأفق قليلاً كما لو أنها تنتظر أحدًا قد ذهب بعيدًا جدًا ومن المحتمل أنه لا يملك وقتًا كافيًا لينجح في العودة خلال هذه الحياة. تجلس منحنية الظهر، مقوّسة الكتفين بعض الشيء، وعندما تستغرق في جلوسها، ويصبح كلّ شيء أكثر غموضًا، تبدو أقرب إلى ركام منها إلى شخص. فأين العدالة في وجودها هذا؟ الوجود الذي لا جدوى منه هذا؟ لديكِ أجمل عينين في هذا العالم، هما بروعة البحر وجماله، ثم تمرّ ثلاثون سنة ويتلاشى جمالهما، هما فقط أكبر بكثير مما ينبغي، وتلاحقان المرء دومًا بالعتاب، فلا يرى شيئًا إلا الإعياء والإحباط عندما يتطلّع فيهما.

جحيم لعين، يتطلّع المرء فيهما ويفكّر في حصان غارق بالمطر، هذا لئلا نقول فرسًا خائر القوى، أأنت مخبول يا فتى؟ أنا لن أدعو زوجتي أبدًا بهذا اللقب، ومن يجرؤ على قول شيء مماثل عليه أن يواجه قبضتي! يخبط برينيولفر الطاولة، يقفز

الفتى، وقناني الجعة الفارغة التي صفّها برينيولفر بعناية أمامه تقعقع بشدة، ثماني، لا بل تسع قناني جعة فارغة. يقبض القبطان على ذراع الفتى مرة أخرى، في الموضع نفسه لسوء حظّه، يطوّقها بإحكام، ستظهر هناك كدمة قبيحة بلا ريب، إلا أنّ الفتى لا يجرؤ على الحركة. فقط لو رأيت زوجتي تضحك في السابق، هه يا فتى، ولو رأيت عينيها، أوه، ماذا حدث، أين اختفى المرح ولماذا تحتّم عليها أن تتغيّر هكذا، من أين تأتي هذه الظلمة وهذه الكآبة؟ أتعرف يا فتى أننا لهونا مع كريستيان ونحن أطفال، لم نكن نفترق نحن الثلاثة، لا أحد يستطيع سلب المرء الذكريات الطيّبة المشرقة، لكن الذكريات السيّئة لا تختفي أيضًا، بل تصبح أكثر إلحاحًا مع مرور السنين مهما تغيّرت الأحوال. اللعنة على كلّ ذلك. غرق كريستيان، أكنت تعرف هذا؟ أخذه البحر، وهذا طبعًا الطريق الذي علينا ارتياده نحن صيادو السمك، وأنا أفتقده بصدق حقًا، قلّة من الناس يمكنني التحدّث معهم، تعرف أنّ برينداس ابنته، برينداس، ذاك اسم جميل، أتخيّل أنّ الله قد اخترعه لنشعر أننا أفضل حالاً نوعًا ما. كم أتمنى يا صديقي العزيز أن ترى ما كانت عليه عيناها من قبل، لا أعني برينداس، بل أعني ... أعني ... اللعنة... اللعنة على أحرّ جحيم. إنني لا أتذكّر اسمها!

يجلس برينلفر هناك محملقًا والحيرة تتآكله، ولا يتذكّر الاسم المتأصّل في حياته. اسم الفتاة التي لعب معها عندما كانوا في شباب يانع، وكانوا يبنون في الشتاء قلاع الثلج، وفي الصيف يتظاهرون بأنهم من المزارعين، وأحيانا تزيّن شعرها بشقائق النعمان وتمشي كالشمس تمامًا، كانت هي الحكاية الخرافية بعينها، يعقد برينلفر حاجبيه، يحاول جاهدًا تذكّر اسمها، ثم بطريقة آلية يحرّر ذراع الفتى من قبضته، فيتنهّد الفتى بسعادة ولكن بصمت. أخيراً يشعّ وميض في عينيه الثملتين المحتقنتين،

يأتيه مثل شرارة تسبق ولادة فكرة نيّرة، مثل ضوء كامن في طيات ضباب باهت: أنا أشرب كثيراً. يقول بحزم وصراحة، ثم يومئ برأسه موافقًا على كلماته ويضيف، نعم، وقد خنت الجميع. ينظر برينيولفر بكآبة إلى الفتى لكنه يبدو أنه يعاني من رؤيته بوضوح، يميل برأسه إلى الوراء قليلاً، يضيّق عينيه ويكرّر، الجميع! خنتها، أعني زوجتي، وخنت عينيها، خنتهما يوميًا. خنت سنوري وهذا يؤلم. خنت ولديّ العزيزين بيورن وبيارني، وخنت أيضًا تورفيلد، كيف يمكن أن يخون المرء أحدًا مثلها، أي صنف من الدناءة هذا، حقًا أيّ صنف هو؟ فكّر في الأمر، هذا الصباح تمنّيت أن تموت، أتعرف لماذا؟ لأنها طيّبة جدًا معي! تثق بي وتخاطبني بكلمات رقيقة، إلا أنني بدلاً من أن أكون ممتنًا لها أحاول تجنّبها لأنها تجعلني أتذكّر خيانتي، تخيّل لو كُتب لها أن تموت اليوم، أو غدًا ربما، ألن أقتل نفسي حينها؟ مع ذلك أنا لست شريراً، إنه فقط هذا الثقل المتغلغل فيَ، هنا داخلي، يقول ويسدّد إلى صدره خبطة هائلة، هناك بعض الكائنات السوداء داخلي وقد حفرت طريقها إلى قلبي. أحيانًا لا أدرك وجودها، نعم، يمكن أن تمرّ شهور وأبدأ في الاعتقاد أنّ شيئًا ما قد أهلكها وأنني رجل حرّ، ثم تعود إلى الظهور من جديد وتبدأ في ارتكاب جرائرها على نحو أقوى وأقسى بكثير من أيّ وقت مضى. حاولت إغراقها، حاولت إغراق الأوغاد بالجعة والويسكي، لكن لا ريب في أنها سبّاحة ماهرة وتعاقبني بانتقامها الفتّاك عندما أصحو. لا يمكنك أن تتخيّل أبدًا ما شكل انتقامها، أنت ما زلت يافعًا. أوه، فقط لو أنها تضحك من جديد، عندئذ تصبح عيناها رائعتي الجمال ويغدو كلّ شيء حلوًا، فقط لو أستطيع تذكّر اسمها، عندئذ لن يمنعني شيء من ارتياد الطريق المؤدّية إلى البيت مباشرة، أحتويها بذراعيّ وأستجديها باكيًا طلبًا للسماح، لديّ

من الرجولة ما يسمح لي بالبكاء، يمكنك أن تصدّق هذا. والآن ما كان اسمها؟

يسكت برينيولفر. يحاول إبقاء رأسه ثابتًا، يفتّش عن ذراع الفتى، يبتعد الفتى وهذا أيضًا تصرّف حكيم، حينئذ يتحسّس القبطان الفراغ من غير أن يدري ما يفعل. يتراءى لي أنني أستطيع البقاء هنا أسبوعًا، يفكّر الفتى بينه وبين نفسه، لن يضير هذا كثيراً، ولن تضطر أندريا إلى القلق عليّ مطلقًا، بل ربما أبقى أسبوعين. في وسعي حتمًا أن أقرأ روايتين خلال أسبوعين، وبضع قصائد أيضًا، إلى جانب ما يكون علي أن أقرأه لكولبين. أن أعيش أسبوعين أطول لا يكاد يعتبر خيانة، يفكّر بتفاؤل، بل حتى بسعادة، لكن فجأة يجتاح البرد المقهى، ينزلق البرد إلى جسديهما مخترقًا ثيابهما ويفترش جلدهما. يرفع عينيه فتلتقيان بعيني باردور الباردتين، باردور الذي يقف خلف برينيولفر. يحرّك باردور شفتيه. شفتان زرقاوان من الصقيع والموت: كم عليّ أن أنتظرك، يسأل صوته في رأس الفتى، كم على أمّك أن تنتظر، كم على أبيك أن ينتظر، وأختك، أختك التي لا يتجاوز عمرها ثلاث سنوات؟ لماذا تُكتب لك الحياة ولا تُكتب لنا؟ لا أدري، يغمغم الفتى وفرائصه ترتعد من البرد. ثم يعتدل في مقعده ينظر إلى باردور ويصيح تقريبًا بيأس، لا أدري! صه ولا كلمة! يزمجر برينلفر فجأة وينقضّ على ذراع الفتى قابضًا عليها بإحكام، انتظر! لا تذهب، هناك شيء يحدث، صه، ولا كلمة، يكاد اسمها يأتي! ينحني برينلفر إلى الأمام كما لو أنه يستمع، كما لو أنه يروم التقاط رسالة بعيدة، التقاط اسم يتوقّف استمرار الحياة على تذكّره له، يغمض عينيه، يغوص رأسه الضخم ببطء، ويستغرق في النوم قبل أن تبلغ جبهته سطح الطاولة. فلا يبقى هناك غيرهما، الفتى وباردور، ذاك الذي عاش وذاك الذي مات. يخلّص الفتى ذراعه من قبضة برينيولفر، ولا يشيح

بوجهه عن باردور الذي يحرّك شفتيه الممتقعتين الباردتين ويقول، أنا وحيد هنا. وأنا أيضًا، يتمتم الفتى، شبه معتذر، ثم يرفع صوته ويقول، لا تذهب، من غير أن يعرف ما إذا كان يعني ذلك أم لا. لا يقول باردور شيئًا، يبتسم بمرارة فقط. يبدأ الثلج في الخارج بالتساقط، يتساقط بصمت من وراء النوافذ، ندف كبيرة تحوم مثل أجنحة الملائكة. يجلس الفتى ساكنًا وأجنحة الملائكة تحوم في الخارج، يجلس ويراقب باردور وهو يتبدّد شيئًا فشيئًا ويتحوّل إلى هواء تقشعر له الأبدان.

هذه الرواية أشبه بحجر كريم خام، قراءتها سلسة وشاعرية بسلاسة وشاعرية المحيط الذي تتجلى فيه أحداثها. تأخذ مجراها في وقت ما عند منعطف القرن الأخير في قرية صيد سمك تقع في زقاق بحري غربي. تسجل رواية جنة وجحيم ثلاثة أيام وليالٍ من حياة فتى غير مسمّى. مع ذلك لا يمكن القول إنها رحلة عادية من الشباب إلى سنّ الرشد. يخاطب يون كالمان طبيعة الوجود ذاتها. يستخدم البحر رمزاً لعرضية الحياة المتوقعة تقريبًا ضمن العالم الأدبي التقليدي القديم، مثل أعمال ميلفل وهمنغواي. إلا أنّ كالمان على الرغم من هذا يحركها بصوته الفريد الخاص: مشبعة بالفولكور مع لمسة شعرية حساسة..."

(The Reykjavik Grapevine Art)

"كتاب أشبه بمحارة حبلى بلؤلؤة: تحت الصدفة القاسية يكمن كنز باهر..."

(Spiegel online)

"هناك أسباب مختلفة تستدعي قراءة هذه الرواية، لكن أهمّ سبب ربما هو قدرة الكاتب الفريدة على السيطرة على اللغة بمثل هذا الجمال الباهر..."

(Weekendavisen)

"الرواية الأجمل التي قرأت منذ عدة سنوات. شعر سماوي عن جحيم الأرض..."

(Dagbladet, Norway)

"هدف كالمان هو أن يعيد إلى الحياة عالمًا أيسلنديًا طواه النسيان. وإذ يفعل ذلك لا يكفّ عن البحث في أعماق نفسه عن نثره الخاص؛ نثر جريء وساحر وحافل بالشعر..."

(INTERNAZIONALE)

"أسلوب المؤلف غنائي وشعري... أحداث الرواية تتكشّف على نحو حيوي ودرامي، ويشعر القارئ أنه جزء من مشاهدها. هذا المزيج يخلق تجربة قراءة عميقة بطريقة استثنائية..."

(Alannah Hopkinson, Irish Examiner)

"سرد رائع... أشبه بنفس من أعماق البحر..."

(Nils C. Ahl, Le Monde)

ISBN 978-91-87333-29-3

9 789187 333293

دار المنى